مذكّرات غلوب باشا

حياتي في المشرق العربيّ

ترجمة: جورج حتّر ◆ فؤاد فيّاض



مذكّرات غلوب باشا

حياتي في المشرق العربيّ

ترجمة: جورج حتّر ♦ فؤاد فيّاض





الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : ٨٢٤٢٠٣ / ٠١ ـ مقسم ١٩

مذكّرات غلوب باشا
حياتي في المشرق العربيّ

ترجمة : جورج حتّر + فؤاد فيّاض / الأردنّ

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٥

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** / الأردن
®

الصفّ الضوئي :
إيمان زكريّا خطّاب ، عمّان ، هاتف ٠٧٩/٥٣٤٩١٥٦

محتويات الكتاب

مقدمة

الإنجليزي النبيل

يعتبر (الفريق غلوب) واحد من أعظم الشخصيات العسكرية والسياسية في بريطانيا. فبين سنة 1897 التي هي سنة ولادته وسنة 1986 حيث توفى بمنزله في (مي فير) عن عمر ناهز الثامنة والثمانين، استطاع هذا الرجل أن يعيش حياة خصبة ومعطاءة ولا سيما في الجوانب العسكرية والسياسية والفكرية، ومن المهم أن نذكر ارتباط (غلوب باشا) الحميم في تاريخ العرب. بكونه شاهدًا وقائدًا للأحداث الكبيرة التي مرت بها الأمة العربية خلال الحرب العالمية الأولى وما تلاها وبالخصوص مأساة فلسطين والدور الكبير الذي لعبه الرجل بالانتصار لقضية العرب ودفاعه المستميت عن الأراضي الفلسطينية وفضحه للسياسات الصهيونية الوحشية التي ارتكبت بحق أهلنا في فلسطين على الصعيد الميداني والسياسي والفكري وطيلة حياته.

جاء (غلوب باشا) عام 1920 إلى العراق مركّزًا عَمله في المنطقة الجنوبية (منطقة الحياد سابقًا) واستطاع بجد ومثابرة أن ينشئ قوة منظمة لحماية القبائل العراقية من الغارات التي تشنها القبائل النجدية السعودية، حتى حقق أخيرًا الهدف المنشود وأشاع الأمن والطمأنينة في جنوب العراق. وأنيطت به مهمات إدارية في بعض الألوية العراقية وقام بعمله على أكمل وجه. وقد حصل في

نهاية خدمته في العراق على تكريم الملك فيصل وذلك بمنحه وسام الرافدين. بعدها استدعته الحكومة الأردنية لقيادة الفيلق العربي. واستمرت مهمته في الأردن حتى عام 1956، وبعدها عاد إلى بريطانيا لينصرف إلى البحث في تاريخ الأمة العربية منذ ظهور الدعوة الإسلامية وعصر النبي محمد ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والفتوحات الإسلامية الكبرى حتى تجاوزت مؤلفاته العشرين كتابًا.

وكان (غلوب باشا) في أغلب آرائه قريبًا من وجهة النظر العربية لكنه في بعض الأحيان لا يستطيع التحرر من وجهة النظر الإنكليزية الرسمية.

ويبقى لهذا الإنكليزي النبيل مواقفه المشرفة في الدفاع عن حقوق العرب، إذ ظل حتى أواخر عمره دؤوبًا في إلقاء المحاضرات في مختلف أنحاء العالم وتوضيح التاريخ العربي والإسلامي وحق الفلسطينيين في إقامة دولتهم للغرب الذي كان على الأغلب مأخوذاً بالدعاية الصهيونية وماكنتها الإعلامية الجارفة.

إن مذكرات (غلوب باشا) تمثل جزءًا حيويًا من تاريخ العراق والأمة العربية عامة. وهي مذكرات جديرة بالقراءة والاطلاع من قبل كلِّ عربي للتوقف على المجهول من تاريخه المعاصر.

- 1 -

سيرة شخصية أو شجرة العائلة

من المعروف أن (غلوب) قد تحدر من أوائل البريطانيين، ذلك أن أول (غلوب) ذُكر بصفة شخصية في التاريخ، هو (هنري غلوب) الذي كان عضوًا في البرلمان عن مقاطعة (أوكتشامبتون) في سنة 1313 في عهد الملك إدوارد الثاني.

أما جدّي الأكبر (توماس غلوب) فإنه قد ولد في شهر نيسان سنة 1725، واستقر في (نذر ستوي) في (سومرست). وقد تزوج في اليوم الثلاثين من شهر كانون الأول سنة 1756 من (إليزابيت كننغهام). وقد قيل عن أسرة (كننغهام) هذه بأنها كانت تتحدر من نسل الإيرل الثامن لمقاطعة (غلنكيرن).

وفي سنة 1715، مُزقت عشيرتهم شر ممزق في معركة (شر فموير)، حين نشب القتال بسبب أحد المدعين بالزعامة فهربوا من اسكوتلندا، واختبأوا في (أوكتشامبتون) في (ديفون). كان (بيتر غودمان غلوب) نجلا لتوماس غلوب من (نذرستوي) وزوجته اليزابيت كننغهام غودمان وقد أصبح (بيتر) محاميًا في (ليسكيرو) بمقاطعة (كورنوال) في سنة 1783. وكان ولده الأكبر (بيتر غلوب) قد حذا حذوه في مزاولة مهنة المحاماة في (لسكيرد). أما ولده الثاني (جون ماتيو غلوب) فإنه تخرج بمرتبة الشرف الثانية في كلية اكستر (بجامعة أكسفورد) في سنة 1814، واشتغل مدة سبع عشر سنة كاهنًا لكنيسة (سان بتروكس) في (دار تموث) بمقاطعة (ديفو نشاير) ومن ثم أمضى مدة خمس وثلاثين سنة كاهنًا

لكنيسة (شرمانبري) في (سوسكس) حيث عين عميدًا ريفيًا، ومفتشًا اسقفيًا للمدارس هناك.

بينما كان أفراد آخرون من أسرة غلوب قد تفرقوا في كلّ أنحاء العالم. كان أحدهم قد قتل في الهند، وقتل الآخر في حرب شبه الجزيرة، بينما قتل ثالث منهم في جنوبي أفريقيا وغادر ولدا (جون ماتيو غلوب) أرياف كنيسة (شرما نبري) للالتحاق بالخدمة في شركة الهند الشرقية في سنة 1847، وقد التحق الأكبر منهما، وهو (جون ماتيو) بفوج المشاة البنغالي الخفيف رقم 38، لكنه ما لبث أن نقل فيما بعد إلى فوج زارعي الألغام.

وقد أصيب بجروح شديدة في ستة مواضع من جسمه حين كان يقود فريقًا من المهاجمين في منطقة (فتشبور سكري).

وكان مثل ذلك الهجوم يعتبر على الدوام امتيازًا لتابع المهندس الأقدم، الذي يحضر ليقود ذلك الفريق المهاجم حتى الشاطئ الذي يحيط بسور المدينة. وفي سنة 1864 تزوج هذا الولد من (ماري سارة كاترين وتنغتون) وأكمل خدمته في الهند، ليعود بعد ذلك إلى إنكلترا فيسكن في مقاطعة (بدفورد).

أما ابنه فقد أصبح قسًا لكنيسة (جراردس كروس) وهي الكنيسة التي يقال عنها بأن الشاعر (غراي) (وهو من الشعراء الإنكليز الذين سبقوا العصر الروماني) قد نظم فيها مرثيته الشهيرة المعنونة (مرثية في ساحة كنيسة ريفية).

أما الولد الثاني من أولاد (جون ماتيو غلوب) (أولاندو مانلي غلوب) فهو جدي، وقد انضم إلى فوج المشاة البنغالي الخفيف رقم 37 في الجيش الذي أنشأته شركة الهند الشرقية، وكان يشغل منصب السكرتير للعقيد حاكم إقليم البنغال وشارك في الحرب الثانية ضد السيخ خلال السنة 1848 - 1849،

وترفع إلى رتبة نقيب في هيأة أركان جيش البنغال وقد تزوج في اليوم الثاني من شهر تشرين الأول سنة 1856 في كلكتا من (فرنسيس لتيتياكلي) ابنة النقيب (جون كلي) والتي كانت تعمل في شركة (نيوبارك) في (لونغفورد) وكان ذلك النقيب ضابطًا في الفوج السابع والثمانين لحملة البنادق الإيرلنديين. وكان أبوه قد فقد ساقه في حرب شبه الجزيرة (حرب شبه الجزيرة PENINSULAR WAR المقصود بها (حرب القرم) بين روسيا وتركيا التي بدأت أولاً في سنة 1854 ولكن بريطانيا وفرنسا ما لبثتا أن وقفتا إلى جانب تركيا في الحرب فضرب الأسطول البريطاني ميناء سواستبول، وشاركت القوات البريطانية في عدة معارك برية ضد الروس مما أدى إلى اندحارهم وطلبهم الصلح الذي تحقق بالتوقيع على معاهدة باريس في الثلاثين من شهر آذار 1856 وبموجب المعاهدة أصبح البحر الأسود محايدًا، وفتحت أبوابه لتجارة الدول كلها، كما أبيحت الملاحة في نهر الدنوب لكل الدول وإجبار سلطان تركيا على إدخال الإصلاحات في بلاده وعدم التفريق بين سكان تركيا من ناحية الجنس أو الدين). ثم عاد إلى (بريتون) وهنا، وإذ كان في أحد الأيام متكئًا على ساقه الخشبية شاهد عربة تحمل زوجًا وزوجه تجري نحوه بمنتهى السرعة وما لبث الحوذي أن سقط من مقعده، وتقطعت الأعنّة، وكانت المرأة التي أرعبها الحادث تصرخ داخل العربة. ولم يلبث (كلي) الشيخ أن وثب إلى الشارع وألقى بنفسه على رأسي الحصانين اللذين يقودان العربة، فقلباه من ساقيه، لكنه استطاع أن يمسك باللجام، وأن يسحب الحصانين لما تميّز به من ثقل الجسم ويقودهما إلى أحد المواقف، ومن ثم يسلمهما إلى الحوذي الذي كان قد وصل آنذاك، ومن ثم خلع (كلي) قبعته للسيدة وهو يتعكز على ساقه الخشبية! .

ونعود إلى زواج فرنسيس لتتياكلي وأورلندو مانلي غلوب في كلكتا سنة 1856 فنقول أن (فاني) فاني FANNIE تصغير تحبيب للاسم فرنسيس وكان زوجها يذكرها في رسائله إليها باسم (فان FAN) أيضًا. و(مانلي غلوب) كانا قد وقعا في غرام شديد، وأن الرسائل العديدة التي احتفظ بها تبرهن على ذلك بكل وضوح. وما أن مرت بضعة أسابيع على خطوبتها حتى بدأ التمرد في الجيش البنغالي.

تقرر حل الفوج البنغالي المحلي رقم 37. وفي اليوم الرابع من شهر حزيران سنة 1857 كانت إحدى الكتائب قد تم استعراضها في ساحة الثكنة لهذا الغرض، في الوقت الذي كانت فيه (فاني غلوب) تتفرج على ذلك الاستعراض من نافذة منزلهما.

وما أن أُمرت السرية من قبل (مانلي غلوب) حتى وضعت أسلحتها على الأرض تنفيذًا لأوامره، ومن ثم بدأت المسيرة. أما السرايا الأخرى من الكتيبة فإنها قد فتحت النار على ضباطها قبل أن يتم نزع السلاح منها.

وبعد التمرد أصبح (مانلي غلوب) يعمل في صفة مساعد سكرتير عسكري لمقاطعة نورث ويست وسرعان ما نشر اسمه بعد ذلك في الصحيفة الرسمية بعنوان (مدير شرطة منطقة ومن الدرجة الأولى في منطقة ميروث) وكان تحت إمرته ألف ومائتان من رجال الشرطة المشاة وثلاثمائة من الخيالة.

وكانت هذه المنطقة من أوسع المناطق في مقاطعة (نورث ويست)، وقد ألقيت على عاتقه مهمة تنفيذ أنظمة الشرطة حيث كانت الفوضى والاضطراب ما يزالان يسودان هناك نتيجة التمرد الأخير.

ولقد شكرته الحكومة على خدماته في إعادة الأمن إلى نصابه. وأرسلت نسخًا من تلك الأنظمة إلى جميع مدراء الشرطة في المقاطعة، مصحوبة بأوامر

تقضي بتنفيذ تلك الأنظمة في المناطق المختصة. ولغرض ضبط هذه المناطق المختلفة، دخل مانلي غلوب امتحانات ذات مستوى عال في اللغتين الفارسية والهندية وامتحانًا آخر في القانون الإنكليزي، بما في ذلك اختياره لتطبيق قانون العقوبات الهندي.

إن الفترة التي أعقبت التمرد فترة شدة قوية لكل من (فاني) وزوجها مانلي غلوب. على أنهما في ذلك الوقت كانا قد رزقا بطفلين، كان الأكبر منهما هو والدي. أودعت (فاني) مع طفليها في مكان أمين، في حين كان غلوب يعيش بعيدًا عنهم، وهو يؤدي واجباته التي لا تنتهي ويبذل جهوده لاستعادة الأمن والنظام.

12 أيار

عزيزتي فان

سوف أبعث إليك بأسطر قلائل ليس إلا، لأخبرك بأنني قد وصلت إلى هنا بسلام، وعن الغرض من ذهابي إلى (الله أباد) كانت الطريق إلى مسافة حوالي ثلاثين ميلاً، غير آمنة كثيرًا ! ولقد شعرت بالفرح حين وجدت نفسي خارج نطاق الخطر. لم يصادفنا أي تعرض، ولكن كان واضحًا من سلوك الناس على الطريق بأنهم كانوا يظنون بأن المتمردين قد يظهرون في أية لحظة لقد كنت أفكر كثيرًا فيك يا مدللتي، وفي صغارنا، وفي البؤس الذي قد تتحملينه لو حدث أي شيء لي.

إني مسرور جدًا لأنك لم تأت معي ذلك لأن الحرارة بالغة الشدة، ولتدومي إلى الأبد زوجة عزيزة

حبيبك المتلهف لك / مانلي

بتارس 16 أيلول 1859

عزيزتي فان

وصلت إلى هنا مساء أمس وكنت أفكر فيك، وفي صغارنا الأعزاء دومًا خلال الطريق، حتى لقد أعددت بأن أنذر نفسي وأتصورك مريضة!! ومهما يكن فقد حسمت هذا الإحساس حين أنبئت في المقر، بأنه لم تصل إلي أية رسالة ذلك لأنني استنتجت بأنه، إذا ما حدث أي شيء من هذا لك، فإن السيدة ستيفنسون سوف تبعث، على وجه التأكيد، ببرقية عن ذلك.

دعيني أعرف حالك وحال الأطفال، لا تجهدي نفسك كثيرًا يا مدللتي. ينبغي أن تحافظي بعناية على قوتك لإنفاقها في (الله أباد) إنني أفتقدك كثيرا. في أمان الله يا فان اعتني بنفسك، قبّلي لي الصغار، ولا تسمحي إلى (لوي) بأن ينسى كيف ينطق با. بابا!

زوجك المغرم بك دومًا / مانلي

غير أن مسيرة الحب المقدس لكل من فاني ومانلي لم يعد من المستطاع تحملها طويلاً ففي شهر آب 1861 كانا يعيشان في (مرث) ولكن (فاني) كانت تمكث غير بعيد، مع أصدقاء لكي تغير الجو للأطفال. وفيما يلي ذكر لوفاة مانلي تضمنته رسالة كتبت بعد الحادث مباشرة. من قبل أخيه (جون ماتيو غلوب) الذي كان قد حضر وفاة أخيه.

(في ليلة الخامس والعشرين من شهر آب سنة 1861 تناول (رنبار) من كتيبته القديمة طعام العشاء مع مانلي. وما أن غادر المسكين مانلي المكان حالاً حتى قال (إن جوفي ليس على ما يرام هذه الليلة، لكنني سوف أتناول شيئًا من الزنجبيل، وأن ذلك سوف يحسن من وضعي. أقبل (رنبار) عند الصباح لكي

يركب معه حين كان يتشكى مرة أخرى من انحراف صحته، ولذلك ذهب الاثنان معًا إلى الدكتور (كتكلف)، لكنهما وجداه خارجًا فذهبا إلى (كوربن) وطلبا منه حبة دواء كان (كوربن) قد أنبأه بأن هذا العارض ليس بذي أهمية وأن الدواء الذي أعطاه إياه سوف يشفيه، وإذ ذاك تناول (مانلي) الحبة وذهب إلى الدائرة (كان هذا قد حدث في حوالي الساعة الثامنة). لم يستطع أن يبتلع الحبة، ولكنه بادر عمله في الدائرة وفي الساعة العاشرة أحس بأن حالته قد ازدادت سوءًا، فغادر إلى بيته، واستلقى على سريره).

جاء (رنبار) ليراه، في الساعة الحادية عشرة فوجده جد مريض، وهو في سريره. كان المرض الشديد قد انتابه عدة مرات، فبعث يطلب الدكتور (كتكلف) الذي قال عنه بأنه مصاب بالكوليرا وأخبر مانلي بذلك. سأل مانلي الطبيب عما إذا كان في خطر، فجاءه الرد (نعم!) فقال للطبيب (ابعث بطلب مجيء زوجتي إن كنت في خطر، ولكن لا تفزعها من دون داع !).

في حدود الساعة الثالثة عشرة بعد الظهر ظن الطبيب بأن مانلي سوف يشفى، لكنه أبرق في تلك الساعة إلى (فاني) يطلب قدومها. وبعد أربع ساعات تقريبًا كان مريضًا جدًا إلى درجة أن (أوجلفاي) من الفوج الثامن والأربعين قد أنبئ بأن (مانلي) لم يعرفه!

كان المرض شديدًا عليه إلى الحد الذي أفقده القدرة على النطق، إلا من كلمات متكررة يستفسر بها عن قدوم زوجته، وكان يتوسل إلى الطبيب بأنه في حالة وفاته أن يأخذها إلى دار الرائد (فرث) والسيدة زوجته. كان يتحدث عن الموت بهدوء واتزان لأنه لا يخاف الموت قط. كان المسكين يعرف أن نهايته كانت قريبة وقد أطاع ما قدر له من دون أدنى شكوى.

يتفق جميع الذين كانوا قريبين منه بأنهم لم يشهدوا قبلاً مثل تلك الروح والجسد وهما يفترقان بهدوء. في حوالي منتصف الليل أصبحت عيناه ساكنتين لا تتحركان وبقي على هذه الحالة حتى الساعة الرابعة صباحًا ومن ثم انتقلت روحه إلى بارئها.

نظم (أوجلفاي) الغرفة حين وصلت العزيزة (فاني) وما أن رأت القوم حتى عرفت النبأ السيئ فهتفت (خذوني إليه)! فأخذوها وتركوها مع كل ما بقي منه ذلك الإنسان الذي أحبته حبًا حقًا. إنكم تعرفونها، وفي مستطاعكم أن تتصوروا مدى حزنها فإذا كانت هناك قصة حب حقيقي ومخلص، فإن حبها كان هو الوحيد.

كانت الرسالة المؤرخة في شهر آب سنة 1861، والتي أصفر لونها من القدم، ملقاة اليوم على منضدتي. العزيزة (فاني) هي جدتي، وقد قدر لها أن تعيش أربعًا وأربعين سنة بعد وفاة (مانلي) إلا أنها بقيت تتشح بالسواد، وتنوح طيلة ما تبقى من حياتها.

لقد ترك لها (مانلي) ما يكفي من المال لكي تنفق على عودتها إلى إنكلترا مع أطفالها، ولذلك استقلت، وهي في الرابعة والعشرين من عمرها، إحدى السفن التي أبحرت حول رأس الرجاء الصالح، حيث استغرقت تلك الرحلة عدة شهور وفي إنكلترا سكنت مع حميها (جون ماتيو غلوب) قس كنيسة (شرما نبري) في سوسكس. إنني ما زلت أتذكر جيدًا محيّاها الحلو الرقيق، وملابسها السود، لأنها لم تتوف إلا في سنة 1904 حين كانت أنا في ذلك الحين في السابعة من عمري.

قد يظن بأنه لم يكن من اللازم أن أورد هذا الوصف لوفاة جدي لأننا كلنا سوف نموت لكنني فعلت ذلك لأن هذه القصة قد رويت بحيوية من قبل

بعض الناس الذين حضروا تلك الوفاة كما أنها تصور شيئًا مما في الطبيعة القلقة للحياة في الهند، في أواسط القرن التاسع عشر، وقبل اختراع الأدوية واللقاحات الحديثة. ففي تلك الأيام كان يمكن للشاب، وهو في ذروة قوته البدنية، أن يموت في أي وقت كان خلال أربع وعشرين ساعة. أستطيع أن أتذكر جيدًا وباء الكوليرا الذي حصل في مدينة (الناصرية) جنوب العراق في سنة 1922، ومواكب التشييع المتواصلة التي كانت تسير على الأقدام، وهي تحمل الجثث لدفنها، وفي أعقابها النساء المعولات.

ذهب أبي أول الأمر إلى مدرسة تمهيدية في برايتون، ومن ثم حصل على زمالة دراسية في ولنغتون وفي سنة 1875 تخرج بالترتيب الثالث على الكلية العسكرية الملكية في (وولوج) وكان على الدوام يسعى إلى أن يصبح عسكريًا، غير أن قلة من الضباط في تلك الأيام، كانت تستطيع أن تعيش على المرتب الذي تتقاضاه.

وإذ كانت أمه الأرملة لا تستطيع أن تمده بالمعونة المالية، فقد التحق بكتيبة المهندسين، حيث كان في مقدور الضابط أن يعتمد في عيشه على مرتبه. كانت الشهادة الأولى التي منحت له، ملقاة على منضدتي في الوقت الذي أدوّن فيه هذه الكلمات. وقد جاء في تلك الشهادة (فكتوريا بحمد الله... إلى محبوبنا الموثوق به، فردريك مانلي غلوب.. وقد منحت في بلاطنا في سان جمس في اليوم السابع من شهر أيار سنة 1878.

كان فردريك مانلي غلوب ملازمًا أول فتيا، وغير معرض للمسرات، وأعمال الطيش المعتادة، كان راقصًا حاذقًا، ولقد عثرت بين أوراقه الأولى على وصفة طبية لتوتر الأعصاب، خلال التمثيليات الطوعية تقول (تناول قدحًا من

شراب (البورت) خلف الستائر في بداية كل فصل تمثيلي !) غير أن هوايته الأثيرة إلى نفسه كانت تتمثل في ركوب الخيل، وأن يظل ممسكًا بهذه الهواية طيلة حياته، وإلى حد أقل، في حياتي أنا.

كان ضئيل الجسم، خفيفًا ورياضيًا. وسرعان ما تعاظم الطلب عليه بأن يكون هو الذي يمتطي الجواد المتسابق (جاكي) في اجتماعات السباق التي كانت الحامية تقيمها ولقد كانت الكؤوس والميداليات الفضية الوحيدة التي كانت على الدوام تزين خواني، هي التي كسبها أبي براعة في ركوب الخيل وكانت هذه الكؤوس والميداليات تدون تلك السباقات (اجتماع برمودا الربيعي لسنة 1883 في سباق (البولو) ربحته مهرة المستر (غلوب). (اجتماع مالطا الربيعي لسنة 1885 في سباق البولو، ربحه حصان المستر (غلوب) (المعروف باسم (ريل جام). (اجتماع مالطا الشتوي لسنة 1885. سباق (هرول) ربحه حصان (غلوب) المسمى (تشري براندي) وعلى هذه الشاكلة تتحدث قائمة السباقات. ولما كان أبي يعيش على الراتب الذي يتقاضاه فإنه لم يكن من اليسير عليه أن يقتني الخيول. وكانت رسائله إلى أمه مليئة بمعلومات مطولة تتحدث كيف أنه كان يقتني الخيول العرجاء أو غير النافعة، أو الخيول الطاعنة في السن، أو أي حصان مصاب بصفة سيئة تجعله يباع بثمن بخس، بحيث يستطيع أبي أن يخص وقته ومسرته للعناية به وتدريبه.

في سنة 1887 نقل أبي من (الدرشوت) إلى (كرا) أكبر حامية في إيرلندة في تلك الأيام وهنا كان مستقبله (ومستقبلي أنا لذات الشيء أيضًا) قد تقرر، لأنه التقى مع الآنسة (فرنسيس لتتيا باغوت) ابنة (برنارد وليم باغوت) من (كرانكور). وإذ كان (آل غلوب) من (السلتيين) (السلت CELT شعب هندي جرماني استوطن أوربا الوسطى في عصور ما قبل التاريخ ثم تقدم نحو المناطق

الغربية واندمج بالشعوب الرومانية ما تزال آثاره اللغوية باقية في إيرلندة وفي مقاطعة (بريتاني) في فرنسا ويطلق عليهم أحيانًا اسم السلتيون والكلتيون). البريطانيين، فإن آل (باغوت) كانوا من (النورمانيين) الفاتحين (النورمان هم أهل الشمال الأوروبي، وهو اسم أطلق على الغزاة الفايكونغ القادمين من بحار اسكندنافيا في القرن الثامن بعد احتلالهم شواطئ أروبا، ومارسوا التجارة البحرية وتوسطوا بين البزنطينيين والغرب. استولى بعضهم على الحكم في مدن روسيا أهمها (كييف) اكتشفوا جزيرة (إيسلندا) في القرن التاسع مارسوا القرصنة البحرية وسكنوا مقاطعة نورماندي ومنها احتلوا جزر بريطانيا في سنة 1066 أطلق عليهم مؤرخو العرب في الأندلس اسم (الأردمان))..

فقد كانت أسماء آل (باغوت) وبدلاتهم العسكرية تظهر في قائمة موقعة (أبي) حيث يزعم بأنها كانت قائمة أسماء الفرسان الذين حملوا السلاح في معركة (هاستنغن) غير أن (باغوت) الذي يُزعم عنه بأنه قد جاء مع الفاتح، قد تم تثبيته في كتاب (دموزداي) الذي يسجل منح الأراضي إلى آل باغوت في (برامشال) بمقاطعة (ستافورد شاير) سنة 1086.

ولقد كان (هرفي فوتز باغوت). وربما هو ابن المحارب في هاستنغن، أو حفيده، يعيش في سنة 1160، حين كان يتقاضى أجور ثلاثة فرسان لمقاطعة قديمة من سيده الإقطاعي (روبرت دي ستافورد) والذي كان قد تزوج ابنته ولا تزال الأسرة تعيش في (بلثفيلد) في كونتية ستافورد.

في سنة 1170 عبر (رتشرد دي كلير) الإيرل الثاني لمقاطعة (بمبروك) ولقبه (سترونغ بو) إلى إيرلندة ليساعد (درتموت مكمورو) ملك (لينستر) الذي طرد من ممتلكاته وإذ كان (هنري) الثاني ملك بريطانيا هو سيد (سترونغ بو)

المرتبط له بالولاء، فقد منحه أراضي في كل من (ويكسفورد)، و(واترفورد)، و(دبلن).

اشترك أحد أفراد (باغوت) من ستافورد في جيش (سترونغ بو) وأسس فرعًا إيرلنديًا له. ولقد حصلت الأسرة على مركز معين لها في إيرلندا، لأننا نجد في سنة 1495 سجل (باتريك باغوت) صاحب قلعة (باغوتستاون) في كونتية (لمريك). وبعد مائتي سنة كان (غدوار باغوت) يتولى منصب الشريف الأعلى لكونتية (كلدير) كونتية الملك ذاته.

ولقد حطمت الأسرة نفسها تقريبًا حين ساندت (شارل الأول) في الحرب الأهلية، وقضية اليعاقبة بعد نفي (جمس الثاني) وكان جدي لأمي (برنارد وليم باغوت) من بيت (كرانور) يعيش في كونتية (روس كمون).

كانت جدتي أم والدتي تدعى (جوزفين إيزابلا) ابنة المحترم (جوزيف هولمز) من بيت (كولغهر) في كونتية (سليغو). وفي بداية القرن التاسع عشر، أصبح (وليم هولمز) من الرجال البارزين في الحياة السياسية في لندن. فقد كان نائبًا في البرلمان عن منطقة (هزلمير)، وتولى منصب مدير خزانة المعدات الحربية في حكومات كل من اللورد لفربول، و(دوق ولنغتون).

ولقد قيل عنه بأنه كان يتسم بسمة فريدة، هي أنه هو العضو الوحيد من حكومة (دوق ولنغتون) الذي تجرأ على أن يصوت ضد الرغبات التي أعرب عنها رئيسه صراحة. فالواضح أن وليم هولمز كان رجلاً صاحب شخصية كما أنه كان في ذلك الوقت صديقًا حميمًا للجنرال (بكتون).

وتذكر الروايات التقليدية، بأن الجنرال (بكتون) في الليلة التي سبقت إبحاره إلى بلجيكا، لكي يشارك في معركة (واترلو)، كان قد تناول طعام العشاء

في لندن مع (وليم هولمز) وبعد أن انتهى العشاء سمح لطفله الصغير بأن يقبل، فيقدم احتراماته للضيف، ولكن الطفل حين كان يفعل ذلك، قلب قدحًا من الشراب أحمر اللون على البنطلون الأبيض القصير الذي كان الجنرال بكتون يرتديه. كان ذلك اليوم، هو يوم البنطلون القصير المصنوع من جلد الغزال والذي استمر معه طيلة حياته، ويبدو بأن الجنرال لم يكن ليحتفظ بزوج ثان من ذلك البنطلون معه. ومهما يكن الأمر فإنه قد أبحر في تلك الليلة وهكذا انطلق القائد إلى الحرب ببنطلونه الذي سبق أن اصطبغ باللون الأحمر العميق ولربما كان ذلك اللون نذير شؤم. وبعد أيام قلائل قتل الجنرال بكتون في الوقت الذي كان يقود فيه فرقته في (واترلو) وقد اختلط دمه الزكي بلون الشراب الأحمر الذي لوث بنطلونه.

لقد اعتدت أن أقول لأمي بتصنع، وأنا طفل، أن خوذة (باغوت) كانت أشبه بعنزة تتطلع خلال حلقة منديل المائدة، وإن كنت أتصور في الواقع، ذلك الوحش المسلح المقصود، ربما كان يعتزم أن يصبح واحدًا من الغزلان وحين كبرت انتبهت بتكاسل في أحد الأيام، إلى اسم (باغوت) في القصة التي كتبها (بروك) بعنوان (طبقة النبلاء) فوجدت بأن الخوذ كانت توصف بأنها نوع من تاج لرأس عنزة فضي كان يلبسه (دوق). وأكثر من هذا أن أذرع المائدة كانت أشبه بدعائم لعنزتين فضيتين، ولذلك كنت مصيبًا بإطلاق كلمة (عنزة) فوق كل شيء.

ولكن لماذا استحوذ عليّ هذا الهاجس بالنسبة إلى الماعز؟ صحيح أنه كان يوجد الكثير من الماعز في (روس كمون)، ولكن بدلة الحرب هذه كان يشارك فيها بالتساوي كل فرع (ستافورد شاير). لقد قيل لي أصلاً أن شخصًا يدعى (ريتشارد باغوت) كان أحد المحاربين الصليبيين الشجعان وقد جلب معه قطيعًا من الماعز على ظهر الباخرة، حين عاد من فلسطين بحرًا وكانت تلك هي

الوسيلة المعتادة للحصول على اللبن واللحم الطازجين خلال الرحلة البحرية. ولكن ظهر أن تلك الماعز كانت من النوع الذي يتصف بالرقاب السود التي عثر عليها في وادي (الرون) (وادي الرون RHON حول نهر الرون الذي ينبع من جبال سويسرا ويجري معظمه في أراضي فرنسا ويصب في البحر المتوسط، ويمر بمدينة (ليون) الفرنسية الشهيرة)، وكان يطلق عليها اسم (شوار زهال) والمعتقد أن (ريتشارد الثاني) (1377 – 1399) كان في إحدى المرات قد أمضى عيد الميلاد في (لتشفيلد) واستمتع بقنص طيب في بستان (باغوت)، وقد متع نفسه بذلك كثيرًا إلى درجة أنه أهدى قطيعًا من هذه المعيز إلى السير (باغوت). ومن المؤكد أن آل باغوت قد أطروا تلك الهبة الملكية، وأنهم اختاروا رأس العنزة شعارًا لهم، كما اختاروا (العنزتين) تدعيمًا لبدلاتهم الحربية.

وما تزال ماعز (باغوت) موجودة، وكان البعض يعنى بها من لدن (نقابة تربية الحيوانات النادرة الباقية على قيد الحياة).. وكانت هناك (جمعية عنزة باغوت) التي تعني بها أيضًا. وأنا مدين بهذه التفصيلات إلى (الليدي باغوت) نانسي التي ما تزال تعيش في بلثفيلد في مقاطعة ستار فورد شاير.

كانت النقطة المؤثرة دائمًا بالنسبة إلى هذه الأسماء القديمة، من أمثال (غلوب) و(كلي) و(باغوت) أو أيًا كان منهم، هي نظرتهم الساذجة. ذلك أنهم كانوا يؤدون واجبهم حسبما يبدو ذلك لهم من دون شكوك أو تفلسف. أما اليوم، فإننا على النقيض من ذلك، نطرح الأسئلة حول كل شيء ونجادل ونتناقش، ونتحدث وفي النهاية لا نفعل شيئًا.

فالروحية الثقيلة العمياء تعد واحدة من الدلائل المؤكدة على الانحطاط والتفسخ، في الوقت الذي يكون فيه التكريس البسيط للواجب والخدمة سمة مميزة للعظمة القومية.

يعتبر زواج أبي من أمي في عام 1889 في دبلن من الزيجات السريعة، والهادئة، حيث غادرا بعد ذلك مباشرة، إلى هونغ كونغ، حيث كان أبي قد نقل إلى هناك. ولقد مكثا ثلاث سنوات في الشرق الأقصى، كما قاما بزيارة كل من الصين، واليابان أيضًا.

ولدت شقيقتي (غواندا) في سنة 1894 بعد عودة أبوي إلى إنكلترا. أما أنا فقد ولدت في اليوم السادس عشر من شهر نيسان سنة 1897 في مدينة برستون في لانكشاير، وإن كان أبي، قد أوفد بعد ولادتي بثلاثة أسابيع، إلى منطقة بورتسموث، ومن ثم انتقلنا إلى نيتلي على شاطئ (سوتامبتون واتر).

لقد حدثت أمور أكثر خطورة لم تكن معروفة لدي أثناء الحضانة. فقد اندلعت الحرب في جنوبي أفريقيا. وقد استولى القلق على أبي، مخافة أن تنتهي الحرب قبل أن يذهب إلى هناك. كان أبي آنذاك قد أمضى اثنتين وعشرين سنة في الجيش، ولم يشارك خلالها في الخدمة الفعلية النشطة. وفي شهر كانون الثاني سنة 1899 كتب أبي إلى أمه يقول بأنه لم يتسلم أية أوامر بعد، وأضاف بمرارة يقول (أفترض بأنني سأظل على الدوام جنديًا في وقت السلم ليس إلا) !

وأخيرًا جاءت الأوامر، فأبحر أبي في شهر شباط سنة 1900، على ظهر الباخرة (غورخا) إلى جنوبي أفريقيا. لقد فرح حين تقرر أن يسافر، إذ ما تزال هنالك وسيلة مرعبة لإلقاء كلمة الوداع، والفزع والجزع اللذين يحيطان بحياة زوجة العسكري. وقد كتب أبي إلى أمه من (الدرشوت) حيث ذهب لجمع التعزيزات لجنوبي أفريقيا، يقول في الرسالة.

سيدتي العزيزة المسنّة !

إنك تعلمين كما أعتقد، مدى تحرقي دومًا إلى ممارسة الخدمة الفعلية ومع أن أحدًا في الواقع، قد لا يعمل تمامًا عداي أنا نفسي، فإن هناك أسى عظيمًا

يتحرك. فلقد كانت الزوجة الصغيرة جريئة، وقد خرجت هذا اليوم مستبشرة جهد المستطاع لكنني أعرف بأنها كانت تحس وستظل تحس بأن الأمر مخيف، وأنني لأشعر بالحزن للقلق الذي سوف تشعران به، هي وأنت. ومن ثم أضاف إلى ذلك بشكل مميز يقول - لأنه كان جنديًا متزمتًا.. (آمل أن يكون قد ترك لي شيء من القتال هناك !).

ومع أن أمي قد بدت له بأنها خرجت مستبشرة بعد أن ودعته إلا أنها كتبت رسالة أقل تأكيدًا إلى أمه تقول فيها (أن يعتاد الإنسان في وقت ما، الألم الممض الذي يحدثه الفراق!). لقد كتبت تلك الرسالة من (نيتلى) وأضافت تقول فيها: (وعلى الأقل فإنه قد نال ما كان يرغب فيه كثيرًا. كان هذا مثل هذا اليوم الفاتن هنا، وكان البحر هادئًا، آمل أن ذلك سوف يستمر طيلة هذا الأسبوع، وإنني أريده أن يكون وقتًا لطيفًا له. أي عالم من الشوق يبدو عليه بأنه قد تم نقله في تلك الرغبة ! أريده أن يكون لطيفًا له !).

كانت رسائل أبي من جنوبي أفريقيا غالبًا ما تجذب لقراءتها. فقد كتب في اليوم السادس من شهر نيسان رسالة من مدينة (الاندسلاغيت) يقول فيها (في صباح يوم أمس كان استيقاظنا من النوم فظا!؛ فقد كان علينا أن نتناول طعام الفطور، حين كنت متوجهًا إلى العرض، عندما حدث على حين غرة، نوع من زمجرة القنابل في الجو فوق الرؤوس تمامًا، وانطلقت سحابة من الغبار وسط معسكرنا فعلاً. ذلك أن هؤلاء (البور) (البور Boer هم الهولانديون الذي استعمروا أفريقيا الجنوبية استوطنوا مدينة (الكاب) في القرن السابع عشر وأنشأوا دولة الأورانج والترسنفال في الفترة 1836-1852، ثاروا مرات عديدة على الاحتلال الإنكليزي لأفريقيا الجنوبية، ولكنهم اندحروا بعد الحرب التي استمرت من سنة 1898 حتى سنة 1902 حيث تمت السيادة للإنكليز هناك إلى

ما بعد الحرب العالمية الأولى. والبيض الذين يسكنون جنوبي أفريقيا في الوقت الحاضر هم بقايا البور ومن انضم إليهم من إنكليز وفرنسيين وألمان وغيرهم. المباركين)، قد نصبوا مدافعهم على التلال المحيطة، وتقدموا ليوفروا لنا وقتًا حيويًا لفترة ما. خرجت برجالي إلى أحد المروج يقع في أسفل التلال، ومن ثم استطعت بمعونة ثلاثة أو أربعة، من زارعي الألغام، أن أجعل بغالي تؤلف ما يشبه الجسر، وذلك عمل لم يكن يسيرا. وأخيرًا استطعت أنا وقلة من زارعي الألغام أن نوثق تلك البغال نوعًا ما. قتل أحد البغال، وانفجرت إطلاقة ثانية تحت مجموعة البغال، لكنها لم تصب واحدًا منها.

عهد إلى أبي بقيادة سرية الميدان السابعة عشرة، التي فقدت آمرها في سبيون كوب. كانت السرية من فرقة (كلري) الثانية شمالي (ليدي سمث) وطبقًا لما ذكرته صحيفة المهندسين، كان الانطباع الرئيس الذي كونه أبي عن أحد تابعيه، يتعلق بالمهارة التي يستطيع بها أن يمارس عملية آمرية الفرقة الهائلة.

شاركت سرية الميدان السابعة عشر في التقدم الذي قام به (بلر) عبر عنق (نيوكاسل) و(لينغ). وفي الهجوم على ممر (بوثا) في اليوم الثامن من شهر حزيران سنة 1900. ولقد أمضي الأشهر الأربعة التالية، يشق طريقه ببطء حول الريف الذي يقع إلى الشرق من (ستاندرتون) مع فيلق كليري المتحرك.

كان هناك الكثير من المناوشات مع (البور) غير أن مقاومتهم الرئيسة كانت قد حُطمت في الواقع. كان البور يمارسون غارات من نمط (انحرف واهرب)، ولكن حماسة أبي العملية لا حدود لها. فلقد كتب من موقع عنق (لينغ) (كان يسمح لأفراد الوحدات في حرب البور أن يذكروا في رسائلهم أسماء مواقعهم) يقول:

(لم يتوفر لي القتال الذي يكفيني بعد! طبعًا إن المرء يكون تحت وطأة أنواع النيران. ولكن يندر جدًا أن تتوفر فرصة القتال خلف إنسان ما، إلا في حالة أن تدع رفيقًا آخر يوجه إطلاقة نحوك. إن رجل المشاة يؤدي عمله حقًا، ويتلقى كل الضربات. إن أعلى تهيج أصابني حتى الآن، هو أنني كنت أخوض سباقًا جيدًا للخيل، غير أن ذلك لم يكن هو السباق الذي أواجه فيه موقعًا يتم الدفاع عنه جيدًا. إنه اختبار للأعصاب، وللأقدام ولكل الصفات التي تخلق رجلاً!.

بعد أن أمضي أبي سنة في جنوبي أفريقيا، كان مهره قد زَلّت قدمه، في حفرة، حين كان ينطلق خببًا في أحد المروج، فاستدار وانقلب رأسًا على عقب. قام أبي بكسر كاحل المهر، ومن ثم أعاده إلى إنكلترا. لم تكن خدمة أبي العسكرية من دون جدوى. ذلك لأن اسمه كان يذكر في المراسلات، كما أنه كوفئ بوسام من طراز D.S.O (نوط الخدمة المتميزة) كان هذا الوسام مؤرخًا في اليوم الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة 1902 وهو يحمل اسم الملك، لكنه وصل في مظروف، كانت الحكومة الاقتصادية، قد شطبت الضمير (ها) من عبارة (في خدمة جلالتها) واستبدلته بالضمير (ـه) في المخطوطة!

وما كاد أبي يعود من جنوبي أفريقيا إلى (نيتلى) حتى أوفد إلى جزر (موريشيوس) وفي أحد الأيام وجدت نفسي وقد نقلت في زورق إلى إحدى السفن التي ألقت مراسيها في نهر (التيمس) كانت ذكرياتي عن تلك السنين مبهمة. لكنني أتذكر مع ذلك بأنني قد أصبت بدوار البحر في خليج (بسكاي) ومن ثم أحسست بدفء البحر المتوسط وزرقته.

وحين أبحرنا إلى جزر موريشيوس، كانت جدتي من أمي، وهي العزيزة (فان) ذاتها التي تركت في الهند بعد العصيان، قد توفيت. وما أزال أضع أمامي

على منضدتي رسالة الوداع التي بعثت بها إلى ولدها الوحيد، أبي، وإلى زوجته وأطفاله أي أنا نفسي وشقيقتي.

كاوفولد

اليوم الخامس من شهر آذار سنة 1903

أعزائي !

لقد فرحت برسائلكم الغالية، منذ أن غادرتمونا، وكذلك سررت لأن (أسنانكم وبلاعيمكم) قد بلغت نموها، وأنك يا عزيزتي (فاني) قد حملت قبل أن تبدأ الرحلة.. إنني جد واهنة القوى، لكنني أشعر بأنني أكثر راحة للمرة الثانية، وأنا انتظر إلى أن يرى إلهي بأن الوقت ملائم كي يعيدني إلى الوطن ! ما أعظم الرحمات التي لا يمكن التحدث عنها والتي يسبغها علينا جميعًا! آمل أنكم سوف تحبون كتاب (المجموعات). إنني أحب الصلاة في الكنيسة كثيرًا، ولذلك أتلو عبارات الشكر الحلوة قبل أن أذهب إلى النوم! وداعًا وليبارك الله كل أعزائي.

أمكم المحبة ف. ل. غلوب

ولقد كنا، طيلة عهد طفولتي، إلى أن دمر بيتنا في سنة 1914، نقيم صلاة الأسرة كل صباح، وكان أبي يقرأ عبارات الشكر التي كرست أمه نفسها لها. ويحزنني أن أقول بأن كنيسة إنكلترا قد تخلت تمامًا عن كتاب الصلاة العامة، الذي بقي شعب إنكلترا يكرسه حوالي ثلثمائة سنة تقريبًا، والذي جبلنا عليه أنا والمعاصرون لي.

ومع أن سفينتنا كانت مزودة بالآلات إلا أنها كانت مزودة تزويدًا جيدًا باللوازم الضرورية. وحين تكون الريح ملائمة يتم نشر القلوع بمساعدة المكائن. وصلنا في الوقت المناسب إلى جزيرة سيلان. ولقد تجولنا في أسواق العاصمة

(كولومبو). وما زلت أذكر حتى اليوم، تلك الأبهة والفخفخة اللتين كان يتحلى بها بوابو الحوانيت في الأسواق، وهم يتعقبون آثارنا حاملين الأشياء التذكارية والحلي المصنوعة من الخشب والعاج المحفورين. فلقد اشترينا قدم فيل ما زلت أستعمله بمثابة ثقالة حين أدرس!

وفي جزيرة موريشيوس توفر لنا كما أتذكر دارًا وحديقة كبيرين، إذا ما قورنت ببيتنا على الأقل في (نيتلي) وكنا نزرع الموز والأناناس وغيرهما. وكان يحيط الريف الذي يمتد عدة أميال خارج سياج الحديقة، بحر شاسع من قصب السكر. كنت في طفولتي كثير الاهتمام بالخيول ولذلك كان طبيعيًا بأن تتركز إحدى ذكرياتي الحية، حول الجوادين الذين كان أبي يحتفظ بهما فقد كان أحدهما أشبه بالجوزة يدعى (بريق الذهب) أما الثاني فهو مهر أسود صغير لممارسة لعبة البولو كان يسمى (نغّر) وفي أيام العطلات كنا نذهب إلى البحر، ونمكث في أكواخ صغيرة تقوم في جزيرة صغيرة تدعى (مشوار ورج) وتعني بالفرنسية (المنديل الأحمر)، تقع عند الشاطئ تمامًا. كان البحر تاما، وكانت الجزيرة محاطة بصخور مرجانية كانت تتحطم عليها أمواج المحيط الأطلسي. وكان في داخل الصخور متسع من الماء الهادئ الذي يشبه المرآة، دافئ أزرق اللون، ونقي إلى درجة أن المرء يستطيع أن يميل على جانب الزورق ويحدق بنظره إلى اسفل فأسفل خلال الماء البلوري، والمرجان الفاخر الذي كان ينمو بعيدًا في الأعماق أشبه بحديقة غامضة. ليس في مستطاع أولئك الذين لم يشاهدوا سوى البحار الأوروبية، أن يجدوا تفهمًا لكل هذه المياه الثابتة الاستوائية الجلية.

لقد ظهر حين وصلنا إلى جزر موريشيوس، بأنني قد تعودت بأن أسير وفمي مفتوح، وتلك عادة عزاها أحد الأطباء إلى الزائدة الأنفية. ففي أحد

الأيام وضعت على كرسي في مخبأ أبوي، وقد جلس الطبيب أمامي، وعلى حين غرة أحدث ما يشبه المدية والشوكة، وطلب إلي أن أفتح فمي، وقبل أن أعرف ما كان يجري، استأصل الزائدة من أنفي. ومن المؤكد أن الجراحين كانوا يعملون بمنتهى السرعة قبل الأيام التي اصبح المخدر يستعمل فيها. وأتذكر أنني كنت اشعر بألم حاد جدًا في بلعومي، ولكنني تلقيت تعويضًا عن ذلك ممثلاً في لعبة من حصان وعربة، وكان شعر الحصان أغبر، ناعمًا، محببا.

كانت موريسيوش جزيرة شهيرة استولى عليها الهولنديون في سنة 1598 حين كانت برمتها غير مأهولة بالبشر، وقد أطلق عليها اسم قائدهم (موريس) من (ناساو). غير أن الهولنديين هجروا الجزيرة في سنة 1710، ولكن شركة الهند الفرنسية الشرقية استولت عليها في سنة 1721، وأنشأت العاصمة في (بور لويس) واستخدمتها قاعدة بحرية لمحاربة البريطانيين في الهند.

ولقد قامت بريطانيا باحتلال موريشيوس في سنة 1810، واعتبرتها مستعمرة للتاج البريطاني. ويعتمد اقتصاد الجزيرة بصفة كلية على قصب السكر. أما (بورلويس) فإنه ميناء عميق الغور، وقاعدة بحرية مثالية لحماية الطريق البحري الحيوي من الخليج العربي، ومن الهند حول رأس الرجاء الصالح. وفي سنة 1968، وحين كانت بريطانيا تقوم بعملية تجريد نفسها من ممتلكاتها، أعلنت موريشيوس دولة مستقلة. ومن المحتمل أن الجزيرة كانت أكثر أمنا ورخاء حين كانت مستعمرة بريطانية.

لم يكن هنالك أي سبب يتطلب جعل الجزيرة مستقلة سوى سبب واحد هو أن بريطانيا كانت في ذلك الوقت، في وضع تريد فيه أن تتخلى عن كل شيء. فليس في الجزيرة سكان محليون أصليون. ذلك أنها لم تكن مأهولة قط

حين احتلها الأوروبيون لأول مرة. وكان سكانها من العمال الذين جيء بهم من أفريقيا في أول الأمر، ومن الهند فيما بعد. كما يوجد فيها أيضًا عدد من الصينيين. ولم تكن توجد في الجزيرة لغة محلية، وإنما كان السكان يتحدثون بنوع من الرطانة الفرنسية المبسطة.

كنا، أنا وشقيقتي، في أحد الأيام نطوف بزورقنا في جدول ماء على مقربة من دارنا. ولقد أثرنا بالتجديف بعض الوحل. كانت بعض النسوة الموريشيسيات قد وصلن إلى الماء لملء جرارهن، وقد تضايقن حين وجدن الماء عكرًا. وإذ أشرن إلى الماء حتى هتفن بنا صارخات بالفرنسية (إن الماء مريض إن الماء مريض!).

كانت توجد في موريشيوس أيضًا عوائل فرنسية قديمة، كانت تقيم هناك منذ أن أصبحت الجزيرة مستعمرة فرنسية قبل سنة 1810. ولقد اعتدنا أن نلعب مع أطفال تلك العوائل. وكانت لدينا مربية فرنسية موريشيسية تدعى (أنيس غالية). وبهذه الطريقة تعلمت الفرنسية لأول مرة. بعد أن أمضينا ثلاث سنوات في موريشيوس عدنا إلى إنكلترا بطريق رأس الرجاء الصالح، وما زلت أتذكر الآن خليج (تيبل باي)، والزيارة التي قمنا بها إلى بيت (سيسيل رودس)، فقد كنت آنذاك في سن الثامنة من عمري. ولقد أبحرنا من ميناء (كيب) في سفينة (أرمادال كاسل)، التي بدت لي جدًا كبيرة، والتي كانت تمتلكها شركة خطوط (يونيون كاسل) كانت هذه السفينة من السفن التجارية حقًا، ولم تكن تستخدم الأشرعة والقلوع، مثلما فعلنا ذلك حين اجتزنا قناة السويس قبل ثلاث سنوات خلت. كان ربان السفينة رجلاً متدينًا، وقد اعتاد أن يؤلف مدرسة الأحد للأطفال في (قمرته)، بقيت أتذكر جوق الإنشاد في الكنيسة طيلة حياتي، لكنني لم أطبقه على الدوام، ومن المؤكد أنه كان من الأيسر لي بأن

أواصل الدمدمة بذلك. كنا نتقبل بركاتنا باستعداد، باعتبارها من الأمور الجارية، وكان من النادر أن نتوقف لكي نعدها، ولو أننا كنا مستعدين لأن نعرب عن تذمرنا من أي شيء لا يسرنا.

وعلى خلاف الملايين من الآخرين في هذا العالم الذي كانت الفاقة تمزقه، كان لدي ما يكفي من الطعام لأن أتناوله، ومن الملابس لأرتديه، كما كنت أستطيع أن أتناول حمامًا ساخنًا في كل يوم، وذلك رخاء لم يسمع به معظم البشر الذين يعيشون على سطح البحر، وهكذا كنت أستطيع أن أواصل مسيرتي. إن قائمة البركات التي أنعم بها الله لا نهاية لها، إذا ما توقفت ذات مرة لكي أعدها !

- 2 -

قناع الثعلب والدخول إلى الحانوت

بعد عودتنا إلى إنكلترا استقر أبي في الدرشوت وقد استأجرنا منزلاً، يدعى (لنكروف) في (السكندر أرود) في منطقة (فارمبرو) وبعد أربعين سنة من ذلك التاريخ كنت قد عدت إلى هناك فوجدت البيت القديم ما يزال كما كان عليه قبلاً، غير أن اسمه قد تغير!.

تمَّ إرسالي بصفة طالب نهاري، إلى مدرسة تبعد حوالي مائتي ياردة خارج الطريق، تديرها سيدة تدعى (مس لنتون) وكانت تقوم قبالة بيتنا بناية كبيرة أعتقد أنها كانت تعود إلى الدكتور (برنادوس) وتتركز ذكرياتي الأساسية عن (مس لنتون) في أنها كانت تقف أمام الصف وهي تعلمنا بأن نردد في قلوبنا قصيدة جورج هربرت، (شاعر إنجليزي، كان مغرمًا بالموسيقى، لم تنشر أية قصائد له في حياته، وحين دنا أجله أعطى لصديقه مخطوطة معنونة (قصائد المعبد المقدسة)، ونشرت بعد وفاته)، التي يقول فيها:

علمني يا إلهي ويا ربي

بكل الأشياء التي تريد أن نراها

وأن كل ما أفعله

لأجلك يا إلهي

لك يا إلهي يكون العمل مباركًا وجميلاً

وكانت المس لنتون في أثناء الإنشاد ترفع يدها الهزيلة وأصابعها على حدة، وقد انحنت في صورة مخلب، هذا المنظر ينعش ذكرياتي الآن.

كنت آنذاك في الثامنة من عمري وكان أبي يعتقد بأن ذلك هو الوقت الذي يجب أن اصبح فيه فارسًا ولذلك بدأت أمتطي صهوة جواد من نوع (شتلند) ومع ذلك فقد استطعت أن أحقق على وجه التأكيد تقدمًا مرضيًا لأنني رفعت فيما بعد إلى جواد أبيض اللون يدعى (نوبي) كان لدى أبي مهر كميت يدعى (غي لاميس) اعتاد أن يمتطيه. وكان ينطلق بعدته ليجر عربة من النوع الذي تجره الكلاب. وقد ذهب (نوبي) إلى عربة المربية وبهذا توفرت لدينا عجلتان.

كان حصاني الجميل نوبي في الواقع كبيرًا جدًا بالنسبة لي لا أستطيع أن أمسك به وحين كنت أخرج مع أبي راكبًا يتصرف (نوبي) برزانة أثناء الطريق لكننا ما أن نستدير نحو البيت حتى يبدأ يعبث. فحينما نجري خببًا معًا جنبًا إلى جنب سرعان ما ينطلق راكضًا ويندفع في الطريق ويروح يثب سلسلة من الوثبات ولقد وصفت أمي هذه الحركة ذات مرة بأن قالت عنه بأنه ينطلق في وثبات عنيفة أشبه بالشيطان الذي يسير عبر (لاوج) فإذا انطلق أبي مسرعًا وراء (نوبي) لابد أن يحدث سباق وحشي ولذلك يبدأ أبي يجري خببًا ثم يهتف لي قائلاً اجلس على الظهر أجلس على الظهر ذلك لأن نوبي أخذ يرفس، ويثب، ليقذف بي من فوق رأسه!.

وفي بعض الأحيان يأخذني السائس (واتس) للخروج معه فيركب دراجته ثم يمسك بزمام (نوبي) ليكبح جماحه. وفي أحد الأيام كنا قد اجتزنا محطة (أش) عائدين إلى (فارمبرو) حين جفل (نوبي) فدخلت إحدى قدميه

الأماميتين بين أسلاك دراجة (واتس). كان واتس قد سقط عن دراجته طبعًا، أما نوبي فإنه قد أحس بعد لحظة من الهياج بأن قدمه قد اصطيدت لكنه ما لبث أن أطلق قدمه برفسة واندفع بمنتهى السرعة عبر الطريق. في هذه المرة لم تكن هناك من وثبات قد تؤدي إلى السقوط لأن نوبي كان قد أحس بالخوف حقًا!

وفي إحدى المرات كنا نجري بمنتهى السرعة في طريقة (فارمبرو) ولم يكن لدي أيّ أمل في أن أستطيع إيقاف نوبي ولذلك أظل مشدودًا إلى ظهره وأروح أهتف بأعلى صوتي (النجدة)! النجدة!، وكان من حسن حظي أن أقبل رجل نحونا في الاتجاه المضاد فتحقق لديه ما سوف يقع ولذلك انتصب واقفًا في وسط الطريق ونشر ذراعيه أفقيًا، وحينئذ تم إيقاف (نوبي) الذي كان آنذاك مسرعًا جدًا في جريه. وقد يظن القارئ بأنني قد بالغت في وصف هذا الحادث المألوف الذي يقع لصبي على ظهر جواد راكض ولكن ذلك الحادث كان قد ترك انطباعًا عميقًا في ذهني!.

أصبح أبي يتولى مهمة أمر الهندسة الملكية للأراضي. ذلك أن الدرشوت، كانت محاطة بساحة واسعة من الأراضي التي يمتلكها الجيش، وتستخدم للتدريب وللمناورات من لدى صنوف حملة البنادق. كان أبي مسؤولا عن العناية بكل الأراضي والحفاظ عليها وصيانتها، ذلك لأن معظمها مغطى بالأعشاب ومن الأراضي الاعتيادية التي تنبت فيها أشجار الخلنج والأناناس.

اعتاد أبي أن ينفق معظم وقته راكبًا يجوس خلال الأراضي ويفتشها وكنت غالبًا ما أذهب معه ممتطيًا صهوة (نوبي) لقد كانت تلك الأراضي تؤلف ريفًا نموذجيًا لركوب الخيل، لأنه لا توجد فيها سياجات أو عقبات ومع ذلك ففي أحد الأيام كنا نسير راكبين في فارمبروكومون حين استدرنا نحو البيت فشرع نوبي

يثب في سلسلة من الوثبات فألقى بي من على ظهره. ومع أنني أمتطيته ثانية، وبقيت أمتطيه حتى البيت، إلا أنني فعلت ذلك من دون أن أعرف ماذا كنت أفعل. لقد أصبت بصدمة ومكثت من دون وعي لمدة ثماني وأربعين ساعة!

كان بيتنا في فارمبرو لا يبعد بأكثر من نصف ميل عن خطوط مالبرو التي كان يحتلها لواء الحرس لكم كنت أتذكر الحرس بكل جلاء عند عرض الكنيسة. كان هناك جوق من حملة الأبواق والطبول يعزفون كما أنني أتذكر الجو الذي كان يحيط بالمعسكرات.

على أن الحادث العسكري الكبير الذي أتذكره ولم تكن لدي آنذاك سوى نصف فكرة عنه في سنة 1908 هو حين استعرض الملك إدوارد الثاني (الابن الرابع للملك إدوارد الأول. أراد فتح اسكتلندا، بعد توليه العرش، غير أن أنصاره ثاروا عليه وانتهى به الأمر إلى سجنه في قلعة (كنلورث) وتسمية ولده ملكًا باسم إدوارد الثالث. ولكن إدوارد الثاني هرب من السجن، ولكن تم إلقاء القبض عليه مرة أخرى وتم تعذيبه حتى انتهى به ذلك إلى الموت)، قواته في مقر قيادة الدرشوت في سهل لافايان.. كان أبي أحد ضباط الأركان وقد أخذنا معه بصفة متفرجين وكان يرتدي البدلة العسكرية وقبعة مردودة الحافة مزينة بالريش.

وما أن اقتربنا من الميدان سيرًا على الأقدام حتى سقطت الريشة عن قبعة أبي كان يستحيل عليه أن يرتدي القبعة من دون الريشة، ولذلك اجتمعنا حوله والقلق يرتسم على وجوهنا حتى أخرجت أمي دبوسًا من مكان ما في ملابسها وثبتت به الريشة مرة أخرى، ونجحت في ذلك وبذلك تم إنقاذ الموقف.

لقد كان العرض في (الدرشوت) أعظم مشهد عسكري كنت قد شهدته حتى ذلك الوقت وواحدًا من المشاهد المماثلة التي لم يكن من المحتمل مشاهدتها

ثانية في العالم. فقد مرّت القوات فوجًا في أثر فوج يرتدي أفرادها الملابس الحمراء وهم يمشون في خط واحد وفي أعقابهم حملة الرماح بأعلامهم المثلثة المرفرفة وأفراد كوكبة الحرس بصدرياتهم الحمراء وخوذهم اللامعة وبطاريات المدافع التي تجرها الخيل بكامل أرديتها وسرايا زارعي الألغام وأجواق كثيفة تعزف الحان المسيرة لكل وحدة حين كانت تمر أمام قاعدة التحية حيث كان الملك على صهوة جواده يتلقى التحية.

حين غادرنا الدرشوت بعد ثلاث سنوات كنت قد اكتسبت صفتين هما: أولا: أن أصبح عسكريًا بفؤاد طيلة بقية حياتي وثانيًا: أن أغدو متحمسًا شديدًا للخيول. في تلك السنوات كانت لدى وزارة الحربية عادة غير سارة. فحينما يكمل أحد الضباط خدمته العسكرية كأن يبلغ رتبة مقدم ولا بدّ أن يتقاعد، فإنه كان يحال إلى قائمة نصف الراتب كيما ينتظر فرصته لكي يرفع إلى رتبة عقيد فبالنسبة إلى رجل له زوجة وولدان ويتم تخفيض مرتبه على حين غرة إلى النصف لم يكن مثل هذا الإجراء بالأمر الهين وعلى الأخص إذا كان مثل أبي الذي لم تكن لديه أية وسائل خاصة للعيش.

كانت سويسرا في تلك الأيام من أرخص أقطار أوروبا الغربية ولذلك انتقلنا إلى فندق صغير في مدينة (فيفي) على بحيرة جنيف. تم إرسالي بصفة تلميذ داخلي أسبوعيا إلى مدرسة في فيفي تدعى (بلريف). كانت سويسرا آنذاك، كما هي عليه الآن محطًا لاجتماع جميع الأمم ولذلك كان الأولاد في مدرسة بلريف من قوميات عديدة، لأن أكثريتهم كان يتم إرسالهم إلى هناك لتعلم اللغة الفرنسية.

كان السويسريون قلة ولكن كان هناك البريطانيون والألمان والأمريكان، والكنديون، وأحد المصريين، وآخرون غيرهم. ولكي يتأكد مدير المدرسة (المسيو

سليغ) بأن كل واحد من التلاميذ قد تعلم الفرنسية فإنه وضع نظامًا للتكريم. ففي كل صباح وبعد التجمع وأداء الصلاة كان يفتح سجلاً واسعًا على منضدته ويشرع يلقي على كل صبي بالفرنسية ذات السؤال (غلوب ! هل تتكلم الفرنسية؟) ولهذا كنا أكثر وعيًا ونستطيع أن نجيب دومًا إجابة صحيحة بقولنا (أجل أيها السيد!) على أننا كنا نعترف على الدوام بأقل خرق لقواعد الآداب فقد نقول (أجل سيدي!) عدا أنني كنت أقول وقت تناول الغداء إلى أرمسترونغ (لا تكن حمارًا بليدًا !).

ومن أنواع الرياضة الأخرى التي أحببتها بعد ركوب الخيل هي رياضة التجديف في مدرسة بلريف. في البحيرة كنا نؤديها بصفة حرفية إلى درجة أنه كانت لدينا زوارق مجهزة بكراسي منزلقة. وكنا نمضي عطلات الصيف في مدينة (بوينجن) على بحيرة (ديناز) بالقرب من انترلاكن، ونصعد إلى (لوتربرنن) ومورين حينئذ نرى من هناك منظر الجبال المغطاة بالثلوج من أمثال (إيجر) و(مونك) و(جنغفراو) تلك المشاهد التي بقيت محفورة في ذاكرتي حتى هذا اليوم. ففي تلك الأيام كان يستحيل الوصول إلى قمم الجبال المكللة بالثلوج بالقطار مثلما هو عليه الأمر في الوقت الحاضر.

أما عطلات عيد الميلاد فقد كنا نقضيها في (بيرنزا وبرلاند) بقصد التزحلق على الثلوج، في تلك الأيام الممعنة في القدم لم تكن الألعاب الرياضية ولا التسليات قد غدت ذات صبغة خاصة مثلما هي عليه اليوم. فقد كنا نأخذ غداءنا معنا، ونستعمل أحذية التزحلق، ونمضي نجري خلال مناظر أشبه بالمعجزات من غابات الأناناس وفي مملكة مغردة حيث كان كل غصن وكل تويج مكفنًا بالثلج وهو يتلألأ في رابعة النهار!.

وبعد أن أمضينا سنة ونصف السنة في سويسرا عين أبي آمرًا للمهندسين في القيادة الشمالية فانتقلنا إلى مدينة يورك حيث هيأنا لنا بيتًا في (مونت فيل) يطل على حلبات السباق وعلى بلدة نافسماير.

كانت منطقة (يوركشاير) كونتية كبرى للخيول وكان أبي قد اشترى لي جوادًا عربيًا أدهم اللون يدعى جمبو كان يقفز أشبه بالإيل كنت خلال أيام العطلات أمتطي جوادي لوحدي كل صبح منذ طعام الفطور إلى أن يحل طعام الغداء. ذلك أن ركوب الخيل كان يمثل هواياتي الممزوجة بالحماسة حيث كان لي عدد قليل من الأصدقاء.

أما في أيام الشتاء فكان أبي يأخذني معه للقنص في (طيورك) وفي (إينستي) ويراهام مور لقد كانت تلك المناطق تؤلف ريفًا ميلاً جدًا للقفز، مزودًا بسياجات معلقة ومن دون أسلاك ولقد اعتاد جمبو أن يقفز قفزة كبيرة إلى درجة أنني لا أستطيع أن أمكث على ظهره وطبقًا لذلك ابتدع أبي أداة يمكن بها ربط الأعنة التي أمسك بها سوية عن طريق طوق أضعه تحت صدر جوادي، وكانت هذه العملية تحفظ ساقي في الموضع وتساعد في الجلوس فوق أكبر سياج.

في اليوم الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة 1911 أقام بعض سكان (يورك) و(أنيستي) مباريات قنص جد سريعة انتهت بمصرع الثعلب الذي كانوا يطاردونه في نقطة (بلاثورب) كنت أنا وحصاني (جمبو) قد شهدنا مصرع الثعلب، وكان أحد الصيادين قد رشق وجهي، وهو في لحظة من الحماسة، ببعض من دم الثعلب القتيل، ومن ثم أعطاني قناع الثعلب ورأسه، الذي ما يزال معلقًا حتى الآن في مدخل صالة بيتنا.

في الأوقات الحاضرة بدأنا نسمع الكثير عن القسوة في صيد الثعالب ومع ذلك فإن الحقيقة الباقية هي أن الثعالب وحوش مفترسة، تفترس الفراخ

والحملان الصغيرة، والتي تنبغي السيطرة على أعدادها. لقد سمعت خصوم قنص الثعالب يردون على ذلك بأنه ينبغي ضبط أعداد الثعالب عن طريق قتلها بالغاز السام في الأماكن التي توجد فيها!.. فلو أن استفتاءًا كان قد أجري بين الثعالب ذاتها فإنني لا أشك في أن معظمها سوف يصوت بأن تكون ميتته بالقنص الاعتيادي بدلاً من القضاء عليها بالغاز السام. ووفقًا لما ذكره اللورد (ماكولي) كان (الطهريون) (الطهريون PVRLTANS طائفة من رجال الكهنوت المتفرقين في أوروبا) قد منعوا مطاردة الدببة وقتلها، ليس لأن ذلك يسبب الألم للدب بل لأن العملية توفر المسرة للناس!. ولربما كان خصوم صيد الثعالب قد ألهموا بذات الفكرة ليس بالشفقة على الثعالب وإنما بكراهيتهم للتقليد القديم الذي درج عليه رجال البلد الذين اشتركوا ذات مرة فيه.

لم أكن شخصيًا اهتم كثيرًا بقنص الثعالب، غير أنني كنت في خضم ثورة من العدو السريع عبر الريف. كان شهر كانون الثاني سنة 1914، يمثل آخر وقت خرجت فيه للصيد غير أن ذكرى تلك القنصات القديمة بقيت ترافقني طيلة حياتي. وتعويضًا عن بهجة شبابي بالقنص قد أضيف إلى ذلك بأنني لم أقتل طيلة حياتي لا حيوانًا ولا طائرًا.

ولربما ينبغي الحكم على روحية القنص لدى المرء في ضوء الأوضاع التي كانت قائمة حتى إلى ما قبل سبعين سنة مضت، وقبل أن يصبح استعمال السيارات عامًا فقد كانت الخيل في تلك الأيام تؤلف الوسائل الوحيدة للنقل على حدة من سكك الحديد. فلكي يكون الشاب فارسًا ماهرًا كان أعلى مطمح لديه، وأن ينطلق في العدو بجواده، كما كان ذلك أيضًا يُعد تكملة ضرورية لكل الجيوش.

كان العدو السريع عبر الريف وقفز السياجات والحفر والجداول يمثل الطريقة التي لا تبارى في تعلم ركوب الخيل، في وقت كان فيه ركوب الخيل

يؤلف تكملة ضرورية للقنص والحقيقة أن القناص الذي يتعقب حيوانًا يكون مسراه متغيرًا وغير متوقع بصفة حتمية.

هناك ضرب آخر من القنص باستخدام الأيل الذي يحمل في عربة. فالأيل حيوان متطبع يمكن الاحتفاظ به في حظيرة، ونقله متى ما أطلق سراحه. فحين تهجم كلاب الصيد على الأيل يستطيع أن يصدها بقرونه عند أحد الخلجان لبضع دقائق، إلى أن يقبل الصياد فيدعوها إلى الانصراف، وإذ ذاك يوضع الأيل في العربة ثانية ويعاد إلى البيت. ليس مستطاعًا لدينا أن نقدر مدى الخوف الذي يصيب الأيل ولكن حين تتكرر العملية مرة أخرى يصبح من غير المعقول أن تكون مخيفة له بصفة أكثر.

وهناك بديل آخر هو الساحبة كأن يجري أحد الرجال في الريف وهو يسحب وراءه كيسًا يحوي طعامًا تستطيع كلاب الصيد أن تتعقبه ومع ذلك فإن هذه العملية لا تحدث مظاهر متنوعةً وغير متوقعة في تعقيب أحد الحيوانات.

وبكلمة مختصر كان القنص طريقة لا تبارى تكوين في الفروسية، حين كانت هذه الفروسية تعتبر صفة لازمة للرجل، لقد بررت الألعاب الرياضية حين أصبح لها هدف تطبيقي، وحين لم يعد تنفيذ ذلك الشرط ضروريًا أصبحت مجرد حرفة للعبث ليس إلا.

تمَّ إرسالي بصفة تلميذ داخلي إلى مدرسة تدعى (ستانكلف هول)، على مقربة من (مانلوك) في (دربيشاير) لقد هيأني أبي للملاكمة التي كانت من الهوايات الفاخرة ولقد تمرنت جيدًا في أول الأمر وكانت ضربتي الصائبة الموجهة إلى الفك قد نالت التصفيق العالي. ولكن في الأخير دخل الحلبة فتى أكبر وأقوى مني، واعتاد أن يوجه إليَّ إحدى الضربات، ولهذا كنت بعد كل درس نرجع إلى الحمام وأنفي ينزف دمًا.

كانت الملاكمة تعتبر على مستوى عال من العاب الرجولة، فهي الفن النبيل للدفاع عن النفس. والواقع أن لعبة (الجودو) تبدو في نظري هذه الأيام بأنها هي الطريقة العملية الصحيحة للدفاع عن النفس.

كان لي في مدرسة (ستانكلف) صديق اسمه (أ.ت.ن.. لندساي) كان مجنونًا بالخيل مثلما كنت أنا كذلك. ولقد اخترعنا لعبة سباق كنا نثبتها على قطعة من المقوى ونمررها إلى أحدنا الآخر في الصف إلى أمام وإلى الخلف مخافة اكتشافها، وأعتقد أن (لند ساي) كان قد قتل في الحرب العالمية الأولى مثل كثيرين ممن عاصروني في المدرسة.

كان أبي قد هيأني في الأصل لدخول مدرسة (ولنغتون) حيث كان هو نفسه قد فعل ذلك. لكنه اكتشف مؤخرًا بأن الكثيرين من الفتيان كانوا يلتحقون بالكلية العسكرية عن طريق مدرسة (تشلتنهام) ولذلك أدخل اسمي في هذه المدرسة بدلاً من مدرسة ولنغتون. ولما كانت قضية الأجور المدرسية تؤلف مشكلة فقد اشتركت في امتحان للزمالة في كلية تشلتنهام.

كان مدير مدرسة (ستانكلف هول) من رجال الأكليروس في الأصل وكان يدعى (المبجل لي. أون). وحين أصبحت في سنتين الأخيرة غدت المدرسة ملكًا لشريكين هما (هاركورت كلارك، وكونواي). في إحدى الأمسيات كنا نحن الطلاب جميعًا في أسرتنا في صالة النوم. كانت الأنوار قد أطفئت وأظن أن الساعة كانت في حدود التاسعة والنصف. وعلى حين غرة سمعت أصوات خطوات تجري في الممر في الخارج،ثم يفتح الباب ويوقد النور، فإذا بنا نكتشف بأن زوجة هاركورت كلارك كانت تجري أمامنا راكضة، وهي تلوح ببرقية وفي أعقابها زوجها والسيد كونواي وهي تهتف بإثارة (لقد حصل غلوب على

الزمالة الدراسية في كلية تشلتنهام) ولذلك تجمع الثلاثة حول سريري وهم يقولون (حسنًا ما تم فعله!.) لقد كانت تلك هي المرة الأولى، منذ أن تولوا الإشراف على المدرسة، يستطيع فيها أحد الفتيان أن يحصل على زمالة دراسية ولهذا ابتهجوا بذلك!

أصبت بصدمة عميقة حين دخلت كلية تشلتنهام وأعتقد أن أداء القسم هو الذي أعادني إلى ذلك!! فلم أكن قد سمعت بأي قسم من قبل، ولكن يظهر بأن الفتيان لا يعرفون سوى الشيء القليل عن ذلك. ومع هذا فقد أمضيت وقتي في الكلية بصفة جيدة ومعقولة تمامًا ذلك لأنه لم يحدث أي نوع من الكدح والعناء، كما كان الأمر معتادًا بهذه الصفة في الأيام الأولى.

لم أكن جيدًا في الألعاب ولكنني كنت في الواقع أستمتع كثيرًا بلعبة الرغبي ولا يوجد هناك شيء أحبه أكثر من أن أسقط على الكرة أمام صف من الخصوم وأروح أكافح بشكل رائع وسط اللكمات والرفسات غير أني لم أكن أجري سريعا إلى مدى ثلاثة أرباع، فأنا وإن كنت صغيرًا أو ضعيفًا إلا أنني كنت ألعب في المقدمة، وكان مطمحي على الدوام أن أغدو نصفًا رائعًا غير أنني لم أنجح في الحصول على ذلك الموقع في أية فرقة من الفرق الرياضية.

وهكذا كان يقع هذا حين كان بيتي (كرستاو) يضم جملة من الرياضيين الألطاف حيث فزنا بكل الكؤوس التي ضمها البيت في ألعاب الرغبي والكركت وكل شيء تقريبًا وكان قاربنا الأول يقع عند راس النهر.

كان الشيء المحظوظ الذي حدث لي في كلية تشلتنهام هو أنني تلقيت ضربة في أنفي أثناء لعبة الرغبي أدت إلى تلف الحاجز القائم بين منخري فنقلت إلى مستشفى سان توماس في لندن، حيث أجريت لي عملية هناك. ويبدو بأن

العملية لم تحدث أي تغيير كبير في أنفي لكنني منعت من ممارسة لعبة الرغبي لمدة سنة.

في هذا الوقت أعدَّ أبي العدة لاستئجار جواد لي من اصطبل عام لاستئجار الخيول في تشلتنهام حيث استأجرت مهرًا نشيطا يدعى سبايدر. فكنت بعد كل ظهر وحين كان الفتيان يلعبون الرغبي أمتطي صهوة سبايدر فنمضي نجوب كوستولدس صعدًا إلى الينابيع السبعة وإلى ليكهمبتون في غارات طويلة وحيدة وسعيدة.

يمكن أن يصبح الفتيان أشرار. لقد كنا نستخلص بعض البهجة من المراهنة مع الأساتذة كان أستاذي الأول في الصف يدعى بوزربنت. ولست أظن بأن الأستاذ بنت قد أصاب نقطة واحدة لكن التجنيس كان مغريًا لقد كان الشيء الوحيد الذي يضايقه هو أن يقول أحدهم لست أعرف أننا سنبدأ اليوم مثلا، حيث يرد بنت متسائلاً (جونز؟ لماذا كنت متأخرًا عن المصلى هذا الصباح؟ فيرد الطالب لست أدري يا سيدي!.. كانت هذه الأمور هي التي تحدث النتيجة المستحبة فقد يضرب الأستاذ منضدته بيده ويهتف صارخًا إنه لخبال عظيم أن تتأكد! ماذا تعني بقولك لست أدري ! يجب أن تعلم!.. كان الأستاذ في الصف الثاني الذي نجحت إليه يعرف باسم (بن) وكان الشيء الذي يضايقه كثيرًا هو حين يروح أحدهم في الصف يدندن بنغمة ما ونتيجة لذلك يكون المثقاب مهيئًا خلف الغرفة لأي فتى بدأ يدندن، في حين يفترض فينا بأننا منكبون على القراءة.

وقد يهتاج الأستاذ بن فيروح يجوب الصف حيث يتوقف الفتى الموجود خارج الغرفة عن الدندنة في حين يشرع فتى آخر في المقدمة يدندن، وإذ ذاك

يستدير الأستاذ بن ويقف محملقًا في النافذة أشبه بثور في حلبة المصارعة وقد أحاط به الرجال الذين يثيرونه، كنت على الدوام أعجب كيف يخفق الأساتذة في التأكد من أن نقاط ضعفهم كانت تستغل تمام الاستغلال.

في سنة 1912 انتقل أبي من وظيفة آمر الهندسة في القيادة الشمالية إلى منصب رئيس مهندسين في القيادة الجنوبية ولذلك انتقلنا من (يورك) إلى (سالسبوري). كانت أمي من النساء المتمسكات بالمسيحية تمسكًا عميقًا، وكنت على الدوام أتجاوب معها في ذلك، وكان أبي هو الآخر يفعل ذات الشيء أيضًا، وإن كان يندر أن يتحدث عن المسيحية. فقد اعتاد أن يؤدي الصلاة كل صباح لأنني غالبًا ما كنت أدخل عليه غرفته فأجده يصلي فقد كان ينتصب بجانب درجة ذي الأبواب والذي (ما زلت أحتفظ به) ويروح يضع مرفقيه على قمته وقد غطى وجهه بيديه.

وحين كنت في مدرسة ستا نكلف هول اعتادت أمي أن تبعث إلي بمقاطع دينية قليلة في رسائلها، كنت أحملها معي إلى المرافق الصحية لكي أقراها بهدوء. وإنني لأتذكر كتابا ذا أوراق قليلة عنوانه (كلمات الراحة والعزاء) لم أجابه في كلية تشلتنهام سوى مصاعب قليلة بشان الكتب الدينية حيث كنا نحتفظ بكتبنا الخاصة بنا وكانت لي في سنتي الأخيرة غرفة خاصة بي للدراسة.

ولقد كنت مواظبًا في الدخول إلى المصلّى لأنني منذ ذلك الوقت أخذت أتذكر ترنيمتين تقولان (لقد وعدت يا يسوع بأن أصلي لك حتى النهاية.. ونحن الآن نشكر ربنا جميعًا). ولقد حدث في إحدى المناسبات حين كنت في كلية تشلتنهام أن أصبت بالانفلونزا وكنت أرقد على سرير في غرفة المرض، حين أقبل علي مطراني الذي يعمل تحت إمرة مدير النزل يزورني. ولقد سألني عما

كنت أقرأ فأريته الكتاب الذي كنت أطالعه وعنوانه (جارلس أوميللي) من تأليف (جارلس لبفر) فقال المطران (حم! إنه طلي قليلاً كما أظن!).

كان رانجيت سنغ هو الزعيم الأكبر لطائفة السيخ في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، أما مطراني فإنه قد قتل هو الآخر في الحرب العالمية الأولى. كان رجلاً مديد القامة جدًا وكان طوله هذا يمثل خطرًا في الخنادق.

ما زلت أتذكر إحدى الأمسيات من شهر تموز سنة 1914 حين سمعت وأنا أهيئ أموري في غرفة دراستي نشيدًا عميق الصوت كان يسري في أسفل الطريق في الخارج يترنم (إنه طريق طويل إلى تبراري) لقد كان ذلك نشيد فوج إقليمي عائد من مسيرة في الطريق. لم أكن قد سمعت قبلاً بالنغمة التي أصبحت تؤلف اللحن المعتاد للحرب العظمى!

إنه لأمر مدهش حقًا كيف أنه بعد ست وستين سنة، نجد بأن صور الحوادث الماضية ما تزال محفورة في ذاكرتا بكل عمق وحيوية. فلم أكن أهتم بالشؤون العالمية في ذلك الوقت ولم تكن لدي أية فكرة بأن الحرب كانت توشك أن تقع!

لقد كنت منذ طفولتي المبكرة أطمع دومًا بأن أكون ضابطًا في كتيبة المهندسين مثل أبي تمامًا، ولم تكن لدي هناك أية حرفة بديلة كنت أحلم بها. قد بحثتها بحثًا مستفيضًا، ونتيجة لذلك أدرج اسمي في امتحان القبول في الكلية العسكرية في وولوج والتي فتحت أبوابها في شهر آب سنة 1914.

ذهبت في نهاية شهر تموز سنة 1916 إلى المعسكر مع مركز تدريب الضباط، ولقد كنت هناك حين بدأت الحرب. تم تقويض المعسكر على الفور قبل أن نغادره وكان مُعلمنا، وهو من ضباط لواء حملة البنادق، قد ألقى خطابًا

قصيرًا قال فيه (إن البعض منكم أيها الفتيان سوف يحصل ربما قبل أن تنتهي هذه الحرب على شرف أعلى بقيادة القوات البريطانية في المعركة).

لم أصل إلى المنزل في سالسبوري إلا بمشقة. كانت سكك الحديد في فوضى وقد حاصرتها قطارات محملَّة بالجنود الاحتياط الذين بدأوا يلتحقون بوحداتهم. وصلت إلى البيت في الساعة السابعة من صباح أحد الأيام بعد أن حصلت على مساعدة في العربة التي تنقل اللبن. كان أبي ما يزال في الخدمة العسكرية في فرنسا وكان الفيلقان الأول والثاني قد عسكرا هناك، وكان على أبي أن يصبح رئيس المهندسين في الفيلق الثالث الذي كان يتوقع له أن يعسكر بعد أربعة أيام في (سو ثمبتون).

كنت أعتقد بصفة عامة بأن الحرب سوف تنتهي بحلول عيد الميلاد إذا لم تكن وصية معلمنا في معسكر تدريب الضباط قد تتحقق فعلاً. فلم أكن راغبًا في تأدية امتحان الدخول إلى الكلية العسكرية وعزفت عن الرغبة في أن يدرج اسمي في لواء حملة البنادق، ولقد جابه أبي شيئًا من المشقة في ردعي عن ذلك.

ركبنا السيارة أنا وأبي متوجهين إلى سوثمبنون لكي أودعه. كانت الأرصفة محتشدة بالقوات التي عسكرت هناك، ولذلك ودعت أبي في فندق (سوث ويسترن) المطل على الميناء، ومن ثم عدت إلى البيت مكتئبًا. تخلت أمي عن منزلنا في سالسبوري وحزمت أثاثنا ثم انتقلت إلى فندق صغير في سوث كنسنغتون. وبعد أيام قلائل اشتركت في امتحان الدخول إلى الكلية العسكرية ونجحت فكنت الثاني بين المقبولين. وقبل أربعين سنة من ذلك التاريخ، كان أبي هو الثالث بين الناجحين. وما أن سمع أبي بأنني قد نجحت في الدخول إلى (الحانوت) أو هكذا كانت الكلية العسكرية تسمى بصورة اعتيادية، حتى بعث إلي برسالة من الجبهة في فرنسا هذا نصها:

في الميدان في 27/ 10/ 1914

(ولدي العزيز الكبير إنك سوف تعلم كم كنت فخورًا حين تلقيت أنباء نجاحك في الحانوت بدرجة ثانية. إنك غدوت الآن تقريبًا ضابطًا ملتزمًا جدًا ورجلاً. ولدي الكبير العزيز آمل أن أراك نبيلاً بريطانيًا بسيطًا وأمينًا. إنك لن تستطيع أن تكون شيئًا أفضل من ذلك مهما كنت! حاول دائمًا أن تكون على مستوى المسؤولية في دروسك.

ولدي الكبير عليك أن تتذكر بأنك غدوت الآن رجلاً وأن العمل لم يعد الآن كدحًا وحشيًا وإنما أن تتهيأ لواجباتك باعتبارك ضابطًا).

كانت الأكاديمية العسكرية في وولوج في تلك الأيام لا تقبل من الطلاب إلا الراغبين بأن يصبحوا من المدفعيين وزارعي الألغام حسب، أما الراغبون في الأسلحة الأخرى فإنهم يدخلون في كلية ساند هرست التي كانت تعرف باسم الكلية العسكرية وكانت الفترة الاعتيادية في وولوج تستمر مدة سنتين ولكن نظرًا إلى الحاجة الماسة جدًا للضباط دخلنا دورة مكثفة في الأكاديمية لمدة ستة أشهر وبعدها عُينت برتبة ملازم ثان في كتيبة المهندسين في شهر نيسان سنة 1915 وأرسلت إلى تشاثام لتعلم هندسة الميدان.

لقد ظهر بأن هناك مبدأ كان مقبولاً في تلك الأيام هو أن على الأولاد أن يأخذوا دروسًا في التربية الجنسية في مدارسهم، وأن باستطاعة كلا الجنسين أن يدخلوا ذات المدارس. غير أن أيامنا هذه الآراء لم تكن مطبقة حين كنت صغيرًا، فلم يكن لا في مدرستي ولا في كليتي سوى الأولاد، ولذلك كنت أقضي عطلاتي في ركوب الخيل. كانت تصورات شبابي توضح لي بأن النساء جميلات وفضليات وإبداعيات أكثر مني بكثير، ولذلك كان من النادر علي أن أتحدث إلى أية واحدة من النساء ما خلا أمي وشقيقتي!

وفي (تشاثام) كانت الثكنات مليئة بالمزيد من المجندين والضباط الجدد بحيث لم تكن هناك غرف مهيأة لسكناهم. سكنت في قرية (برومبتون) خارج الثكنات مباشرة فأعطيت لي غرفة مع عائلة كانت تسكن فوق حانون لبيع التبوغ. في إحدى الأمسيات وإذ كنت عائدًا إلى البيت وجدت امرأة شابة هي ابنة صاحب البيت تجلس في الغرفة التي أنا فيها. وما أن دخلت الغرفة حتى بدرت منها إشارة وكأنها تريد أن تغادر. أصابني الارتباك الشديد وكنت أخشى أن يندفع أبوها على حين غرة داخل الغرفة ويتهمني بارتكاب سلوك غير مصيب ويطلب إليّ أن أطهر شرف ابنته بالزواج منها. كان علي أن أجرب هذه الحيرة كل ليلة من دون أن اقترب من الفتاة إلى أن خلت إحدى الغرف في الثكنة أخيرًا فانتقلت إليها.

بالنظر إلى القصص التي لا تنتهي هذه الأيام عن صديقات الشبان وأصداء الشابات كان ذلك يبدو ومن الأمور التي لا يمكن تصديقها. ذلك لأنه في سنتي 1914، 1915 لم يكن أحد من الضباط والشباب قد تحدثوا بعد إلى امرأة، وأن أيًا منا كان يعتقد بأنه يهتم بالفتيات. كان بالأحرى يدعى بكل ازدراء بأنه كلب مزيف (يدعى هذا الكلب المزيف لدى الإنكليز باسم POODLE ويكون كثيف الشعر عادة).

كنا مقتنعين بأن تلك الحرب سوف تكون هي الأخيرة في التاريخ البشري وكنا نعتقد بأنه إذا ما تم دحر الإمبراطورية الألمانية فلن تحاول أمة مرة أخرى تدمير السلم العالمي. أما الآن وبعد مرور ست وستين سنة على ذلك التاريخ، فقد تأكد لدينا جيدًا أن الحروب لا يمكن أن تنهي الحرب، وإنما تكون حافزًا لعدد واسع من الحروب الجديدة. ذلك لأن الأسلحة أصبحت، سنة بعد أخرى،

فتاكة وقاتلة، وأن الحروب والعنف قد ازدادت، وأن حلول مائة سنة من السلام بين الدول العظمى، ربما قد يكون هو الأمل الوحيد لبقاء الجنس البشري.

إنني أتذكر جيدًا ما كانت تقوله لي أمي في ذلك الوقت، كيف أنها تزوجت أبي، وهو ضابط في الجيش، في مدة ست وعشرين سنة لم تكن تقع خلالها سوى معارك عرضية (لأنه كان قد ذهب للاشتراك في حرب البور). ولكن في كل هذه السنوات الست والعشرين. لم يحدث لها، ولا لأي إنسان آخر، كما كانت تعرف ذلك، أن حربًا قد تقع مرة أخرى بين الدول المتمدنة في أوروبا.

ففي (تشاثام) كنا جميعًا نشعر بالقلق، بأن هذه الحرب، وهي آخر حرب في التاريخ البشري، كما نظن، سوف تنتهي قبل أن نشارك فيها. كان النظام المطبق في القوة، في الوقت ذاته يمنع إرسال الضباط إلى الجبهة قبل أن يبلغوا سن الثامنة عشرة وبزيادة نصف سنة أخرى. ولذلك أجبرت على المكوث متبرمًا في (تشاثام) أول الأمر، وفي (الدرشوت) حتى خريف سنة 1915.

قد يكون من المفيد أن ندلي هنا بكلمة توضيح عن القلق الذي يعبر عنه الجنود أحيانًا أيام الحرب، في ذهابهم إلى الجبهة. إن تجربتي تبين بأن الرغبة في المشاركة في الحرب ليست شهوة مساوية لشهوة القتل، وإنما هي نتيجة غريزة إنسانية فطرية في الموهبة الذاتية.

ولكي نجري مقارنة، دعونا نأخذ بنظر الاعتبار بعض الكوارث التي تحدث، من أمثال وقوع زلازل، أو مجاعة في قارة أخرى، فإننا نتحرك إلى الشفقة والحنان، بالأنباء التي تذيعها الصحافة، ونود أن نساهم بأكثر مما نستطيع أن نقدمه فعلاً. فإذا كنا من الممرضين أو الأطباء، أو أصحاب حرف، يتطلب منها

القيام بأعمال الإغاثة، فإننا قد نتطوع بأن نذهب بنفسنا لأداء ذلك العمل. لسنا نود أن تحدث المجاعة. إننا متأكدون من أن أعمال الإغاثة قد تنطوي، على الأخطار، أو قد نضحي بعوائدنا في بريطانيا، ولكننا مع ذلك نود أن نذهب وأن نعاون. وبذات الطريقة، فإنه إذا ما وقعت الحرب، فإن الجنود يشعرون بوجود رغبة إنسانية مشرفة بأن يبذلوا أنفسهم، وبأرواحهم،وأجسامهم، وحتى التضحية بأرواحهم، وأن تلك هي خدمتهم المعتبرة. إن الجنود ليسوا هم الذين يوقدون الحرب، بل الساسة هم الذي يفعلون ذلك، كذلك فإن الجنود لا يرغبون في الحروب.

ولكن حين تحدث الحروب، يستفز الجنود، بتلك الغريزة الإنسانية المشبعين بها تشبعًا عميقًا لأن يضحوا بأنفسهم، ومهما تظاهرنا بأن نكون ساخرين أو ماديين، فإننا نتحقق، على نطاق واسع، بأنه حين تظهر الحاجة، يكون من المبارك، بأن تعطي أكثر مما تتسلم!![*].

(*) هـذا تحـليل خـاص بـالمؤلف وعلينا أن نأخذ بنظر الاعتبار عدالة الحروب ومدى إيمان الجنود بكـون مـثل هذه الحروب تمثل دفاعًا مشروعًا عن مصالح ومقدسات الأوطان. وعلى العموم فالحروب دائمًا لخدمة مصالح الساسة وضد حياة الشعوب التي تتمنى العيش بسلام دائم.

- 3 -

خطوة على سُلّم الجندية النبيلة

في اليوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة 1915 وصلت إلى (سوتمبثون) حيث أبحرت إلى فرنسا،من ذات الرصيف الذي غادر منه أبي في شهر آب سنة 1914. وفي الوقت ذاته كانت الفيالق البريطانية الأصلية الثلاثة التي ذهبت إلى الجبهة في سنة 1915، قد تعاظمت واتسعت إلى جملة من الفيالق. نال أبي لقب (فارس) لمساهمته في معركة (إيسن).

لقد أصبح الآن برتبة لواء ورئيس الهندسة للجيش الثاني الذي كان يمسك بالقطاع الشمالي من الخط البريطاني، على بعد حوالي اثني عشر ميلاً، من البحر في (نيوبروت) إلى منتيير كانت جبهتهم تشتمل على نتوء (الإيبر) الذي وقعت فيه أولى الهجمات الألمانية بالغاز السام خلال شهري نيسان وأيار من سنة 1915.

أنبأت قاعدة المستودع في (روان) في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني، بأنني قد تسلمت الأوامر بتعييني في سرية هندسة الميدان السابعة مع الفرقة الإقليمية الخمسين، والتي كانت تتألف من سرية المشاة الخفيفة من (درهام) وحملة البنادق من نورثمبر لاند. كانت هناك فرقة مشاة مؤلفة من ثلاثة ألوية من المشاة، وثلاث سرايا هندسة ميدان، وعلى حدة، طبعا، من مدفعية الميدان، ومقر الفرقة، ووحدات خدمة الجيش، ورجال الإشارات وما

شاكل ذلك. كانت سرايا الميدان الثلاث تعمل مع ألوية الميدان الثلاثة. وكنا، كالعادة، نعمل مع لواء (درهام) الخفيف للمشاة، لكننا لم نكن مرتبطين به ارتباطًا وثيقًا، ذلك لأن أية سرية تستطيع أن تعمل مع أي لواء.

كانت سرية الميدان السابعة من الوحدات النظامية قبل الحرب، وإن كانت الفرقة بكاملها من الإقليميين، بما في ذلك سريتا الميدان الأخريين. أما الوحدات النظامية والإقليمية، فإنها كانت تمتزج فيما بينها في بعض الأحيان. وجدت نفسي في سرية هندسة الميدان السابعة، مع (هـ. أ. بيكر)، الذي كان معي في (وولوج). لم يكن الناس، في تلك الأيام، يعرفون بأسمائهم المسيحية!! فقد كان الرجال يعرف أحدهم الآخر بالحروف الأولى من أسمائهم، مثل ذلك (هـ. أ. بيكر)، و(سي، بي. أو. سايمونز) (آمر سريتنا) أو (جي.بي. غلوب). وكانت الألقاب شائعة ولكن الأسماء المسيحية كانت خاصة. لقد كان من المعيب أن تعرف أو تستخدم اسمًا مسيحيًا، يعتبر شيئًا شخصيًا لصاحبه. كان (بيكر) مثلاً يسمى (البرت) ولكن حدث هذا بعد أن ظهر اسم (البرت بيكر) وهو اسم شركة كان يكثر الإعلان عنها، وأعتقد بأن صاحبها كان بائعًا للتبغ.

كان (سي.بي. سايمونز) آمر سرتين، قد أصيب معي بذات الشظية، ولست أعرف حتى الآن، ماذا كانت تعني الأحرف الأولى من اسمه (دي سي. بي) وحين انضممت إلى السرية، كانت الفرقة تقوم بعملية إسناد، أي أنها كانت على بعد ميلين، أو ثلاثة أميال خلف الجبهة، ولا يوجد فرد واحد في الخنادق. كانت إحدى سرايا هندسة الميدان قد قسمت إلى أربعة حضائر، تتألف كل حضيرة منها، من ضابط وحوالي خمسة وعشرين من زارعي الغام، وقد عينت آمرًا للقسم الأول من هذه الأقسام.

وحين التحقت بسرية الميدان السابعة، بدأت حياتي بالعيش مع الناس. ففي المدرسة والكلية. يكون المرء عضوًا في حشد ينبغي له أن يطيع الأوامر ليس إلا، من دون استقلال، أو علاقات حقيقية مع الخارجيين. أما الآن، فقد غدوت شخصًا منفصلاً، التقي بالناس الآخرين، كان البعض منهم أعلى، والبعض الآخر أدنى.

في اليوم الرابع من شهر كانون الأول قمت بقيادة حضيرتي إلى مزرعة تدعى (لافلانك) على مقربة من (أرمنتيير) لقد طلب منا أن نكون في حالة دفاع، بمثابة جزء من خط احتياطي. كانت العملية تتألف من حفر الخنادق، وتهيئة مواقع الرشاشات،ووضع الأسلاك الشائكة. في حدود منتصف النهار أطلقت علينا إطلاقات خفيفة، وتكرر ذلك فيما بعد الظهر. وجدت خلال هذه العملية (تشلفرز) أحد الطلائع، يجلس القرفصاء في أحد الخنادق، في الوقت الذي كنا نحن فيه منهمكين في العمل. أقبل (سايمونز) ليشاهدنا ونحن نعمل. جلبت (تشلفرز) إليه، فقال أريد أن أتهمه بالجبن بحضور العدو. كان سايمونز مسرورًا دون ريب، بحماسة الشباب، لكنه تلفظ بعدة كلمات يوبخ بها تشلفرز.

بعد انقضاء عشرة أيام في (أمرمنتيير) (التي كان الجنود يسمونها أرمنتير) تحركنا شمالاً إلى دار في مزرعة، تقع خلف (الإيبر). كان المطر يتساقط طيلة النهار وفي كل يوم. وكان كل شيء مطيرًا مبللاً بالماء. وسرعان ما رحت ألمّ بأوضاع رجال الحضيرة التي كنت أقودها، وعددهم خمسة وعشرون. وفي اليوم الثالث عشر من شهر كانون الأول، تحركت حضيرتي إلى أحد الخطوط في جبهة (الإيبر)، فاتخذنا قطاعًا من خندق خطي لجبهة (الغابة المقدسة) حيث كانت خنادقنا، لا تبعد سوى خمسة وعشرين ياردًا من الخط الألماني!

اعتاد العدو أن يقصف (الغابة المقدسة) معظم النهار لأن ذخيرة الألمان، كانت أكثر بكثير جدًا، مما هو متوفر لمدفعيتنا. وما أن يظلم الجو حتى أروح أقود فريقًا من زارعي الألغام، لإصلاح الدمار الذي وقع أثناء النهار. ولقد تم ذلك على نطاق واسع، بملء أكياس الرمل بالتراب، وبنائها بعناية أشبه بالحجر المرصوف بعضه فوق بعض. وإذ كنا نفعل ذلك انفجرت إحدى القنابل في الخندق فحولته إلى فوهة مفتوحة. وعن طريق بناء أكياس الرمل قبالته، حولناه مرة أخرى على الفور، إلى خندق ضيق.

كان العريف رجلاً عزيزًا لدي، لكنه كان في نظري كبير السن جدًا. (فلقد كنت في الثامنة عشرة من عمري، في حين كان هو في الثلاثين من عمره). وسرعان ما عرفت بأنه كان من أولئك الفتيان الذين لا يخافون الإطلاقات. لقد حصلت الآن على ما كنت أسميه لنفسي بالفريق الشجاع. ففي الليالي الممطرة، وفي الوقت الذي تنشط فيه مدفعية العدو، كنت أخرج من الخط مع رفيقي الشجاع، فنقوم بين عواصف إطلاقات العدو المفاجئة، بتغطية خنادقنا بأكياس الرمل بعد أن كانت قد هدمت أثناء النهار.

كنا نسكن في خرائب قرية (زلبيك) التي تقع على بعد ميلين فيما وراء الجبهة. وفي صباح اليوم التاسع عشر من شهر كانون الأول سنة 1915، وعند الساعة الخامسة والنصف صباحًا، كنا قد عدنا توًا من العمل الليلي في (الغابة المقدسة)، حين دوى انفجار هائل وكأنه رج الأرض، أعقبته سلسلة متواصلة وخرساء من النثار من حولنا.

كانت جميع المنازل في (زلبيك) قد تحولت إلى أكوام من أنقاض وآجر مهشم. وكنا تحت هذه الروابي من الأنقاض نسكن في حفر صغيرة أشبه بالفناجين!! نقرت

في الأرض، وتم إسنادها بدعائم خشبية من البيوت المهدمة. سكنت أنا و(بيكر) في واحدة من هذه الحفر التي كان بسعة سرير لشخصين. استمر القصف الشديد الذي يصم الآذان لمدة ساعة تقريبا. وفي كل عشر دقائق، أو خمس عشر دقيقة، كنت أخرج وأجري بامتداد خط من تلك الحفر الفنجانية، التي كان الرجال يقبعون فيها، لكي أرى ما إذا كانوا جميعًا سالمين. وبعد ساعة أطال الألمان حنقهم فأصبحنا نرى القذائف تسقط على بعد نصف ميل من ورائنا.

لم تكن لدينا أية فكرة عما إذا كان قد وقع هجوم للمشاة على خط الجبهة. غير أنا اكتشفنا مؤخرًا بأنه لم يقع أي هجوم على جبهتنا، وإن كانت الخنادق قد تم قصفها قصفًا كثيف. لقد كان الأمر برمته صرفًا للأنظار، في الوقت الذي كان فيه الألمان يهاجمون التل (60)، الواقع على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب.

في صباح اليوم التالي أقبل (سايمونز) من موقع في المؤخرة، وقد صحبته في تفتيش العطب الذي حل بخط الجبهة. وعلى حين غرة حدث شيء ما. لا يستطيع المرء أن يسمع صوت القذيفة التي تصيب شخصًا ما. كان آمر فوج المشاة وضابطي (سايمونز) مستلقين على أرضية الخندق مع ثلاثة رجال كانوا قد ماتوا للتو. جريت إلى داخل الخندق، ورحت أبحث عن بعض حملة النقالات الذين حملوا (سايمونز) إلى محطة إسعاف في حفرة قريبة في (مابل كوبس).

وحين تم نقل (سايمونز) لاحظت بأن الدم كان يتصبب من حذائي، خلعَ الطبيب الحذاء فوجد أن الإصبع الأكبر من قدمي اليسرى قد تحطم بفعل شظية قذيفة. عدت أعرج إلى حفرتنا الصغيرة في (زلبيك) حيث مكثت خمسة أيام وأنا أقفز بألم فوق خط الخنادق كل يوم. سمع أبي بالجرح الذي أصبت به، لكن

تحقق لديه بأنني لن أترك رجالي في خط الجبهة. ولكن تمت نجدتنا في اليوم الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول، إذ وصلت إحدى العربات إلى (زلبيك) ليلاً، فأعادتني إلى مقر السرية. بعث إلي أبي بسيارة، على أمل أن أزوره في مقر الجيش الثاني خلال النهار. ولكن ظهر بأن تلك كانت حيلة من أبي لأنني رفضت الإخلاء وقد انطلت علي، لأنني أرسلت إلى محطة إخلاء المصابين في (هيزبورك) حيث مكثت هناك مدة ثلاثة أسابيع.

إن محطة إخلاء المصابين، كما يدل اسمها عليها، عبارة عن مكان يجمع فيه الجرحى، ومن ثم يتم إرسالهم إلى القاعدة. لكنني هربت من محطة الإخلاء، وعدت إلى سريتي في اليوم السادس والعشرين من شهر كانون الثاني سنة 1916.

على مثل هذه الشاكلة كانت تجربتي الأولى في الحرب. كان الانطباع الرئيس الذي تلقيته، يتمثل في درس من الصداقة. فقد كنا في القسم الذي كنت أقوده، نؤلف حوالي خمسة وعشرين شابًا، ارتبطنا معًا بإحساس عميق من الأخوة، وكان هذا الإحساس العميق من الصداقة، هو الذي كان يحمل الجنود على التعرض للمصاعب والأخطار، ويمنحهم حتى في أشد لحظات الشدة،نوعًا من الإحساس بالبهجة.

على مثل هذا النمط، كان الرباط الذي يوحد فيما بيننا جميعًا. غير أنني بالإضافة إلى ذلك، (كنت أحتفظ بالأساس للجندية منذ الطفولة)، فقد كان شعار المهندسين يقول (حيثما ذهبنا فإن الواجب والمجد، يقوداننا إلى هناك) وذلك شعار كنت التزم به جيدًا في فؤادي. ففي تلك الأيام كان يتم تعليم الأطفال أصول الدين بطريقة السؤال والجواب عن ظهر قلب في أيام الآحاد.

فالخط الذي كنت أتذكره من طفولتي، هو أن أؤدي واجبي في مثل تلك الحالة من الحياة، وبالصفة التي ترضي الله لكي أطمئن وأنا في رحمته. فالواجب

والخدمة كانتا هما الكلمتين اللتين تنطلقان من أفواهنا دومًا طيلة الأيام التي كنت فيها طفلاً، وفي المدرسة.

لقد وقعت هذه الحوادث قبل خمس وستين، أو سبعين سنة خلت، وهي تبدو غالبًا غير متصورة حين ننظر إلى العالم الذي يحيط بنا الآن. ووفقًا لتلك الأنظمة لم يكن يقال للأطفال بأن الهدف من الحياة هو الواجب والخدمة حسب، وإنما ينبغي لهم، على العكس من ذلك، أن يطوروا شخصياتهم الخاصة بهم، وأن هذا الأمر معادل للتبشير بالأنانية والاثرة، ذلك لأن الأطفال الذين يلقنون مثل هذه الأفكار، لا يمكن أن يلاموا إذا ما أرادوا أن يفعلوا الأشياء الخاصة بهم. فالشيء المثالي هو أن يكونوا متحررين من كل الواجبات والالتزامات سواء بالنسبة إلى وطنهم، أو مجتمعهم، أو الأفراد الذين تربطهم بهم رابطة وثقى.

هنالك مفارقة تامة لأيام شبابي، تتمثل في الموقف العام إزاء المال. لم تكن لدى أبي في الأصل، أية وسائل خاصة للعيش، ولذلك كنا نعتاش على مرتبه. ومع كل ذلك فإني لا أتذكر بأن موضوع المال قد أُثير ذات مرة في البيت، أو خلال الأحاديث الاجتماعية. ونتيجة لذلك كنت واحدًا من أولئك الأشخاص، والذين ربما كان ينظر إليهم بازدراء في العالم الحديث، الذين لا يستطيعون أن يثيروا أي اهتمام بالنقود، باعتبارها هدفًا من الأهداف. وكنا في بعض الأحيان، نجد أنفسنا مرغمين على التفكير في قضايا المال، لكنني وجدت أن ذلك مجرد جهد، ينبغي عليّ أن أؤديه.

وإذا ما قورن المال بما كان عليه قبل ستين أو سبعين سنة مضت، فإنه يبدو في نظري بأنه كان يحتل مكانة الواجب والخدمة، والأهداف التي كانت تقع دومًا

أمام أنظارنا. ذلك لأن العمل لم يعد تحويله إلى خدمة ممتعة. ولكن الضرورة الملحة، يكون هدفها هو الحصول على المال.

إنني أتذكر واحدًا من رجالي الخاصين في هذا الوقت يقول لي (اعطني الرجل الذي يعشق هذا العمل) فبالنظر إلى أولئك الذين يستطيعون الحصول عليه، يكون هذا واحدًا من المفاتيح الأساسية للسعادة.

كان واحدًا من أجمل التكريمات التي حظيت بها، قد حدث بمناسبة طردي من الخدمة من قبل الحكومة الأردنية في سنة 1956. فقد نشر الحادث في الصحافة، وقد تلقى رئيس تحرير صحيفة (الديلي اكسبريس) رسالة قدمها إلي، وهي تقول ما يلي:

سيدي العزيز:

قبل أسابيع قلائل اطلعنا على عمود في صحيفتك يتعلق بالجنرال غلوب قائد الفيلق العربي، وهذه هي الملاحظة التي سمعتها من زوجي الذي عمل تحت إمرة غلوب في الحرب العالمية الأولى، وكان معه حين جرح. لقد كان غلوب ألطف ضابط يمكن أن تلتقي بهم يكن ليبعث بأحد من رجاله إلى أي مكان لا يريد هو نفسه أن يذهب إليه. أرجو، أن تهيأت لك أية فرصة لإيصال أية رسالة إليه، أن تقول له بأن نائب العريف (موس) ما يزال على قيد الحياة ويتمنى له أحسن حظ.

صديقتك المخلصة

سي. موس

لقد تلقيت هذه الرسالة بعد أربعين سنة من الوقت الذي كنت قد خدمت فيه مع نائب العريف (موس) ولكنها تعطي رنينًا للمبدأ الذي كنت آمن

به دومًا، وهو (الالتزام النبيل). ذلك أن على الرجل رفيع المستوى أن يفعل أكثر مما يطلب من أي من التابعين له أن يفعله أن يكون الأسوة الحسنة لهم. إن هذا المبدأ واحد من أولى مبادئ القيادة لكل العاملين في السلطة، سواء كانوا داخل الجيش أم خارجه.

فإذا ما كانت القذائف تتساقط يقول (تعالوا أيها الفتيان دعونا نذهب) ثم يخرج أمامهم. وإذا كان العمل في المصنع يبدأ في الساعة السابعة والنصف صباحًا. فإنه ينبغي لرئيس المصنع أن يكون هو الذي يقرع الجرس للفتيان. فمهما كان تابعوك يستطيعون أن يفعلوه، افعله أنت بنفسك!

ولربما كان المبدأ الثاني للناس هو تطلّعهم إلى مصالحهم. فلقد اكتشفت أن إحدى المنظمات النسائية الوطنية في إنكلترا، والتي كرست نفسها لخياطة الثياب للجنود. (كانت منظمة (الأخت سوزي) لخياطة الثياب للجنود، تمثل أغنية شهيرة في ذلك الوقت). ولقد اتصلت بأولئك السيدات، فبعثن إلي بربطات من الثياب التي أصدرنها. لقد كان الجنود يتطلعون إلى شيء متصور نوعًا من الاستعراضات العامة المعتادة، غير أن مثل هذا التطلع قد يختفي تحت الثياب المحاكة، إذا لم يكن رئيس العرفاء حاضرًا معهم!

غير أن ألطف درس يمكن الإلمام به، هو كيف يمكن أن تصبح شخصًا محبوبًا من دون أن تكون شخصًا اعتياديًا. فعلى الآمر أن يواجه المزيد من الخطر والمشقة، أكثر من رجاله. من خلال الدخول الحميم معهم في صداقة ومودة رائعتين وبشكل تلقائي، ومع ذلك ينبغي له أن لا يكون واحدًا منهم تمامًا. يجب أن تكون بينهم مسافة محسوبة بدقة. ذلك لأن جزءًا من هذه المسافة الودية للزعامة، قد يعتمد على التصرف الاجتماعي. فعلى الضابط أن لا يقسم كاذبًا، ولا يطلق نكات مستهجنة، أو أن يتصرف بطريقة مبتذلة.

إن عبارة (ضابط، ونبيل) غالبًا ما تكون موضع السخرية في هذه الأيام، ولكن كان لأجدادنا، في هذا المجال،نظرة حسنة، كنا نمتلكها في الطبيعة البشرية. ولسوء الحظ كانت لكلمة نبيل على الدوام، كما يظهر، أهمية مزدوجة في اللغة الإنكليزية. ذلك لأن رؤية (نفيل كوهل) في الإنكليزية الحديثة، والتي وردت في (حكايات كنتربري) التي كتبها (تشوسر) قد تضمنت المقطع التالي.

كل من يود أن يعمل في سبيل غايات فضلى، عامة كانت أم خاصة
وكل من يعتزم أن يفعل ما تستطيع أخلاق النبي أن تفعله، لابد
وأن تؤدي به إلى أن يصبح أعظم نبيل!...
يريد المسيح أن نستمد نبلنا منه
وليس من ثروة سلسلة أجداد طويلة وكليلة

كانت (حكايات كنتربري) قد كتبت في أواخر القرن الرابع عشر، وهي شاهد على أن المعنى المزدوج لكلمة (نبيل) كان من الأمور المؤكدة قبلاً. إن أعظم نبيل هو الرجل الذي يعمل دومًا في سبيل غايات فضلى، ويستخدم النبل وسيلة لنيل تلك الغايات. ولكن فيما مضى، كان بعض الناس يستعملون كلمة (نبيل) للتعبير عن فكرة صفة متحدرة من أسرة شهيرة. وحين ربط الذين كانوا يحملون هذه الصفة من معاصرينا كلمة نبيل هذه بكلمة (ضابط) لم يكونوا يقصدون بذلك أن يشيروا إلى الأثرياء من أجداد ذلك الرجل، وإنما إلى صفته النبيلة ليس إلا.

فالسلوك الذي لا يكون صفة لضابط ونبيل، يكون اعتداء صادرًا من محكمة عرفية. فالضابط بكل وضوح لا يمكن أن يحاكم أمام محكمة عرفية لأنه لا يملك سلسلة نسب، بل لأن تصرفه لم يكن تصرفًا أخلاقيًا، (أو كان يتصرف

بطريقة مستنكرة) كالطريقة التي يريد بها أن يفقد احترام جنوده له. ففي الوقت الذي يعيش المرء فيه مع جنوده الخاصين به، يستطيع أن يفرض عليهم الأصالة الخلقية، التي تضمن احترامهم له، ولكن من دون أدنى شك في أن يكون متفوقًا أو وضيعًا.

ما يزال المعنى المزدوج لكلمة (نبيل) يسبب سوء الفهم. فحين نقرأ في كتاب قديم بأن (سمث) أو (جونس) لم يكن نبيلاً، لسوء الحظ، فإننا سرعان ما نقول كم اعتاد أجدادنا أن يكونوا من الوضعاء! غير انه ينبغي لنا أن لا نتهور في إطلاق هذا الحكم. ذلك لأن القصد من وراء ذلك، قد يكون بأن الرجل لم يكن يعمل في سبيل غايات فضلى، أو أنه كان فظا، أو منحط الخلق، أو كافرًا.

ولقد أوجز الملك (جمس الأول) هذا الأمر حين قال: (إنني أستطيع أن أجعل من الرجل لوردًا، ولكن الله العظيم وحده هو الذي يستطيع أن يجعله نبيلاً!). والواقع أن التاريخ يزخر بأسماء الملوك والأمراء، والأرستقراطيين، الذين كانوا أبعد بكثير جدًا عن المفهوم الحقيقي للنبلاء.

خلال فترة قيام الكومنولث، تحت زعامة أوليفر كرمويل (1649–1660) كانت بريطانيا تخضع لحكم، يديره عسكريون من رتبة لواء، وهي تجربة لم يستمتع بها الشعب. كانت كراهية الناس للحكم العسكري، قد سببت خوفهم من العسكريين الحرفيين. غير أن إحدى السياسات ما لبثت أن تطورت نتيجة لذلك، وطبقًا لتلك السياسة لم تعد تدفع لضباط الجيش النظاميين مرتبات تكفي لأن يعيشوا هنا. وهذا يؤكد بأن الرجال الوحيدين الذين لديهم وسائل عيش خاصة، هم الذين يستطيعون أن يصبحوا ضباطًا. والواقع أن هؤلاء، كانوا في مرحلة واحدة، يتوقعون أن يشتروا ليس امتيازاتهم حسب،بل وحتى كل خطوة في سبيل ترفيعهم!

أما الضباط الذين لا يستطيعون أن يوفروا المال لتحقيق ذلك، فإنهم كانوا يرغمون على الخدمة في البلدان النائية، أو غير الصحية. وعلى هذه الشاكلة كانت وضعية (كتيبة غربي الهند) التي قيل بأنها كانت (تشرب نخب حرب دامية).

ومع ذلك، وعلى غرار المزيد من العادات الكثيرة المستهجنة،وغير المنطقية في بريطانيا، فإن النظام الذي لا يسمح إلا للرجال الذين لديهم وسائل عيش خاص، في أن يصبحوا ضباطًا.

فالمبدأ الأول هو أن الجيش الذي يتزعمه رجال يعيشون في أوضاع مريحة، لن يكون راغبًا في الإقدام على القيام بانقلاب، وإقامة حكم عسكري غير أن هؤلاء الضباط كانوا على الدوام يكرسون أنفسهم، بكل حماسة، لكتائبهم، ذلك أن البعض منهم كانوا ينفقون حتى أموالهم الخاصة على رجالهم، وعلى بدلاتهم العسكرية بل وحتى خيولهم! ذلك لأن أعظم مطمح لكل ضابط هو أن يصبح آمرًا لإحدى الكتائب قبل أن يتقاعد.

كانت لكل واحدة من كتائب الجيش مكافأتها في المعارك، والتي كانت تنقش على راياتها الملونة، وتكون لهذه الكتائب أيضًا القاعدة الخاصة بها. فهذه هي الكتيبة الخامسة، وتلك هي كتيبة (الموت العصيب)، وكتيبة (المخلصين)، وكتيبة (الكبار الناهضين).

غير أن هؤلاء الضباط الذين كرسوا أنفسهم، على مثل هذا النحو، لوحداتهم، لم يكونوا من الطلاب الحرفيين في الفن العسكري ذلك لأن الإدارة، وعمل الأركان، لم يكونا كافيين في الغالب. فالقيادة تحتاج إلى الموهبة أيضًا. هناك حكاية لطيفة عن (السر هيو غو) حدثت أثناء حروب السيخ في الهند،

تروى عنه بأنه كان يرتدي بدلة عسكرية مزخرفة لكي يحول نيران العدو عن قواته هو. ولقد أظهر الضباط البريطانيون في كل أنحاء العلم، مثل هذا التكريس لوحداتهم، سواء كانت الوحدات من (الغورغا) أو (السيخ) أو (العرب) أو أي عنصر آخر.

كانت نتائج هذه الصفات حدوث تطورات مثمرة بثلاثة أضعاف في كل وضوح. الأول: هو أن الجيش البريطاني، منذ سنة 1660، لم يتدخل في السياسة إطلاقًا، كما أنه ليس من المتوقع أنه ينبغي له أن يفعل ذلك في الوقت الحاضر. والثاني أن الجيش البريطاني، على مستوى الكتائب، قد أنتج أحسن الوحدات العسكرية في العالم.

والثالث أن الجيش البريطاني، كان بصفة اعتيادية متخلفًا عن الجيوش الأوروبية الأخرى، في فن الحرب، والقيادة، وعمل الأركان، أو الإدارة. وسبب ذلك يعود إلى أن ضباطه كانوا كلهم من النبلاء أولاً، ولم يكونوا من العسكريين المحترفين. غير أن الجيش البريطاني في صفة كتائب، أو أفواج فردية، كان من ألطف جيوش العالم.

ولهذا السبب فحين كان أبي يلح عليّ بأن أكون، قبل أي شيء آخر، نبيلاً بريطانيًا بسيطًا وشريفًا، فإنه كان يحمل في ذهنه صورة واضحة ينبغي أن يتصف به الضابط والنبيل.

- 4 -

وحدانية مرعبة

لابد لي أن أعود بكم إلى تلك اللحظات الحرجة. فحين جرح (سايمونز) تولى النقيب (اتكنوسون) الآمر الثاني، آمرية السرية. وفي اليوم الثامن من شهر شباط 1916، قدمت الفصيل الأول من السرية، إلى خط الجبهة مرة أخرى، في (زيلبيك)، ولكن (أتكنسون) جرح في ذات اليوم، ولذلك أصبحت،من الناحية النظرية، أنا آمر السرية، غير أنني واصلت بقائي بكل سعادة، مع فصيلي في (زيلبيك).

وفي الساعة الحادية عشرة قبل ظهر اليوم الخامس عشر من شهر شباط،كنا نعمل في خندق أطلق عليه اسم (وارنغتون أفنيو) في (الغابة المقدسة) حينما أمطرتنا زخة من قنابل المدفعية الألمانية التي كانت تصفر، وتئز من فوقنا، حيث أدت إلى مقتل زارع الألغام (سميث) وجرح كل من (بنسون) و(غردلر) واخترقت شظية خوذتي فسال الدم من رأسي.

تم إخلاء كل من (بنسون) و(غردلر) إلى (فلامر تنغل) باعتبارهما من الجرحى. أما أنا فقد نُقلت من هناك إلى وحدة ميدان طبية فعولجت وعدت فانضممت إلى سريتي. وفي اليوم العشرين من شهر شباط تولى النقيب (ج. 1. ماك كوين) آمرية السرية. ولقد توسلت إليه بأن يدعني مع حضيرتي في (زيلبيك) ولكنه أبى ذلك، وقال أن عليّ أن أعود إلى الموقع الخلفي.

كان ينبغي لي أن أسلم حضيرتي إلى ضابط جديد يدعى (شابلن) وأن أصبح أنا الآمر الثاني للسرية، وهذا معناه أن علي أسكن في الموقع الخلفي، الواقع على مقربة من (فلامر تنغل)، وأن أغدو في آمرة الإدارة. ومع ذلك فقد عهد إلي أيضًا بمهمة النقل التي كانت تتألف من بضع مائة وعشرين حصانا، وحوالي خمسة وخمسين رجلاً.

كانت كل الخيول التي تعمل في النقليات العسكرية تقريبا، تحتسب بالأرقام الزوجية، حصانان، أربعة أحصنة، أو ستة أحصنة، ولذلك كان كل سائق يتطلع إلى حصانين. وإذ كنت قد كرست نفسي، منذ الطفولة للخيل، فإنني شرعت بالتدريج استمتع بذلك العمل، فرحت أحب حوذي تلك الخيل، مثلما أحب زارعي الألغام التابعين إلي.

في شهر آذار سنة 1916، انتقلنا من الغابة المقدسة، وعدنا ثانية إلى الخنادق،على بعد أميال قليلة إلى الجنوب من بلدة (بلف). ولقد دارت هناك على الفور معركة محلية حادة، إلى درجة أن (الجداء) (استخدم المؤلف كلمة (جداء) جمع (جدي) للإشارة إلى الألمان) استطاعوا الاستيلاء على خط جبهتنا، حيث تولت فرقتنا الثالثة إعادة احتلالها فيما بعد. وفي اليوم العشرين في شهر آذار، تسلمنا نحن، ذلك الخط من الفرقة الثالثة. كان موقع بلدة (بلف) يمثل إحدى الضفاف التالفة لقناة (إيبر - كومان). فهذا الريف المنبسط الذي يؤلف رابية ترتفع إلى حوالي عشرين، أو ثلاثين قدمًا، كان يعين المرء على أن يطل على مواقع العدو إلى أميال عديدة. وكانت نتيجة ذلك أن وجدت هناك ضفة تالفة أخرى، مثل ضفة (بلف) اشتد القتال في سبيلها بضراوة. كان قتلانا ما يزالون يتساقطون بكثافة على ضفة (بلف)، غير أن أحدًا لم يكن يستطيع أن يخرج من الخنادق لكي يواري القتلى التراب!

في اليوم الثالث والعشرين من شهر آذار، سقط (شابلن) الذي كان يقود الحضيرة الأولى من السرية مريضاً. ولكم فرحت حين تم إرسالي ثانية إلى تلك الحضيرة، وتوليت آمرية رفاقي القدامى. لم يكن هنالك خط متواصل من الخنادق في قطاع (بلف). وبعد أن تتابعت المعارك أمام الجبهة، وما خلفها، تم التمسك ببعض المواقع المعزولة في الحفر التي أحدثتها القذائف.

وإذ حاولت أن أزور هذه المواقع في إحدى الليالي، وسرت فيما بينها، وجدت نفسي تائهًا في أرض لا بشر فيها. وفي نوبة من الحماس المفاجئ فقدت إحساسي بالاتجاه، لم أعد أعرف في أي اتجاه توجد (الجداء) أو أبناؤنا. وبعد لحظات عصيبة، لمدة ربع ساعة من الزحف الحذر، عثرت على أحد مواقعنا.

كانت (بلف) مغطاة فعلاً بجثث القتلى. ذلك لأننا والألمان قد تكبدنا أثناء المعارك، بخسائر كثيفة جدًا، ولم يستطع أي من الفريقين أن يخرج من الخنادق لكي يدفن القتلى. وكان من نتيجة ذلك أن بقيت تلك الجثث تتعفن وتتفسخ في العراء، ومن ثم تتساقط في الوحل الذي يغمر حفر القذائف أو الخنادق ذاتها.

في شهر آب سنة 1916، انتقلنا إلى منطقة (السوم) وشاركنا في الهجوم الكبير الذي وقع في اليوم الخامس عشر من شهر أيلول، ضد (الغابة العليا)، وكانت تلك أول معركة كانت الدبابات قد استخدمت فيها. ولقد مكثنا في جبهة (السوم) من اليوم الخامس عشر من شهر أيلول حتى نهاية شهر كانون الثاني من سنة 1917.

كان ميدان معركة (السوم) بعرض حوالي ستة أميال من خطة الجبهة، إلى مدينة (البرت) وكانت كل هذه المنطقة مؤلفة من بحر لا نهاية له من الأوحال، تقوم فيه، هنا وهناك، أكوام من الآجر، أو الأبنية المهدّمة، حيث كانت القرى

تقوم هناك. وفي مكان واحد أو مكانين، توجد جذوع الأشجار المتناثرة، التي كانت فيما سبق غابات قائمة. لقد كان كل شيء، وحتى الإنسان يطمس في البلل، ويغوص في الوحل، وكانت الغيوم الداكنة الواطئة والضباب، و الأمطار التي تدفع كل شيء أمامها، أو الثلوج، كل هذه قد أكملت تكوين هذا المنظر المخيف الذي لا يمكن وصفه.

حدث ذات مرة خلال هذه الأسابيع الثمانية عشرة، أن حصلنا، أنا و(بيكر) على إجازة لمدة يوم واحد، فامتطينا خيولنا، واتجهنا نحو مدينة (البرت) التي كانت ما تزال نصف مهدمة، وإن كان يندر وجود أي مدني فيها. لقد استطعنا أن نكتشف مقهى (دي جو دي بوم) حيث تناولنا طعام الغداء فيها، وعثرنا على امرأتين هناك!

ولكن أعظم مسرة أصبتها حين أعطيت إجازة لمدة يومين، كي أزور أبي الذي كان آنذاك في مقر الجيش الثاني في (كاسل) فقد بعث إلي بسيارة لتنقلني إليه، وهكذا سارت السيارة في منطقة منعزلة، وفي ريف لم يصبه الدمار بعد، وخلال مدن فيها حوانيت، وشوارع غاصة بالمارة، ونساء يرتدين الملابس الجيدة. لقد علمتني أربعة شهور أمضيتها في (السوم) بأن الحياة من دون نساء كالروض بلا أزهار كما يقول (الأدباء).

أشار أبي إلى هذه الزيارة في رسالة بعث بها إلى أمي فقال: إن جاكو (وهو لقب تحبيب)، قد وصل إليّ في مساء يوم الثلاثاء، وقد أبقيته هنا ثلاث ليال، وأخذته إلى الحانوت الخاص بالضباط، وجعلته يصلح نفسه بصفة لائقة، بما حصل عليه من الملابس الداخلية، والجواريب، التي أخبرني مراسلي عنها بأن (غلوب) كان في حاجة ماسة إليها. وكان أسوأ شيء بالنسبة إلى المكان هو تحمل

الوحدانية المرعبة. ذلك انه لم ير لا مدنيًا، ولا حانوتًا أو حتى مسكنا لمدة أربعة شهور، وهو يبدو قويًا جدًا، وفي صحة تامة.

وحين كنا في جبهة (السوم) كتبت ذات مرة في يومياتي (إن المرء يتحول إلى شخص مادي جدًا في تفكيره، في هذه الدورة المألوفة من عمل لا نهاية له في أجواء مخيفة وكالحة، تحيط به، ومن دون حتى حلول يوم واحد من أيام الآحاد، أو شيء من المشروبات الروحية. ينبغي علي أن أنكب دومًا على مطالعة كتاب (تطبيق وجود الله) لمؤلفه (برذر لورنس)، فالكل ذات الشيء، وإن كنت أعتبره نادرًا. ذلك أن الله لن يرفض التمتع بوجوده حينما أطلبه منه!).

في أحد الأيام كنت في خط الجبهة. وكنت أعود سائرًا في جو قاتم اللون، مليء بالضباب، وقد جلست بضع دقائق على كومة من الأنقاض في قرية (مارتنبويش) المهدمة، وعلى حين غرة استحوذ علي إحساس بالمتعة، كان شديدًا خارج حدود الوصف، وقد استمر بعض دقائق، ثم أخذ بعدها يضمحل رويدًا رويدًا. ومنذ ذلك الوقت أخذت اعرف على الأقل دائمًا معنى عبارة (الانجذاب الروحي).

وإذ أقرأ الآن يومياتي القديمة فإنني أعجب كيف كنت على استعداد لأن أتحسس وجود الله حين أفكر فيه، وأن الشيء الوحيد الذي أستطيع الآن أن أستخلصه هو: أن النفحات الروحية البهيجة كانت تشيع بكل يسر بين الشباب العاطفيين اليافعين.

لقد انقضت ستون سنة، منذ أن أحسست بذلك الانجذاب الروحي في جبهة (السوم). أما الآن فإن الحياة ثابتة ووقورة، ولكن تنقصها تلك اللفتات من العاطفة الروحية. ذلك أن (حصان) الحرب القديم قد حل محل (الفلو)!.

ولقد احتفظت أمي بالرسائل التي كنت قد بعثت بها إليها من فرنسا، وهنا أنني أثبت هنا اثنتين منها اخترتهما بعشوائية.

1917/1/21

أمي العزيزة

قبل كل شيء أشكرك كثيرًا على الرزم التي كانت تحتوي على: زيت من علامة (مارس)، بطاريات كهربية، وألواح صابون وغيرها، ومسحوق الأسنان العجيب، والمنديل، والجواريب. كما أرجوكِ أيضًا أن تشكري عمتي على إرسالها إحدى الرزم التي تحوي كعكتين فاخرتين!

لدي طلب آخر! هل في مستطاعكم إرسال علب من مادة الغسيل من فضلكم؟ إنه من الصلصال لتنظيف رؤوس الحبال البيض، وآثار الحبال وغيرها. كذلك تسلمت النماذج التي أعادها ساخطًا (الفريد ويب مايلز). ينبغي علي أن أحاول، وألفق قياساتي، بالنسبة إلى النماذج التي يعتقد بأنها ملائمة لي. إنها تذكرني بـ (سندريللا) وبـ (فينوس ميلو) في أسطورة (قبلة لسندريللا). ألا تتذكرون كيف كنا نستمتع بذلك؟ إنني مندهش لأنكم لم تذهبوا لرؤية مسرحية (ج.م. بري) المعنونة (قصة حب أستاذ) بدلاً من مسرحية (هـ. لودر) إننا في قبضة الشتاء هنا. فقبل خمسة أيام مضت كانت كثافة الثلج قد بلغت أربع بوصات، ومنذ ذلك الوقت ونحن نواجه ريح الشمال السوداء القارصة المطعمة بالثلوج. لقد كان الثلج جافًا أشبه بالمسحوق. وقد تجمدت كل برك الأوحال والمياه. إن ريح الشمال تلسع أذن الإنسان، وأنفه، وذقنه. ينبغي علي أن أتوقف إلى هنا الآن، وإن كانت هذه الرسالة جد فقيرة! وداعًا يا عزيزتي مع مزيد من الحب.

جـــاك

ما زلت أتذكر، وكأنه اليوم، كآبة ذلك الحزام الذي كان عرضه يمتد إلى ستة أميال، من ذلك التدمير الهائل الذي حدث في (السوم). ذلك لأنني قرأت في الصحف اليومية عن احتمال وقوع حرب نووية بين الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا السوفياتية، والتي سوف تحول كل أمريكا الشمالية، وأوروبا، وروسيا، السوفياتية، إلى أكوام من الأنقاض، ومن دون أي شكل من أشكال الحياة. إن العزلة المؤلمة لستة أميال من حمأة أوحال لا حياة فيها، كيف يراد لها أن تمتد الآن إلى تدمير كل القارات. تلك هي حصيلة الأربع والستين سنة من التقدم! (يشير المؤلف بذلك إلى الفترة التي مرت بين سنة 1917 وسنة تأليف المذكرات وصدورها).

إن من المستحيل العثور على تفسير منطقي، لتصميم النوع البشري ذلك التصميم الواضح على التسابق في الانتحار. إن العالم يضم موارد وفيرة لتموين الجنس البشري. وأكثر من هذا، أن أكثر الأمم ثراءً، هي التي تقود هذا السباق المخبول لتدمير حياة الإنسان (والحيوان والنبات معًا). إن الأمم المختلفة لا تحتاج إلى أن تخاصم إحداها الأخرى إلا في سبيل الخوف المتبادل.

لقد كنا نسمع باستمرار عن حياة المسيح، بأنه كان يأمرنا بأن نحب أعداءنا، ولذلك أخذت تصيبنا رجة، ونحن في سن كهولتنا، لكي نتأكد، كيف أن هذا النظام الذي كان ضروريًا، ينحط إلى الأرض بصفة عملية حقًا. لا يوجد هناك أي سبب يجعل الأمريكيين لا يحبون الروس. فإنهم في الواقع، حين كانوا يلتقون أفرادًا فإن من المحتم أن يحب أحدهم الآخر.

لكي تحب كل إنسان على وجه الأرض، أودعنا نقول، أن تعتبرهم جميعًا، ذوي نفع ومودة، فإن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها الجنس البشري

أن يحيا. فإذا لم نكن كلنا نعرف الحب الجماعي، فإن الجنس البشري، سوف يفنى ويباد قبل أن تظهر هذه السطور مطبوعة في كتاب.

علينا أن نقول بأن الله، أي روح الكون، أنه هو الحب، وليس قطعة شعرية للمثالية. إنه على وجه التأكيد بيان عملي ثابت، لمبدأ لا تستطيع الحياة بدونه أن تعيش طويلاً.

هنا أدرج رسالة أخرى من رسائلي مؤرخة في 13/ 3/ 1917

أمي العزيزة!

أشكركم كثيرًا على الرزم التي كانت تلقى الترحاب، والتي كانت تتألف من التمور، والجواريب، والجبن وقطع الشاي. وكذلك تسلمت القفازات الجميلة التي بعثتم بها، وقد استعملتها في هذا الجو البارد.

لقد أصبح الجو في هذه الأمسية أكثر دفئا، وقد تذوب الثلوج أخيرا. تقول عمتي المتخيلة، بأن سراويلي تنبعث منها رائحة التبغ. إنني متأكد بأن هذه السراويل لا تحمل رائحة التبغ على الإطلاق، كما أنني لم ألاحظها على هذه الشاكلة في أية حالة أبدًا. لا! إنني لست أدخن في الوقت الحاضر، ومهما يكن الأمر فإنني لن أدخن بساقي، وأدع سراويلي تشم منها رائحة التدخين.

وإنني أخشى أن تكون ملاحظتكم المتفائلة حول حصولي على إجازة عاجلة، من الأمور السابق لأوانها! لقد عدنا نعيش مرة أخرى في جزء متمدن من العالم، بعيدًا عن الحشود المخبولة، ولا نتذكر الحرب، إلا حين نشاهد طائرة ألمانية مصادفة ليس إلا. لقد تناولنا عشاء باذخًا هذه الليلة، احتفالاً بسكننا في أوروبا المتمدنة.

لقد غدا الجو في الأخير أكثر دفئًا، ومع ذلك فإنه ألطف جمالاً. لقد كانت هذه الأمسية كاملة تمامًا. لقد غربت الشمس الآن، ولم تعد تهب حتى ولا نسمة من ريح. فالسماء من فوقنا ما تزال صافية زرقاء تمامًا، كلها أخذت تزداد شحوبًا أكثر فأكثر تدريجيا باتجاه الأفق، ومن ثم بدت بلون أصفر مخضوضر بشكل خفيف جدًا جدًا، فامتزجت باللون الأصفر الشاحب، وبالحمرة البرتقالية، في حين انتشرت عتمة ضبابية خفيفة فوق الأفق. إنني أحب الجزء الأصفر الشاحب لأنه يعطي الإنسان فكرة عن اللانهائية. كل شيء ما يزال ساكنًا وهادئًا تمامًا. ذلك أن السلام التام فيه، يبدو وكأنه قد أخذ يتسلل إلى روح كل إنسان.

أما الآن فإن عليّ أن أعود إلى الدائرة، لأن أيّ شخص لا يستطيع أن يهرب من دائرة تضم أشكالاً وأنواعًا، وإن كان يتولى أمرة سرية ميدان،وذلك هو ما أقوم به الآن، بعد أن أعفي (ماك) من هذه المهمة لكي يعد دورة من التعليم. وداعًا عزيزتي ومزيدًا من الحب.

جــاك

في شهر آذار سنة 1917، انضمت فرقتنا، وهي الفرقة الخمسون، إلى الفيلق الثامن عشر، الذي بدأ يتدرب بصفة فيلق مطاردة. ذلك لأن معركة جديدة كانت على وشك أن تنشب في (ارّاس)، فبعد أن استطعنا أن نخترق خطوط الخنادق الألمانية، كان على الفيلق الثامن عشر، أن يقتحم المعركة، وأن يطارد العدو إلى برلين!

وفي اليوم الحادي عشر من شهر نيسان سنة 1917، وفي غمرة عاصفة ثلجية، أمضينا الليل كله في مسيرة، ودخلنا مدينة (أراس) عند الفجر، لكننا

أخفقنا في اقتحامها. ذلك أننا بدلاً من تعقيب العدو المنهزم، استولينا على خنادق أمام (فانكورت) واستأنفنا الأسلوب القديم في حرب الخنادق.

وفي اليوم السادس من شهر آب كتبت إلى أمي ما يلي:

أمي العزيزة!

أصبحت الإجازة الآن تراجعًا ليس إلا، ولست أدهش إذا ما استطعت أن أفاجئكم بمجيئي في نهاية هذا الشهر. هل وصلتكم بدلة ملابسي العادية، وأحذيتي السود، وعصاي، وقبعتي الكروية؟ إنني أتطلع عن طريق (جورج) إلى الحصول على إجازة. وداعًا يا عزيزتي، وآمل أنكِ قد غدوت في وضع أفضل مؤخرًا. لك المزيد من الحب.

جـــاك

ولكن للأسف أن هذه الإجازة لم تحصل، لأنني أولاً كنت قد جرحت. ففي اليوم الحادي والعشرين من شهر آب سنة 1917 وفي (هنينل) شرقي (أراس) أصبت بشظية من قنبلة ألمانية حطمت فكي الأسفل تحطيمًا تامًا، ولم أكن أتوقع أن أعيش، ولذلك تم إخلائي إلى إنكلترا، وبقيت طيلة ثلاثة أشهر أرقد في المستشفى العمومي الثالث بلندن في (واندسورت) ولم أتلق أي علاج إطلاقا، وظل جرحي متقيحًا، وينشر رائحة كريهة ومن ثم نقلت إلى مستشفى خاص في (فروغنال)، في (سدكب) بـ (كنت). وهو مستشفى كان قد أنشئ خصيصًا لمعالجة الجروح التي تصيب الوجه.

كانت (فروغنال) عبارة عن منزل ريفي واسع، ما يزال يحتفظ بالمكتبة التي تعود إلى مالكه. وهنا وللمرة الأولى، قرأت كتابًا ينكر وجود الله، ويعزو خلق العالم المحيط بنا، إلى عملية ذاتية للتطور. لقد كنت على الدوام أتقبل حكم الله

على العالم، وكنت قادرًا على الصمود أمام كل مشاق الحياة، وآلامها، اعتقاد أمين بان الله هو المسؤول. وعلى حين غرة، وباعتقاد مني، بأنه ربما أن يكون الله غير موجود، انهارت قناعتي واختل يقيني فجأة!

أسرع المستشفى معالجة جروح الوجه، في تنظيف جرحي، وتم اقتلاع العظام الميتة، والأسنان المحطمة. ومن ثم تجبير فكي الأعلى والأسفل معًا ولم تبدأ عظام فكي الأسفل في النمو ثانية إلا في شهر آذار من سنة 1918 لقد أصبت بكآبة شديدة جراء جمودي الإجباري، ذلك لأن قلبي وروحي كانا مع الفتيان في فرنسا. كانت أمي تعيش في غرفة جلوس تحتانية واسعة في (37 الفريدبليس) الذي يطلُّ على محطة (سوث كنسغتون) وكان البيت ملكًا لامرأتين بلجيكيتين من لاجئات الحرب من موطنهما بلجيكا، وقد أفردتا ليَّ غرفة تحتانية صغيرة خلف البيت.

حدث بعض الخطأ بمناسبة تاريخ مولدي. وقد بقيت أمي تتألم باستمرار دائم منذ ذلك الوقت، وعلى الأخص حين تكون متعبة. ذلك لأنها كانت تنفق ساعات عديدة بل حتى أيامًا طريحة الفراش بذلك المرض القديم الذي كانت تشير إليه بأنه هو مرض (العظم الركابي).

إنني لأتذكر جيدا كيف كنت أركع بجانب سريرها، وأقول لها (لا أستطيع أن أمكث هنا في إنكلترا، من دون أن أعمل شيئًا ما، في الوقت الذي يعاني فيه الفتيان، المزيد في فرنسا!).

جبر الجراحون فكي الأسفل، بأن ربطوه بالفك الأعلى، وبذلك أصبح يتحرك أشبه بالجبيرة، بقصد الإبقاء على الأجزاء المحطمة من فكي الأسفل سوية، وإعانتها على أن تتوحد، وهكذا فإنني لم أعد أستطيع أن أفتح فمي.

ومهما يكن فقد فقدت كل أسناني تقريبا، واستطعن أن أدفع قطع من الخبز، والزبدة في فمي بين اللثات التي فيه. ولم أكن أستطيع التحدث إلا بمشقة، مثلما يحصل لدى أيّ فرد يحاول أن يتكلم في الوقت الذي يبقى فيه فكاه مغلقين.

كنا نمتلك حاكيًا قديمًا يدار باليد في غرفة أمين وقد اعتدت أن أدير الاسطوانات التي لا يزيد طول الواحدة منها عن عشر بوصات في تلك الأيام. وإنني لأتذكر الآن معزوفة (هاندل) المسماة (لارغو) وكذلك معزوفة (بوكتشريني) المسماة (ملايين دي هارلكوان) و(ليالي المرح) وفي إحدى المرات، وإذ كنا نذير اسطوانة (إدوارد) تضمُّ رقصات (نيل غوين) الألمانية، أسندت ربة البيت البلجيكية، برأسها إلى الباب، وتمتمت (آه! هذا شيء جميل!). كذلك اعتدنا أن نستمع إلى ألحان الملحن الإيرلندي (جون ماكورماك).

وإذ بقي فكاي مجبرين لجملة من الأشهر، أصبحت أقدر على الخروج، لكنني كنت أحس بأنني كسول، ولا نفع لي في ذلك. وأخيرًا تطوعت للعمل في صالة (منسنغتون تاون) حيث كان يجري إصدار بطاقات التموين. كنت أجلس إلى منضدة صغيرة داخل باب الصالة تمامًا، وتحت إعلان يقول (استفسارات). وكان كل الناس يحتشدون عند الباب للحصول على بطاقات التموين الجديدة، أو يسألون عن الأسباب التي تدع أصحاب الحوانيت يرفضون أن يبيعوهم أي مزيد من لحم الخنزير المملح، أو الزبدة، أو السكر!

لقد علمتني هذه التجربة أن أتفهم عدم عقلانية الكثيرين منا. لقد كانوا كلهم من النساء طبعًا، ومعظمهن من ربات البيوت اللواتي كان أزواجهن بعيدين عنهن، في ميادين الحرب. وقد يتعاظم جنون البعض منهن ضدي، بسبب عدم كفاية التموينات المزعومة، وإن كنت قد عينت هناك لغرض واحد، هو أن أوضح

لهن النظام المعمول به. ولم تكن غلطتي إذا كنّ قد استهلكن بطاقات لحم الخنزير، أو السكر المحددة لمدة شهر وذلك في النصف الأول من الشهر!

ولغرض رفع معنوياتي اعتادت أمي أن تأخذني معها إلى المسرحيات، أو الكوميديات الموسيقية المسائية. وأذكر أننا كنا قد ذهبنا إلى كوميديات (تشوتشن تشاو) و(الليلة هي ليلة)، و(حكايات هوفمان) و(جندي من الشوكلاتة) كما أظن، كما شاهدنا مسرحية (الحلوة نيل) من (اولد دوري) مع (إسك) و(اللي برايتون).

وفي الأخير نمت عظام فكي الأسفل سوية، واستطعت أن أقنع المجلس الطبي بأنني ملائم للعودة إلى خط الجبهة. كانت الفرقة الخمسون، أثناء غيابي عنها، قد تولت مهمة كامل القوة التي واجهت الهجوم الألماني على (السوم) خلال شهر نيسان سنة 1918. أما بقاياها فقد تحركت إلى قطاع هادئ على مقربة من (سواسونز)، حيث ألقى الألمان، على وجه الدقة، بثقل هجومهم الثاني، في تلك المنطقة، وكانت النتيجة أن أبيدت الفرقة الخمسون، ولم يعد لها من وجود أبدًا.

وحين نجحت أخيرًا في العودة إلى فرنسا في اليوم الحادي عشر من شهر تموز سنة 1918، كان أبي، وبطلب مني، قد رتب لي أمر العودة إلى سرية الميدان السابقة. كان هذا يمثل خيبة أمل له، لأنه أرادني أن أتقبل منصب نقيب أركان في مقر أحد ألوية المشاة. وبالنظر إلى عملي المقبل، فقد كان من المفيد كثيرًا، بالنسبة لي، أن أكتسب بعض التجربة عن الأركان قبل أن تنتهي الحرب. على أنني ألححت على العودة إلى سريتي القديمة، لأنني أعرف أفرادها وأحبهم فلم أكن لأكترث بعملي المقبل. والحقيقة أن حياتي كلها كانت تكرارًا لهذا الموقف. فقد كانت دوافعي على الدوام منصبة على حب الناس، وليس المال أو التقدم.

عثرت على الفرقة الخمسين حين كانت ترتاح في كنيسة (مارتن) على مقربة من (دييب)، لكنها لم تكن هي تلك الفرقة التي عمدتها.

لقد أبيدت منها أفواج حملة البنادق من (نورثمبرلاند)، وأفواج (درهام) للمشاة الخفيفة. وقد أعيد تشكيل الفرقة بأفواج سحبت من (سلانيك) بعد أن أصيبت بالملاريا! .

كانت سرية المشاة السابعة، قد أبيدت هي الأخرى أيضًا، ولم يبق على قيد الحياة أي من ضباطها. وكل ما بقي منها عدد قليل من زارعي الألغام، وإن كان البعض من سائقي وسائط النقل، ما يزالون موجودين فيها.

وأخيرًا وفي اليوم السادس عشر من شهر أيلول كانت الفرقة الخمسون التي أعيد تشكيلها، قد دُفع بها مرة أخرى إلى الجبهة. لقد سرنا الآن عائدين عبر ميدان معركة (السوم) المخرب. حتى أن مدينة (البرت) التي كانت نصف مهدمة في وقتنا، قد أزيلت الآن من الوجود تمامًا.

كان الألمان يتراجعون على امتداد خط الجبهة. باشرنا العمل عند (فاندهويل) فوق قناة (كمبري - سان كونتان) في اليوم الثالث من شهر تشرين الأول. كانت الجبهة برمتها تتحرك!.؟ وكنا في كل يوم، وثان أو ثالث، قد نقوم بالهجوم، ونتقدم مسافة أربعة أو خمسة أميال. وما أن اجتزنا (لي كاتو) حتى وصلنا إلى حافة (فوري دي مورمال) عند الجنوب الغربي من (موبييج).

كنت أتولى قيادة سرية الميدان السابعة، عندما قمنا بهجومنا الأخير في اليوم الرابع من شهر تشرين الثاني. لم تكن الحرب قد دمرت الريف هنا. وكانت تقطعه سياجات من نباتات، أو بساتين، بالإضافة إلى قرية (فونتين أو بوا) وكان المشاة قد انتشروا في حضر اتخذوها مواقع لهم، أو تحت السياجات.

حدد موعد الهجوم باليوم الرابع من شهر تشرين الثاني سنة 1918، وأن يتم على جبهة عريضة جدًا. ولكن المشكلة هي تجميع المشاة خلال الليلة السابقة، بحيث يستطيع الهجوم كله أن يمضي سوية قدمًا. ولهذا الغرض طُلب إلى زارعي الألغام، أن ينجزوا عملية إقامة خط طويل من أشرطة بيضاء تحت عتمة الليل أمام مواقعنا المتقدمة. وفي الوقت ذاته كان ينبغي لنا ، نقطع، وأن نؤشر ممرات الاقتراب،أن نمرق عبر السياجات والبساتين، لنساعد كل فوج مشاة على أن يجد طريقه إلى موقعه في الشريط الذي ينبغي القفز من فوقه. فكل هذه الأمور يجب القيام بها في جنح الظلام قبل أن يبدأ الهجوم الكبير، وذلك لكي نمنع العدو من رؤية أو سماع ما كان يحدث.

سار كل شيء سيرا حسنًا نتيجة جهودنا الدقيقة. فلقد تقدم المشاة عند الفجر، من الخط الذي وضعت فيه الأشرطة، ولقد حصل - لوقت قصير - تراشق بالقنابل، ونيران الرشاشات، ومن ثم اختفى العدو.

وابتداء من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، وما بعدها، كنا نتقدم في كل مكان، من دون أن نجابه بأية مقاومة. فلم نر الجيش الألماني مرة أخرى. وفي اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني طلب إلينا أن نتوقف بسرعة في المكان الذي كنا فيه، لأن الحرب قد انتهت!

وإذ كنت ضابطًا نظاميًا فقد تم استدعائي إلى (تشاتام) في شهر شباط سنة 1919، وذلك لغرض الاشتراك في دورة للهندسة تستمر سنة واحدة. كان عملنا في فرنسا بسيطًا، وكان يتم إنجازه بالرفوش، وأكياس الرمل، والأوتاد، والأسلاك، والعوامات، والجسور، وألواح قطن المدافع. أما في (تشاتام) فإننا كنا نتعلم أعمال البناء، وأعمال الربط والشد للهياكل والعارضات الفولاذية،

والهندسة الآلية بالشكل الذي كانت عليه في تلك الأيام. وكنا في الفترات التي تقع بين المحاضرات، نتجمع في ساحة الثكنة.

ركب أبي في (كولون) صهوة جواده مع مقر الجيش، باعتباره رئيس مهندسي جيش الاحتلال، لكنه ما لبث بعد أسابيع قليلة أن تقاعد من الجيش، واستأجر، هو أمي، بيتًا لهما ولمدة سنة في (بوكستيد) بمقاطعة (سوسكس). كان أبي آنذاك في الستين من عمره، وقد أنفق حياته مع الخيول. ومع ذلك فإن إنكلترا كانت قد تغيرت فلم يعد في مقدوره أن يحتفظ بأحد الخيول، ولكنه اشترى سيارة مستعملة قديمة!

وفي أحد الأيام، اصطحبني معه في سيارته التي كان يسوقها بنفسه إلى لندن، وما أن بلغنا التقاطع المزدحم لسيول وسائط النقل في زاوية (هايد بارك) حتى توقفت ماكنة السيارة. لم تكن السيارات في سنة 1919 تحرك بمفاتيح ذاتية للتحريك، فكان من اللازم أن تحرك السيارة بمقبض يدوي للتحريك. ولقد توليت أنا القيام بهذا الدور الأخير، فقفزت من السيارة، ووقفت أمامها، وحاولت أن أدير الماكنة لكي تتحرك، غير أن شيئا من هذا لم يحدث، وهنا خاطبني أبي يقول (وجه إليها لطمة جيدة!) بذلك كل جهدي في ذلك، لكن السيارة أبت أن تشتغل. توقف السير، وتجمع حشد من الناس من حولنا، وإذ ذاك وجه أحد رجال الشرطة اللطاف (وكانوا لطيفين ومساعدين في تلك الأيام) كلمات التشجيع. فرحت أحرك الماكنة، إلى أن آلمتني ذراعي، ولكن من دون جدوى. وأخيرًا دفع الحشد الواقع بالسيارة إلى خارج الطريق تحت صف من الأعمدة في داخل الحديقة، حيث بدأت تتحرك بطقطقة وضجيج مرتفع!

انتهت دورتي الإضافية في (تشاتام) في شهر حزيران سنة 1919. كان أبواي يمكثان آنذاك عند البحيرات الإيطالية، وقد طلبا إليّ أن أنضم إليهما

(حين كنت طفلاً ركبت البحر المتوسط من جزر موريشيسوس، ولكن في سنة 1919 أكون قد أمضيت أربع سنوات في أوحال الخنادق، ومن بعدها تسعة أشهر في ثكنات (برومبتون) في (تشاتام)).

وما أن وصلت إلى إيطاليا ببواخر شركة (سمبلون اكسبريس) حتى أخذت على حين غرة بجمال هذه البلاد. فمن (ميلانو) إلى (كومو) ومن ثم ركبت إحدى البواخر في بحيرة كومو الشهيرة. لقد بدا لي وكأنني في حلم من الجمال، والدفء، واللون. كان أبواي يقيمان في قرية صغيرة تدعى (سان ماميت) على بحيرة (لويغانو).

كان الفندق الصغير يقوم على شاطئ البحيرة، وكنا نتناول وجبات طعامنا على شرفة تحت كرمة متشابكة الأغصان، حيث يتلاطم ماء البحيرة بالجدار القائم بجانبنا. فاللون، والشمس الدافئة، والبحيرة، والجبال، كل هذه كانت تتمثل لي في هيئة رؤى لفردوسي أرضي، لم يكن لديّ أيُّ مفهوم عنه سابقًا.

- 5 -

الرحيل إلى بغداد

الآن انتهت دورة الهندسة بعد أن أمضيت السنة المقررة لها في تشاثام وغدوت مهيئًا للنقل. فما الذي سوف أفعله؟. إن السنة التي أمضيتها في تشاثام قد أمرضتني نتيجة حياتي في الثكنات. لا يوجد أي شيء يمكن عمله في إنكلترا. لست أنا زير نساء، وليست لدي حياة اجتماعية!

كان نقص مواهبي الاجتماعية قد سبب لي شيئًا من القلق، بالنسبة إلى (الدعوات) و(الولائم)! فقد كان الضباط الشباب يتوقعون أن تتم دعوتهم، لكي يزوروا أسر الضباط الكبار، وأن يتركوا لديها بطاقات الزيارة، التي قد تنجم عنها دعوتهم لتناول الشاي، وكانت مثل هذه الدعوات تقع في أوقات تناول الشاي، حين يكون الزوج، على أكثر احتمال،ما يزال في عمله، ولا توجد في البيت سوى سيداته!

ولكم حاولت، في أغلب الأيام، أن أمرَّ أمام أحد المنازل، وأن أكر راجعًا مرة أخرى، وأحاول أن أعين أية إشارات للحركة. فإذا ما شاهدت أحدًا خلال النوافذ، مضيت في سبيلي، وأجلت زيارتي إلى يوم آخر، إلى حين أن يسعفني الحظ السعيد لأن أجد كل إنسان في الخارج!

وإنني لأتذكر إحدى المناسبات، حين صممت أنا وضابط شاب آخر، أن نزور إحدى العوائل (ولنقل عنها) أنها عائلة العقيد (جنكنز) الذي كان يسكن

على مبعدة ميل، أو ما يعادل ذلك في (غلنغهام) على أننا ما كدنا نصل الشارع. لم نعد نتذكر، ما إذا كان رقم الدار هو (17) أم (27). ولذلك قررنا أن ندق جرس باب الدار رقم (17). وحين فتحت الخادمة الباب، أخذنا نتساءل عما إذا كانت (الليدي جنكنز) تسكن هناك.

ومع ذلك، ولشدة ارتباكنا، فتحت الليدي لنا الباب،وحيتنا بمودة، وطلبت إلينا أن ندخل،وقدمت لنا الشاي، ولقد أمضينا نتحدث لمدة نصف ساعة، من دون أن نعرف ما إذا كنا نتحدث إلى الليدي جنكنز أم لا!... أو حتى ما إذا كان زوج المرأة ضابطا أم لا. كان جهلنا بهذه الأمور، قد حدد حديثنا تمامًا، لأننا لم نود أن نكشف في الواقع، بأننا لسنا نعرف من تكون تلك المرأة.

ولكن لما كانت أمثال هذه الزيارات تؤلف كابوسًا بالنسبة إليّ، أنا الذي كنت في الثالثة والعشرين من عمري، فإنني أستطيع الآن أن أقيم النظام المعمول به في الوقت الحاضر، أي بعد ستين سنة من ذلك التاريخ، وهو التخلي عن الزيارات، وبطاقات الزيارة الاعتيادية. ففي الأيام القديمة، كان المرء إذا ما وصل ليسكن في منطقة جديدة، فإن الجيران يقبلون لزيارته خلال أيام قلائل، ويتركون له في بيته بطاقات زياراتهم التي تحمل أسماءهم وعناوينهم.

ومن المحتمل أن يقوم المرء على رد الزيارة خلال أسبوع أو أسبوعين،وأن يجد البعض منهم في الدار. وهكذا ففي خلال شهر واحد، يكون الساكن الجديد، قد عرف كل فرد في الضاحية.

أما في الوقت الحاضر، فإن في مستطاعك أن تعيش في منطقة جديدة من دون أن تعرف أي أحد فيها، أو أن يعرفك أي من الناس فيها. كم من المؤسسات القديمة التي ينظر الآن إليها بازدراء، كان لها في الواقع قصد عملي جدًا!

حين يوصد الله أحد الأبواب، فإنه يفتح أخرى غيرها. ففي مجرى العمليات العسكرية ضد الأتراك، في الحرب العالمية الأولى، كانت بريطانيا قد احتلت وديان نهري دجلة والفرات، التي تعرف الآن باسم العراق ولقد تم تسريح الجيوش منذ ذلك الوقت، ولم تبق منها سوى قوى الهياكل بقصد الحفاظ على الأمن.

ولقد جرت المفاوضات التي لم تكن لها نهاية للتوصل إلى تسوية السلم العالمي. في فرساي (فرساي VERSAILLES مدينة تقع جنوبي غربي باريس بحوالي ثلاثة وعشرين كيلو مترًا اشتهرت بقصورها وجنائنها ومتاحفها. وكانت مقر الملوك الفرنسيين. وفي فرساي هذه وقعت معاهدة حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا أيضًا). وانصب اهتمام هذه المفاوضات في الدرجة الأولى، على الدول الكبرى، فرنسا، وألمانيا، وروسيا الثورية، وبالخطط التي وضعها الرئيس (وودرو ولسون) (وودرو ولسون WOODROW WILSON رئيس الولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب العالمية الأولى وصاحب النقاط الأربع عشرة الشهيرة عن حق تقرير مصير الشعوب)، للانتدابات وعصبة الأمم. وكان مستقبل جزء واسع من الإمبراطورية العثمانية، قد أدرج في جدول مفاوضات (فرساي). وقد تعاظم قلق العراقيين لأن مستقبلهم بقي غير مقرر.

وفي ربيع سنة 1920 انفجرت الاضطرابات. كان معظم الضباط البريطانيين في القوات البريطانية الملغاة على استعداد لتسريحهم من الجيش.

ونتيجة لذلك دعت وزارة الحرب ثلثمائة من الضباط النظاميين للتطوع بالذهاب إلى العراق، فقدمت اسمي وتم قبوله.

في اللمحات المترددة التي لم يتم التفكير فيها، من الفكر المعتاد، كانت الإمبراطوريات تعتبر في بريطانيا، خلال تلك الأيام، من المؤسسات الخالدة.

ولكن القضية لم تكن على هذه الشاكلة في سنة 1920. فقد كان أبي يعتقد بأن واجب بريطانيا هو أن تحمي شعوبًا كثيرة في الإمبراطورية، وأن تساعدها وتشجعها.

كان الواجب في الغالب ثقيلاً وباهضًا، ويشتمل على انفصال طويل لأفراد كثير من العوائل. وكان مثل هذا الأمر، في تلك الأيام، يمثل العبء الحقيقي والمؤلم، للرجل الأبيض... وتلك عبارة كانت تعامل بازدراء في تلك الأيام الفظة!

غادرت إنكلترا فرحًا ممتلئ بالأمل، وملهمًا بذات المتعة في الخدمة التي كنت أحس بها في جبهة (السوم). أما أمي فإنها قد اكتأبت كثيرًا لذلك. من النادر أن يتحقق الشبان كيف أن الكبار يحتاجون إليهم حاجة قصوى. فالأطفال ضعفاء ومعقدون، وهم مضطرون إلى الاعتماد على الدعم القوي ممن هم أكبر منهم سنًا. لكنهم ما أن يكبروا ويحصلوا على الثقة الذاتية، حتى يصبحوا مسرورين، وذلك لتحررهم من السيطرة الأبوية، الأمر الذي لا بد له أن يقع.

غير أن الشباب ما أن يصبحوا أقوياء، كاملي النضج، حتى ينسوا، بأن آباءهم سوف يغدون أكثر ضعفًا. وسرعان ما تنقلب مراكزهم النسبية، فإذا بالكبار قد غدوا ضعافًا وقلقين، يحتاجون حاجة ماسة إلى المرح، والدعم، والمساعدة من الشبان. أما الأخيرون فإن من النادر لهم أن يقيموا مثل هذا التغيير الذي يحدث في الأدوار، ولا أن يقدِّروا بأن من واجبهم أن يحموا آباءهم، مثلما كان آباؤهم يحمونهم ذات مرة!

ومع ذلك فإن النقيض قد ينتج مآسيه، فالبنات والأولاد، قد يكرسون أنفسهم أحيانًا للعناية بآبائهم. ولكن حين يموت الكبار طبعًا، فإنهم يخلفون

وراءهم عانسًا، أو أعزب من متوسطي العمر ممن لم يعد في مقدورهم أن يتزوجوا لكبر سنهم، وإذ ذاك يكون مصيرهم بأن يقضوا بقية حياتهم في عزلة.

(إن الحل المثالي لذلك هو حل جغرافي. فالشباب ينبغي لهم أن يغادروا منازلهم، ويتزوجوا، لكن يجب أن يكون على مقربة كافية من كبارهم، لكي يصبحوا في الغالب، قادرين على زيارتهم، ومساعدتهم وتسليتهم).

لقد كانت هذه القضية مثيرة. كانت جزءًا من الثقل الذي كانت الإمبراطورية تنوء تحته وكان عبئًا ثقيلاً في ذلك الوقت. ففي الوقت الذي كان فيه الآباء يخدمون في بعض الأجزاء النائية من الإمبراطورية، كان أولادهم في المدارس في إنكلترا. وحين نما الجيل الجديد، دفعه التقليد العائلي إلى الخدمة في بعض الأقاليم الإمبراطورية البعيدة، ولربما في إحدى المناطق التي أمضى فيه آباؤهم خدمتهم.

غير أن الآباء في ذات الوقت كانوا قد بكروا وعادوا إلى إنكلترا، ليموتوا فيها، في الوقت الذي كان فيه أولادهم وبناتهم، قد غادروا موطنهم للخدمة فيما وراء البحار.

وصلت الباخرة إلى مالطا. حيث تسلمت هناك برقية وداع كئيبة من أمي. نزلنا من الباخرة في (بومباي)، وبعد انتظار طال مدة أسبوع، استقلينا باخرة نقلتنا إلى البصرة، ومن ثم غدونا نسير ببطء، وبصفة متواصلة، عبر ضفاف طينية في زورق بخاري متوجهين إلى بغداد. ولقد استمرت هذه الرحلة أسابيع أكثر مما تستمر الآن بضع ساعات.

(كان الوضع في العراق في سنة 1920 معقدًا. لقد انقضت سنتان، منذ أن انتهت الحرب العالمية الأولى، غير أن مؤتمرات الصلح المختلفة قد أخفقت في

اتخاذ أي قرار بشأن مستقبل العراق. كانت بريطانيا من ناحية، قد شجعت القومية العربية، تحت إمرة شريف مكة لكي تضمن بريطانيا تعاون القوات العربية بقيادة شريف مكة معها ضد الجيش العثماني في فلسطين وسوريا. وتنفيذًا لتعهداتها، أقامت بريطانيا الأمير فيصل بن شريف مكة، ملكًا على سوريا.

ومن ثم أقدم حلفاؤنا الفرنسيون على مهاجمة دمشق، فاحتلوها، وطردوا (فيصلاً) منها، حيث التجأ ضباطه إلى العراق، وشرعوا يستنكرون بشدة خيانة بريطانيا لفيصل. والحقيقة أن بريطانيا لم تخن فيصل بل اغتاضت من العمل الذي أقدمت عليه فرنسا في سوريا. غير أن بريطانيا لم تستطع أن تعلن الحرب على حليفتها، في الوقت الذي ما زالت فيه مفاوضات الصلح جارية في (فرساي). ونتيجة لذلك تحول كثير من البغداديين ضد بريطانيا، التي كان جيشها (وإن تم تقليصه كثيرًا) ما يزال قائمًا في العراق (*).

وفي الوقت ذاته تمت محاولة إنشاء (إدارة لأحد أقاليم العدو المحتلة) تتولى إدارة البلاد، وهي عملية اشتملت على جمع الضرائب، باشرت بريطانيا فور احتلالها العراق، إلى جني الثمار التي استهدفتها من وراء ذلك الاحتلال، ألا وهي الضرائب من الشعب العراقي، والتسلط عليه بالقوة، والمبادرة باستغلال ثرواته الطبيعية، وعلى الأخص النفطية منها. ففي الوقت الذي كان فيه الجيش البريطاني يزحف إلى الشرق والغرب والشمال لإكمال احتلال الأراضي العراقية، كانت فرق الجيولوجيين تسير مع الجيش الزاحف للتنقيب عن النفط في كل بقعة من بقاع العراق التي احتلها الجيش الإنكليزي. لم تكن السلطات

(*) هذا رأي المؤلف وأما الحقيقة فإن العرب لم يطالبوا إنكلترا بشن الحرب على فرنسا وإنما المبادرة بتحقيق العهود التي قطعتها لهم باستقلالهم وتحررهم، بعد اندحار الحكم التركي والذي كان للعرب الدور الكبير بمساندة إنكلترا آنذاك.

التركية قد نجحت أبدًا في عملية جباية الضرائب الاعتيادية من العشائر، وعلى الأخص في منطقة الفرات الأدنى المضطربة. ومع ذلك فإن إدارة أحد أقاليم العدو المحتلة، كانت أكثر منهجية، وكانت تملك القوة، ولم تكن مرتشية.

ومع كل ذلك، وفي الوقت ذاته، كان المزارعون في العراق يدركون ما حدث في مصر، في عهد (اللورد كرومر) (اللورد كرومر LORD CROMER) 1841- 1917 من عتاة الاستعمار البريطاني في الشرق. كان في الأصل من ضباط المدفعية وخدم في مجلس نائب ملك بريطانيا في الهند، ثم عين وكيلاً لبريطانيا وقنصلاً عامًا لها في القاهرة، وبقي يشغل هذا المنصب مدة أربع وعشرين سنة وهو يحكم مصر بيد من حديد، وقد تقاعد عن العمل في سنة 1907)، ففي الوقت الذي كانت فيه مصر، قد أفلست تحت حكم الخديوي إسماعيل في سنة 1879، فإنها أصبحت مرفهة وغنية (؟؟) بتأثير اللورد كرومر القنصل البريطاني العام !!! أما في العراق فإن كثيرًا من المزارعين قد تحققوا من هذا الأمر، لكن الطبقة المثقفة في المدن كانت أكثر وطنية!.

كانت (القومية) هي اللعنة التي استوردت من أوروبا. فقد كان يجري حكم الإمبراطورية العثمانية لعدة قرون، بخليط من الأصول العرقية، من دون تحزب أو تحيز. ولم تكن لدى عشائر الفرات أية أحاسيس قومية،إذ أن الأتراك، والبريطانيون، والعرب، يمثلون ذات الشيء بالنسبة إلى تلك العشائر. على أن تلك العشائر تريد أن تدفع ضرائب إلى أي إنسان. وحين أصبح الجيش البريطاني ضعيفًا، نتيجة لعملية التسريح العامة فيه، ثارت العشائر، وأبت أن تدفع الضرائب.

وفي الوقت ذاته برزت معارضة شعبية واسعة في بريطانيا، ضد استمرار وجود القوات البريطانية في العراق. ومع ذلك فقد كانت في بغداد، فئة من

الناس، مؤلفة من العراقيين والبريطانيين الذين كانوا يحبون العراق، من أمثال المس غرترودبل، والذين تأكدوا بأن الانسحاب البريطاني المباشر سوف يؤدي إلى الفوضى، وكذلك من أولئك الذين كانوا يدافعون عن استمرار الوجود البريطاني ليس بعيدًا عن الاستعمار، بل بعيدًا عن الحب الأصيل للعراق.

قد يكون مثل هذا الرأي خاطئًا أو غير خاطئ! فلو أن بريطانيا كانت قد جلت عن العراق فلسوف تنجم عن ذلك فعلاً، أعمال الفوضى وسفك الدماء، التي قد تستمر لسنين عديدة. غير أن بريطانيا لا يمكن أن تتهم بالجشع الاستعماري ومهما يكن فإن العراق لم يكن في الواقع قد عاش من دون شك، لأن الأتراك كانوا يطالبون بولايات الموصل وكردستان، وظلت مطالبتهم هذه متشددة لجملة من السنين، وكانت بريطانيا هي التي دافعت عن ملكية العراق للموصل وعلى هذا فإن التوتر في الواقع، قد جعل النزاع بشأن الموصل، يبدو لوقت ملموس، وكأن الحرب بين بريطانيا وتركيا، غدت وشيكة الوقوع.

وصلت إلى بغداد في شهر تشرين الأول سنة 1920، فأعطيت ليّ غرفة صغيرة في (السراي القديم) لكي أسكن بها، إلا أن تم نقلي. وبعد ظهر يوم أحد، رحت أتطلع إلى مياه نهر دجلة العريضة، وجلست لكي أقرر هدف حياتي، وشرعت أسجل تأملاتي على الورق، هذا نص ما كتبته.

تأملات في الوجود الإنساني:

(إنني أدون تمامًا هذه الملاحظات نتيجة الجدية التي أحس بأن نفسي تميل إلى طرح هذه الأسئلة، من أمثال: ما إذا ينبغي لي أن ألعب لعبة (البردج) أو (التنس)، أو أميل إلى فكرة أنني لست مثل بقية الآخرين في اهتماماتي ومسراتي، وتلك أمور إذا ما استطعت أن أصوغها بجدة في عقلي بأنها تؤلف الأهداف الضرورية لحياتي، فإنني لا أتوقع أن أجد أهمية مهما كان نوعها.

أنا أعتقد أن كل واحد منا على استعداد لأن يعترف، بأن هذه الأمور قد تكون من الأمور المجردة غير المهمة تمامًا، مع كل ذلك فإنها تكون ضرورية لوجهة النظر الثابتة التي تحدد النقاط الحيوية التي تكون ظاهرة أمامنا دوما، قبل أن نستطيع، أن نمعن النظر في المسائل اليومية الصغيرة، بصفة مغايرة.

سوف أبدًا أولاً بتقسيم حياتي إلى قسمين هما: (1) الإنجازات المادية الثابتة (2) الكمال الروحي لشخصيتي الخاصة بي، لأن هذه تكون في نظام مغاير من الأهمية، وأن من اليسير بحثها في هذا النظام. أولاً هناك سلوكي المادي. لقد تأثرت كثيرا بمقطع من (الفريد دي فني) (1797–1863) من زعماء الشعر الرومانسي في فرنسا، ومن أرق الشعراء الفرنسيين عبارة، أصدر ديوانه الأول حين بلغ الخامسة والعشرين من عمره، ثم أتبعه بعد أربع سنوات، بأول قصة نثرية له. استوطن إنكلترا فترة من الزمن، فتعلم الإنكليزية وأتقنها، وترجم عنها (عطيل) رائعة شكسبير إلى اللغة الفرنسية، توفي بباريس في اليوم السابع عشر من شهر أيلول سنة 1863، من أشهر قصائده (بيت الراعي BERGER LAMAISON DE) التي أهداها إلى عشيقته (إيفا) وهي مدام درنال، أما أشهر قصصه النثرية فهي قصته (لوريت LORETE)، يتحسر فيها على حياته التي أنفقتها في الجيش، حيث يقول (لقد وجدت نفسي بأنني قد أرغمت على ممارسة حياة نشطة بصفة خالصة، وعلى نزعة تأملية خالصة). وبذلك وجدت أنا بأن النزعة النشطة والتأملية، تكون قائمة بصفة قوية في شخصيتي، ولذلك كنت في العطلات الهادئة، أو حين أكون وحيدًا في الأماسي، أشعر بذات الاشمئزاز من الجيش، مثلما كان (دي فني) يفعل ذلك، في حين أصبح، أثناء عملي اليومي، شديد الاهتمام حتى بأصغر التفصيلات العملية، إلى درجة أنني كنت أنسى كل شيء في طاقة العمل التي لا تنضب، فاندفع إلى العمل، وأكمل كل شيء).

لقد أدى هذان الجانبان بي، في أوقات مختلفة، مطمحين منفصلين أولهما مطمح العسكري المتميز، وثانيهما مطمح الإنسان الذي يرغب في الهدوء، وفي التقاعد، لكي يدرس، ويقرأ، كي يستطع، في يوم من الأيام، أن يضع كتابًا عظيمًا، تلك الوسائل التي تجلب النور، والفضيلة للألوف من الأحياء.

إنني أجلس الآن لأول مرة لكي أزن منافع أحد المطمحين إزاء الآخر، وأن أحدد لكل منهما، مكانه النسبي، فبالنسبة إلى الهدف الأدبي:

(أ) لقد كنت أفزع من الوساوس التي تثور في الضمير، بالنظر إلى صحة الرأي القائل بأن العسكري ملزم بأن يطيع الأوامر. ومع أن ذهني ما يزال، حتى مع ذلك جليًا تمامًا، فإنني أميل إلى الاعتقاد بأنني في حالة إذا ما أمرت أن أقوم بشيء يخالف فكرتي في صوابه، فإن من واجبي أن أستقيل.

(ب) إذا ما تم الاعتراف بصواب الحرب، فإنه يجب الاعتراف أيضًا بأن العسكريين يكونون نافعين للعنصر البشري، فكما أن الرجال يمكن أن يصبحوا عسكريين صالحين ليس إلا، عن طريق العمل، فإن الحياة التي يمضيها العسكريون في تطبيق الحرب، يجب الاعتراف بأنها نافعة للعنصر البشري. ومع ذلك فإن أحد الكتب يمتلك المزيد من القوة لإغراء الناس الآخرين، ويحدث ذلك بصفة مباشرة، عن طريق التحدث عن نفسه هو!.

أما الأمور المناقضة للهدف الأدبي فهي: (أ) لم تكن لدي أية فكرة عما إذا كنت أمتلك المقدرة الأدبية، وما إذا كان ما أكتبه سوف يصبح مقروءًا، وهذا أمر يتعارض، نوعًا ما، مع الاعتبار الذي أشرت إليه في الفقرة (ب) أعلاه. وعند موازنة ما مر أعلاه، استطعت أن أستنتج ما يلي:

1- إنني كنت لحظتئذٍ أبعد من أن أكون مستعدًا حتى الآن، لأن أكتب أي شيء، وليست لدي وسائل للعيش، وإنه ينبغي لي أن أظل عسكريًا، إلا إذا كان

هناك دافع قوي من الوعي، يرغمني، في وقت ما أو في غيره، على الاستقالة.

2- في الوقت الذي أكون فيه عسكريا، يجب أن أكون كفؤًا تمامًا، مكرسًا نفسي لواجبي في المهنة التي لن يستطيع أحد أن يتوقع بأن الصلاة في الكنيسة، قد تكون أكثر تكريمًا.

3- يجب عليّ ولسنين كثيرة. أن أكرس كل وقتي الذي أستطيع أن أوفره من الفقرة (2) لتزويد فكري بآراء عامة واسعة، ستكون ضرورية لأية صفة من صفات التأليف.

4- لا يمكن الاعتراف بأي شيء في حياتي لا يفضي إلى الفقرتين، الثانية أو الثالثة، أو إلى التقدم الروحي الذي تمت الإشارة إليه في البداية، والذي يعتبر أول واجب في حياة أي فرد.

السراي بغداد
يوم الأحد الرابع والعشرون من شهر تشرين الأول سنة 1920

كانت هذه المذكرة النادرة قد ألقيت في واحد من صناديق عديدة من الأوراق التي ألقت بشباكها حول حياتي، ولم أستطع أن أعثر عليها إلا في سنة 1979، أي بعد تسع وخمسين سنة من كتابتها. وقد تبدو هذه الأوراق أقل تظاهرًا بالتقوى، وذلك لأن الشبان عرضة لأن يجعلوا أنفسهم أكثر جدية، ولكن تلك الأوراق كانت قد دونت لكي تراها عيناي وحدهما بالطبع.

بعد أيام قلائل نقلت إلى الواجب، وكانت السنون الست والثلاثون القادمة، قد أنفقت في واجبات نشطة وحادة، ومعظمها خارج نطاق السكن. ففي هذه السنين كلها، نسيت بالمرة أفكاري الأول عن الكتابة والتأليف. وحين

اقترح علي (جون اتنبرو) مدير شركة (هودر وستوتن)، بعد الحرب العالمية الثانية، بأن أضع أحد الكتب، كان هذا العرض قد وصل إلي في صفة بدعة حديثة تامة.

حين وصلت إلى بغداد، كانت الثورة العشائرية (لم تكن الثورة العراقية الكبرى في سنة 1920 ثورة عشائرية حسب، بل شاركت فيها كل فصائل الشعب العراقي، وكان أبناء المدن وعلى الأخص المثقفون والضباط هم الذين أججوا الروح الوطنية التي انبثقت الثورة عنها، وتمولوا قيادة الحركات العسكرية في كثير من المناطق التي قامت الثورة في أرجائها)، قد تم القضاء عليها، غير أن فيالق مختلفة من الجيش البريطاني كانت تتحرك في أرجاء القطر، لكي ترفع العلم البريطاني فيها، ولتجبي الغرامات بالبنادق.

ينبع نهر ديالي من جبال (زواغروس) في إيران، ويتدفق خلال مضيق في جبل (حمرين). وقد حفرت، عند نقطة منبعه، قنوات للري بقصد سحب الماء منه لإرواء الحاصلات النباتية في السهل الواسع الذي يمتد إلى نهر دجلة. كانت النواظم عند رؤوس القنوات قد دمرت، وأعيد بناؤها من قبل دائرة الري. وكان ينهض بإصلاح هذه النواظم أحد أفواج الجيش الهندي، هو فوج المشاة التاسع والتسعين.

تم إرسالي إلى هناك بصفتي ضابط الهندسة الوحيد الموجود، لبناء معبر على نهر ديالي، وتشغيله، لأن العمل كان قائمًا على جانبي النهر. أقمت أول الأمر سلكًا هوائيًا، فأرسيته على الكهوف الواقعة في أي من جانبي المضيق الذي ينساب الماء خلاله من الجبال. ولقد تم استخدم صندوق، أشبه بالسلة التي تعلق تحت المنطاد، والتي يستطيع المسافرون بواسطتها، أن ينتقلوا عبر المضيق.

ومع ذلك، وحيث أن عددًا من العاملين كان ينبغي لهم أن يعبروا المضيق كل مساء وصباح، فقد تطلب الأمر توفير وسائل أسرع للنقل.

وطبقًا لذلك أقمت سلكًا فولاذيًا عبر مستوى الماء، وربط زورق فوق كرة، فغدا يمكن العبور خلاله. وقد بدا بأن هذه الواسطة كانت كاملة تمامًا.

وفي إحدى الليالي تم إيقاظنا في الساعات الأولى، على صوت ازدياد الخرير، وإذ تلصصنا من الخيمة، رأينا بأن النهر، قد تحول على حين غرة إلى تيار فائر. ولما كان مخيمنا يقوم على أرض مرتفعة فقد عدنا إلى مراقدنا. كان النهر يتدفق من جبال زاغروس على بعد أقل من مائة ميل، وكانت إحدى الزوابع المتحركة فوق الجبال، توشك أن تسبب ارتفاعه فجأة، وتدفقه وهو يهدر في صفة طوفان،ومع ذلك فلم تكن لدينا أية معرفة بهذه الظروف المحلية.

في صباح اليوم الثاني كان معبري يؤدي عمله كالعادة، ولكن الرجل الذي كان يدير العبر، قد فزع من التيار الفائر، ففقد أعصابه، وقفز من المعبر عائدًا إلى الشاطئ. وفي لحظة من الارتباك سقط أحد الحمالين الهنود على المعبر. كنت أجلس في خيمتنا، حين سمعت على حين غرة، جوقة من الصيحات والصرخات، وما أن أسرعت بالخروج من الخيمة راكضًا، حتى قيل لي بأن أحد الهنود قد سقط من المعبر، وقد جرفه التيار.

ومن دون أية لحظة للتفكير، قفزت إلى النهر، وإن كنت لم أرَ الرجل الذي جرفه الماء، ثم غطست على الفور تحت الماء. كانت السباحة مستحيلة، وكنت أرى ضفة النهر وكأنها تجري مسرعة، لكني نجحت في إخراج رأسي فوق الماء، كي أستطيع أن أتنفس بين آونة وأخرى. ولما كان الماء يجري من المضيق إلى السهل، فإنه كان يجري بهدوء أكثر، وبذلك استطعت أن أبقي رأسي خارج الماء.

وإلى الأمام مني شاهدت إحدى الجزر التي غطتها الشجيرات وسط النهر، فسبحت نحوها واستطعت أن أمسك بأحد الأغصان حين قذفني التيار إليها، فتشبثت بها، ثم استقليت على تلك الجزيرة من شدة التعب، وكان من حسن الحظ أن رآني أحد الأعراب، فأقبل لإنقاذي سابحًا على ظهر أحد الجربان. وبهذه المساعدة، وباستعمال الجراب أداة للسباحة، نجحت في الوصول إلى الشاطئ، بعد أن قذف بي التيار إلى مسافة ما. أما الحمال الهندي الذي سقط في النهر، فلم نسمع عنه شيئًا أبدًا بعد ذلك، وما أن رأى الأعرابي بأنني قد أنقذت، حتى اختفى، ولم أستطع حتى أن أشكره.

في أوائل سنة 1921 نقلت إلى (الرمادي) على نهر الفرات، حيث كانت مهمتي تنصب على صيانة جسر طواف فوق النهر، يقوم على زوارق مصنوعة من القصب المطلي بالقار. لم تكن توجد في هذا الموقع لا قوات بريطانية ولا هندية، وكانت الفرقة المكلفة بالحفاظ على الجسر، من العرب المحليين من عشائر الدليم.

وإذ كنت أتحرك بصفة رئيسة ببواعث العلاقات الإنسانية، فإنني سرعان ما أصبحت صديقًا لأفراد فرقة الجسر الذين كانوا يعملون تحت إمرتي. ولقد قام هؤلاء، ما هو شأن كل العشائر العربية، على الفور بدعوتي إلى تناول الطعام في بيوتهم. كانت عشائر الدليم في معظمها تتألف من الزراع على امتداد ضفاف الفرات، وهم يروون حقول القمح، والشعير وبساتين النخيل بواسطة (الكرود) أو روافع الماء التي تحركها الخيول. ومع كل ذلك فإنهم لم يتوطنوا إلا مؤخرا، وكانوا آنذاك ما يزالون يسكنون الخيام السود، المصنوعة من شعر الماعز.

وإذ كنت أعمل وحيدًا بين أفراد العشائر العربية، فقد غدوت على الفور، أليفًا لهم وحفظت بعض الكلمات العربية. كانت صداقتي مقتصرة على عوائل

العمال الذين يعملون تحت إمرتي. لقد كان الدليم يؤلفون قبيلة كبيرة، غير أنني لم ألتق بأي من شيوخها، كما أنني بالطبع لم أر أية امرأة، أو أتحدث إلى امرأة. ومع أن الرجال والنساء كانوا يختلطون بأقاربهم بكل حرية، إلا أنه حين يكون أحد الأغراب ضيفًا لديهم، تظل النساء خلف الستار الذي يقسم الخيمة إلى قسمين.

في سنة 1921 دعا (ونستون تشرتشل) على عقد مؤتمر في القاهرة، لبحث السياسة الخاصة بالشرق الأوسط. وفي ذلك المؤتمر تم اتخاذ القرار الشجاع، بان يستبدل الجيش، بالقوة الجوية البريطانية، لصيانة الأمن في العراق، وكانت نتيجة ذلك أن نقلت إلى بغداد، وعهدت إلي مهمة بناء أكواخ ومآوي لإحدى قواعد القوة الجوية البريطانية، خارج بغداد تمامًا، وفي مكان يدعى (الهنيدي) وهي كلمة غريبة حقا، لأنها تعني (الهندي الصغير).

كان كل الصناع والكتبة الذين يؤلفون قوة العمل لدي، كلهم من الهنود، بما في ذلك نسبة كبيرة من السيخ. كان رئيس الكتبة من سكان مستعمرة (غوا) وصاحب اسم أرستقراطي برتغالي طويل. غير أن عمالي كانوا من العرب، وكانت أغلبيتهم من الدليم الذين أصبحت معروفًا لديهم، ممن يسكنون على مقربة من (الرمادي). وكان الكثير منهم قد تبعوني من هناك. غير أنه كان يستحيل تجنب استخدام العمال الذين يقطنون في أنحاء دجلة إلى الأسفل من بغداد. ولذلك كانت تحدث على الدوام خصومات شديدة بين العمال المنتمين إلى عشائر الدليم، وأولئك القادمين من أسافل نهر دجلة.

وكما هو معتاد، فلقد أحببت صناعي الهنود وعمالي العرب. وفي أحد الأيام حدث أن نصب فريق من الغجر خيامهم في جوار مخيم العمل الذي كنا نقيم فيه، وبدأت الفتيات الغجريات، يرقصن أمام العمال، فلم يتردد البعض

من أولئك العمال عن تقبيل الفتيات الغجريات وممارسة بعض الملاذ، حيث اعتادت أولئك الغجريات تلك المعاملة دون ريب لأنهن كن في الواقع يحصلن على عيشهن من ورائها.

غير أن موقفي البريء والفروسي تجاه النساء، جعلني استهجن مثل ذلك السلوك، ولذلك جمعت كل عمالي العرب، وأمرتهم جميعًا بأن ينزعوا (أعقلتهم) عن رؤوسهم، وهي عبارة عن دوائر صغيرة من حبال يحفظون بها كوفياتهم على رؤوسهم. لقد كان العقال يشير إلى الرجولة، ولذلك فالنساء لا تلبسه، ولم ألبث أن جمعت تلك الأعقلة كلها فحرقتها.

لقد قصدت من وراء هذه العملية أن أعبر عن تفكيري بأن أولئك العمال لم يكونوا رجالاً، ولقد تعجب أولئك العمال الذين لم يجدوا ضررًا في تعاملهم مع الغجريات، مما قمت به واعتبروني مجرد (مجنون صغير!).

وعلى الرغم من سوء الفهم التافه هذا، فإنني برهنت على هويتي مع عمالي تمامًا لقد كانت شرطة بغداد تعتقد أن وجود مخيم كبير للعمل، لابد وأن يضم بعض اللصوص أو المجرمين، ولذلك بعثت بجاسوس منها إلى خيام العمال. ولقد نقل إلي العمال نبأ حضور ذلك الجاسوس، فاستبد بي الغضب الشديد ، وإذ ذاك امتطيت مهري فأخرجت ذلك الجاسوس من المخيم بطريقة مزرية نوعًا ما.

وفي ذات الوقت ادعت القوة الجوية البريطانية بأنها هي التي تتحمل المسؤولية عن الأمن العام في العراق، ولذلك تحركت عدة رفوف من تلك القوة إلى مخيمي الجديد في الهنيدي. كانت العشائر في العراق ما تزال خارج نطاق السيطرة عليها بصفة واسعة. وكانت النظرية تقول بأنه حيثما تنفجر أعمال

الإخلال بالأمن في أية منطقة،وعلى بعد مئات من الأميال كما هو متوقع، فإن الطائرة سوف تقلع من (الهنيدي) وتقصف المعادين... وبذلك تنتهي أعمال الإخلال بالأمن، في الفترة ما بين تناول الفطور والغداء.

على أنه في حالة نشوب مثل تلك الأعمال، فإن الطائرات سوف تصل فوق المنطقة المضطربة بأسرع ما يكون، ولكن حين تفعل ذلك فإن ملاحيها لن يكونوا قادرين على تشخيص الهدف. ولقد حدث في جملة من المصادفات، إن قصفت الطائرات بطريق الخطأ، أكثر الموالين للحكومة. ولذلك كانت قضية الصعوبة التي يجابهها ملاحو القوة الجوية البريطانية في تشخيص أهدافهم، تهدد بإلغاء نظرية (السيطرة الجوية) برمتها. (قد يكون من المناسب أن يشار هنا إلى أن القنابل التي ألقيت في سنة 1920، كانت ذات تأثير ضئيل ومن النوع المعروف باسم (كوبر) والتي أعتقد بأنها لم تكن تزن أكثر من خمسة إلى ستة باونات. وكان معدل تأثير القصف على إحدى القرى، محدودًا اعتياديًا، بجرح أحد الأشخاص، أو ربما قتل بقرة أو شيء من هذا القبيل).

كان الحل الذي اتخذه مقر القوة الجوية البريطانية، ينطوي على تعيين ضباط في المناطق الريفية، فإذا ما حدثت اضطرابات هناك. فإن هذا الضابط، يستطيع أن يذهب إلى معسكر الهنيدي، ويقود الطائرة التي ترسل لمهاجمة المتمردين، والقضاء عليهم، ولما كنت قد حصلت قبلاً على الشهرة بإلمامي باللغة العربية، فقد عرض علي مقر القوة الجوية البريطانية أن أتولى العمل في واحد من هذه المراكز.

كان الجيش البريطاني قد بدا بمغادرة العراق، وكان ينبغي لي باعتباري عسكريًا فيه، أن أغادر معه. غير أنني ما أن وقعت في حب العراق، غدوت

على استعداد لتقبل المركز الذي أعطي لي. ودعت وداعًا عميقًا، هيأة ضباطي من الهنود الذين بعثوا إلي برسالة مشتركة، يبدو لي فيها تمنياتهم الطيبة، وتهنئتهم. لقد كانوا أناسًا ظرفاء، وكنت أستطيع أن أتحدث معهم باللغة الهندستانية المعمول بها آنذاك.

حين ينهمك الإنسان في العمل، فإن أحدًا لا يمكن أن يتكهن في تحليل البواعث التي تحرك إنسانًا ما. ومنذ أن تقاعدت في إنكلترا، أخذت أفكر في العوامل النفسية التي لونت حياتي. ويبدو لي الآن، بأنني قد أصبت باعثًا لا سبيل إلى مقاومته، هو أن أشخص نفسي مع المجتمع الذي كنت أعمل بين أفراده، وكان هذا الباعث قد جذبني جذباً وثيقًا إلى رجالي من زراعي الألغام، أو سائقي وسائط النقل في فرنسا، أو إلى فرقة الجسر التي كانت تعمل تحت إمرتي في (الرمادي)، أو إلى صنّاعي من الهنود، وعُمّالي من العرب في معسكر الهنيدي.

لا تستطيع أن تساعد الناس إلا بأن تصبح واحدًا منهم، تشاركهم بؤسهم، وفقرهم، ومسراتهم، وأحزانهم. لقد كان المسيح يفعل ذلك. إنك لا تستطيع أن تساعد الناس وأنت بعيد عنهم. لقد كانت الأم (تريزا) ترى المسيح في كل إنسان كانت تلتقي معه، وحين كانت تحيي الناس بابتسامة، فإنها كانت تبتسم لله.

وربما يحدث في هذه الأيام، وقد أصبحت شيخًا، أن ألخص هذا الميل، بأنه يمثل الواجب، في أن نحب كل إنسان، غير أنني لا أستطيع في هذه الأيام أن أحلل هذا الميل. فالشيء الذي كان يحدث هو أنني ما أن ألتقي بجماعة جديدة من الناس، حتى أغرم بهم سريعًا. غير أن هذا كان يصدق على الدوام، حسب المقياس الذي نحدده نحن، والذي يقاس لنا مرة أخرى. فحين أحببت الجماعة التي كنت أعمل معها، فإن أفرادها قد ردوا لي مودتي بصفة ذاتية.

على هذه الشاكلة انتهى مسلكي باعتباري مهندسًا، حين الانتهاء من بناء معسكر القوة الجوية البريطانية، ومهابط الطائرات في الهنيدي، وكنت آنذاك في الرابعة والعشرين من عمري، وإذا ما استعملت المصطلحات الإيرلندية التي كانت أمي تستعملها، فإن حياتي الهندسية، كانت (قصيرة وحلوة) أشبه (بركضة حمار!!).

قد يكون من المناسب أن أشير في هذه النقطة إلى أن نظام الانتداب، لم يكن كما كان يشار إليه دائمًا، طريقة تنكرية للحصول على المزيد من المستعمرات أو استغلال البلدان الأخرى، (هذا قول مغاير للواقع. ذلك لو أن الدول التي فرضت الانتداب أو الاستعمار الاستيطاني وما شابههما، على البلدان الأخرى، لم تكن تبغي المزيد من المستعمرات والاستغلال، كما يزعم المؤلف ذلك، لبادرت تلك الدول التي طبقت أنظمة الانتداب، إلى الاستجابة إلى مطالب البلدان المنتدب عليها بالاستقلال وممارسة السيادة الوطنية، ولما بقيت متمسكة بأساليبها الاستعمارية الاستغلالية إلى أن أجبرتها الثورات التي قامت في الأقطار المنتدب عليها على التسليم بهذه الحقوق، والتخلي عن الاستغلال والتسلط). لقد سن هذا النظام في الأصل، على يد (وودرو ولسون) رئيس جمهوريات الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية الحرب العالمية الأولى، وكان المقصود منه أن يكون نظامًا مثاليًا خالصًا. فلغرض مساعدة البلدان المتخلفة، كما نقول، في إنشاء إدارات غربية متمدنة، قيل في حينه أن الانتداب كان واجبًا مقدسًا قد ألقي على عاتق الأمم الكبرى.

وفي ضوء الواقع كانت كل خدماتي في الشرق الأوسط، قد جرت في البلدان التي أنشئت الحكومات فيها في ظل الانتدابات، والتي غدت جميعها

مستقلة منذ أمد بعيد. ففي تجربتي أن أمثال الضباط البريطانيين الذين خدموا في العراق والأردن، قد تم تكريسهم لتلك البلدان، وأنهم قد فعلوا كل ما في قدرتهم لإنشاء إدارات كانت معرضة للفساد، وذات كفاءة هناك.

إن بريطانيا لم تستغل أيًا من البلدين بل على النقيض من كل ذلك، أن الأردن كانت تتلقى منحة جوهرية في صفة معونة من الخزينة البريطانية، ما دامت الأردن تحت الانتداب. وبقدر ما يتعلق الأمر بمثل هذه البلدان، ففي نظري كان الحديث عن الاستعمار حديثًا خاطئًا. قد يكون الغض عن القيمة الذاتية، إحدى الصفات البريطانية، غير أنها على الأقل لم تكن قابلة لأن تفضل العجرفة التي ساء وصفها.

-6-

خيمة الحكومة البيضاء

على ضوء مهارتي في استخدام اللغة العربية، والتي اشتهرت بها من قبل فقد تم تعييني ضابط استخبارات تابع للقوة الجوية البريطانية وكنت أحمل لقب ضابط مهمات خاصة، وقد وضعت منطقة الفرات بمثابة (إبرشية) لي. كان يندر وجود أي عمل من أعمال الدائرة فيما كنت أمارسه، وإن كنت أقدم في كل شهر تقريرًا إلى مقر القوة الجوية سواء كانت واجباتي تستلزم مني أن أعرف كل قبيلة وكل قرية تقع في منطقتي، كيما أستطيع في حالة حدوث عمليات، أن أرشد الطائرات إلى أهدافها. كانت الطائرات في تلك الأيام تطير ببطء وعلى ارتفاع حوالي ألفي قدم، وكان هيكل الطائرة مفتوحًا ولذلك كان يمكن اختيار الأهداف بالميلان فوق الجانب.

كانت هناك مسرة إضافية بالنسبة لي في هذا العمل. ذلك لأن كل جولاتي تقريبًا كانت تتم بامتطاء الخيول، في حين كانت تتم بواسطة القوارب في الأهوار الواقعة في منطقة الفرات الأدنى. لا وجود للقومية بين القبائل. لقد كنت في كل مكان أعامل من لدن الأعراب، وكأنني واحدًا منهم أنفسهم وبهذه الوسيلة استطعت أن أغوص إلى الأعماق.

انتقلت في شتاء سنة 1922-1923 لفترة قصيرة إلى الموصل حين كان خطر الحرب مع تركيا يبدو وشيك الوقوع. ولقد أرغمت على أن أطير

ساعات طويلة في طائرة مقاتلة من طراز (برستول) فوق جبال كردستان المنخفضة. فما أن تبدأ الماكنة تقرقع وتغمغم كما كان يحدث ذلك في الغالب، فإن أحدًا لا يستطيع أن ينظر إلى الجانب في شيء من الارتعاش، وهو يعجب مما إذا كان مستطاعًا أن يهبط هبوطًا اضطراريًا ، وهذا أمر كان يحدث في كل طائرة من طائرات صناعة العشرينات.

ومع ذلك فإن خطر الحرب مع تركيا بدأ في صيف 1923، وكأنه قد تقلص ولذلك عدت إلى الناصرية في الفرات الأدنى. وعلى بعد ستين ميلاً شمالي الناصرية وفوق ضفة نهر الفرات أيضًا تقوم مدينة السماوة التي كانت تؤلف سوقًا صغيرة وقد احتلت الريف المحيط بها مجموعة قبلية عرفت باسم (بني حجيم) كانت خارج السيطرة.

لقد وقعت في هذا الموقع حادثة شاذة. ذلك لأن سكة الحديد الممتدة من بغداد إلى البصرة تمتد لمسافة خمسة عشرة ميلاً عبر أراضي بني حجيم القبلية، والتي لم تكن الحكومة تمارس عليها أي نوع من أنواع السلطة. وعلى هذا الأساس قامت حالة من التوطن الضمني والسماح بالسكن ضمنيًا بين الحكومة والعشائر. ذلك أن الحكومة قد أحجمت عن التدخل في شؤون العشائر أو عن جباية الضرائب. كما أن العشائر مقابل ذلك لم تتدخل بأمور سكة الحديد.

ومهما يكن ليس في مقدور أية إدارة ذاتية محترمة تستطيع أن تتقبل مثل هذا الوضع بصفة دائمة. وعلى هذا تقرر بأن بني حجيم يجب أن يخضعوا لسيطرة الحكومة. كانت المنطقة واسعة جدًا يمكن قصفها من قبل الطائرات برمتها في آن واحد، ولذلك تقرر أن يتخذ مثال من عشيرتين هما (البركات) والصفران (هاتان العشيرتان فرعان من فروع بن حجيم وقد تمردتا في وقت من الأوقات على

الحكومة العراقية فأنذرتهما بوجوب الخلود في السكينة والإقلاع عن الأعمال التخريبية فلم ترتدعا، فاضطرت الحكومة إلى استعمال القوة ضدهما واستعانت بطائرات القوة الجوية البريطانية في قصف مواطنهما فثاب رؤساهما إلى رشدهم، وأخلدوا إلى الهدوء). ولكن لا توجد خرائط تبين الأماكن التي تسكن فيها هذه العشائر، ولهذا طلب لي بأن أعد واحدة من تلك الخرائط.

ما أن بلغت السماوة ممتطيًا صهوة جوادي حتى أنبأني القائم مقام بأنه يستحيل على ممثل الحكومة أن يزور العشائر التي كانت في ثورة. واعتمادًا على شهامة العرب وطرح عباءة عربية على بدلتي العسكرية، ركبت مع اثنين من الأعراب إلى قرية شيخ عشيرة البركات.

ترجلنا عن خيولنا خارج المضيف ثم دخلنا إليه وألقينا التحية، فرد الحاضرون في المضيف على تحيتنا. وبذلك فهمنا بأننا كنا في أمان ولذلك نزعت عباءتي العربية. ولقد دهش أفراد العشائر حين شاهدوا ضابطًا بريطانيًا ببزته العسكرية. وما أن أصبحنا في المضيف آمنين حتى أخذنا نستمتع بحديث ودي وطويل مع أفراد العشائر.

لقد أدى ذلك الوضع إلى قيام علاقات ودية حيث سمح لي بأن أزور كل مشارب وقرى عشيرتي البكرات والصفران وأن أستمتع في كل مكان بالكرم والضيافة، وفي الوقت ذاته أكملت رسم الخارطة التي سوف تساعد القوة الجوية البريطانية على قصف تلك العشيرتين. ونظرًا لانعدام صداقتهم للحكومة فقد شعرت بأني مضطر إلى أن أنبأهم بذلك.

كانت خطة الحكومة تنطوي على استدعاء اثنين من شيوخ العشيرتين للحضور إلى السماوة، وإذا لم يفعلا ذلك فلسوف يجري قصف عشائرهما. فإذا

ما استطعت أن أقنع الشيوخ من دون قصف فإن ذلك سيكون أمرًا حسنًا جدًا. وهكذا فإنني ما أن أكملت رسم الخارطة حتى أوضحت لأفراد العشائر بأنني ذاهب إلى بغداد وأن الشيوخ سوف يتم استدعاؤهم، فإذا لم يحضروا فلسوف يتم قصفهم، ولسوف أقود أنا الطائرات القاصفة، وإذ ذاك قالوا بأنهم قد فهموا الموضوع تمام الفهم.

وحين استدعي الشيوخ لم يحضروا، وإذ ذاك قدت الطائرات القاصفة على الفور، وكان كل ملاح فيها يحتفظ بنسخة من الخريطة التي أعددتها وما أن سمع أفراد العشائر هدير الطائرات وقد عرفوا مني قبلاً ما سوف يقع، حتى هربوا جميعًا من قراهم واختفوا في قنوات الري. ولم يقتل أحد سوى رجل مسن. ونتيجة لذلك القصف كان كل شيوخ تحالف بني حجيم (وليس البركات والصفران حسب) قد حضروا إلى الحكومة ووضعت المنطقة برمتها تحت سيطرة الحكومة ومن دون إراقة للدماء.

والذي أتذكره أن الحكومة في تلك القضية قد ارتكبت ذات الخطأ الذي ارتكبته الدول الحليفة في معاهدة فرساي. ذلك أنها ما أن دحرت أعداءها حتى حاولت أن تفرض عليهم الشروط التي تحول دون انتفاضتهم مرة أخرى، وطبقًا لذلك فقد أمرت عشيرتا البركات و(الصفران) بأن تدفع غرامة للحكومة تتألف من جملة مئات من البنادق.

بعد يومين من ذلك الحادث كانت العشيرتان قد اختفتا تمامًا وتناثرت بين العشائر المجاورة. لم يتم جمع الغرامة، وهكذا انتهت هذه العملية التي انطوت على النجاح الباهر بملاحظة غير مرضية. ففي نظري يبدو بأن الأسلوب المطلوب هو (أن تقاتل وتربح)، إذا كان يجب عليك أن تفعل ذلك. ولكن حين

تربح القضية يجب عليك أن تسامح الناس، وأن تجعل من أعدائك أصدقاء وثيقين لك. لقد كنت أود أن تُقيم الحكومة وليمة للبركات والصفران، وبذلك تبرهن لهما بأنها صديقتهما الحقيقية الأكيدة. غير أن السلطات كانت تفكر تفكيرًا مغايرًا لذلك تمامًا.

تم القضاء على تمرد العشائر ولم تعمد إلى التمرد ضد الحكومة مرة أخرى. ولكن الذي أراه أن فرصة تحويل تلك العشائر إلى أن تصبح من أكثر الرعايا إطاعة وتكريسًا للحكومة قد ضاعت. فالواقع أن مثل هذه الفكرة لم تكن قد دخلت قط في رأس أي إنسان!

أوصت قيادة القوة الجوية البريطانية بتكريمي غير أن الحكومة البريطانية التي كانت تخشى طرح التساؤلات في البرلمان، لم تكن تود أن يكون معروفًا وجود عمليات عسكرية في العراق، ونتيجة لذلك كوفئت بمدالية الملك لرجال الشرطة، والتي كانت تمنح عادة لرجال الشرطة الذين يوجهون لاعتقال المجرمين الخطرين!

كانت المنطقة التي كنت مسؤولاً عنها تمتد إلى حوالي خمسمائة ميل حتى نهر الفرات، من الحدود السورية إلى مقربة من البصرة على سبيل الحصر، وربما إلى حوالي ثلاثين أو أربعين ميلاً على كل جانب من النهر. أما إلى الغرب الجنوبي فكانت الصحراء تمتد إلى نحو مائتي ميل، من حدود ما كانت تعرف باسم بلاد نجد آنذاك، أي المملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر.

لم أكن أنا الضابط الوحيد ذو المهمة الخاصة في منطقة الفرات. ففي أوقات مختلف تم تعيين الآخرين هناك حين كانت المنطقة واسعة جدًا بالنسبة إلى رجل واحد. كانت مهمتي هي أن أعرف كل فرد وأن أذهب إلى أي مكان يسهل الوصول إليه، عن طريق عادات الكرم المتطرفة التي يتسم بها أعراب الريف.

فقد كانت كل خيمة وكل كوخ في منطقتي التي تبلغ مساحتها مائة ألف ميل مربع، مفتوحة أمام أي غريب يدخل إليها ويجلس فيها. وفي معظم أنحاء المنطقة كان الناس يسكنون في خيام سود مصنوعة من شعر الماعز. أما في منطقة الأهوار من الفرات فكان الناس يستخدمون الصرائف (كتب المؤلف كلمة (صرائف) بلفظها العربي الدارج (صريفة) Sarifas وكانت هذه الصرائف تتألف من قصب مستل من الأهوار، يتم نسجه في صفة حصر قصبية كبيرة ومن ثم يتم طيها لصنع أكواخ أشبه بالأنابيب المجوفة، توصد نهاياتها بحصر أخرى من القصب أيضا. وكانت بعض الصرائف تؤلف أبنية واسعة الحجوم حقا، ومزخرفة بتصاميم زخرفية من القصب). وسواء كانت بيوت الأعراب تتألف من الخيام السود أم من الصرائف، فإنهم كانوا عادةً يقسمونها عند الوسط بالستائر إلى قسمين حيث تعيش العائلة في جانب، بينما يتم الاحتفاظ بالجانب الآخر للضيوف من الرجال. ويستطيع أي رجل حتى وإن كان غريبًا تمامًا، أن يدخل إلى هذه الخيام، والصرائف ويجلس فيها ويصبح واحدًا من الضيوف. والعادات الحسنة تمنع المضيف نظريًا أن يطرح أي سؤال على ضيفه، إلا بعد أن يكون قد أمضى ثلاثة أيام.

خلال شتاء سنة 1923-1924، اتخذت قاعدتي في الناصرية التي كانت مركز إدارة متصرفية (المنتفق) ذلك الإقليم الذي لم يكن يضم السهول الملائمة للزارعة والأهوار حسب وإنما يحتوي على منطقة الصحراء التي تمتد حتى حدود نجد.

كانت المدن والأسواق المحلية التي تشمل المنطقة برمتها قد بنيت معظمها من اللبن المجفف بنور الشمس، ولو كانت توجد هناك بعض المباني الجيدة المشيدة من الآجر. في هذه المدن الصغيرة كان يعيش موظفو الإدارة. كان حاكم

المنطقة يعرف باسم المتصرف وحاكم فرع المنطقة يسمى قائمقام. وكان جميع هؤلاء بلا استثناء يعيشون في مودة وفي كرم.

كانت أواسط الجزيرة العربية أو نجد مأهولة على نطاق واسع منذ أمد لا يمكن تذكره بالقبائل البدوية التي كانت تعنى بتربية الإبل والأغنام والماعز، والخيول أيضًا، ولكن بأعداد قليلة. وكانت الإبل والأغنام والماعز تعتاش على الشجيرات الصغيرة وعلى العشب الجاف في الصحراء. غير أن الخيول أن كانت من بين أجمل الخيول في العالم، لم تكن تربى إلا بأعداد قليلة لأنها كانت تحتاج إلى أغذية إضافية.

كذلك توجد واحات في أواسط الجزيرة العربية تنمو فيها بساتين النخيل، وكان معظم رجال الواحات من التجار، ويعرفون بأنهم من قبيلة عقيل الذين كانوا يشترون الحيوانات من البدو الرحل ويسوقونها في فصلي الشتاء والربيع، إلى سوريا والأردن ومصر لبيعها هناك.

وفي سنة 1700 أو حدودها، ظهر في الجزيرة العربية فتى من عشيرة تميم يدعى (محمد بن عبدالوهاب) كرس الفتى نفسه للدين، فإنه كان قد درس في مكة والمدينة، والبصرة، ودمشق، ثم عام في سنة 1742 إلى نجد وراح يعظ قومه ببعث ديني خالص، وعلى أساس العودة إلى القرآن ومن دون أية بدع أخرى. ويبدو أن أحدًا لم يهتم كثيرًا بدعوته تلك إلى أن التقى بشيخ صغير من عشيرة عنزة يدعى (ابن سعود) الذي اهتدى به.

كانت عظة (المصلح محمد بن عبدالوهاب) التي حظيت بالدعم من سيف (الشيخ) ابن سعود قد اكتسحت أواسط الجزيرة العربية في موجة فجائية غامرة من الحماسة، وهكذا استولى الوهابيون في سنة 1804 على المدينتين المقدستين (مكة) و(المدينة) اللتين كانتا تخضعان بصفة اسمية لتبعية سلطان تركيا.

استمرت هذه الفترة الأولى من الحكم الوهابي من سنة 1803 إلى سنة 1813، حين تمت استعادة (مكة) على يد جيش مؤلف من الألبانيين وغيرهم بعث به محمد علي باشا الذي أعلن نفسه حاكمًا على مصر. وبعد مرور ست سنوات من حرب غير متواصلة تم تمزيق الحكم الوهابي.

ولقد بقيت أوساط الجزيرة العربية لمدة تبلغ حوالي سنة في غمرة التناحر بين القبائل والشيوخ، إلى أن استطاع في سنة 1902، فرع فتي من العائلة السعودية يدعى (آل عبدالعزيز) أن يستولي على الرياض العاصمة السابقة للأسرة. ولكي يثير هذا الفرع حماسة أنصاره فإنه أثار بعثًا متطرفًا للمذهب الوهابي الطهري القديم، واستطاع في سنة 1920 أن يبسط حكمه على كل أنحاء نجد، وأن يصبح مجاورًا للعراق الذي يخضع الآن للانتداب البريطاني. كان تطرف الوهابين قد أثار الحميّة، ولذلك رأى السعوديون بأنه لا يوجد أي سبب يدعو إلى أن يتوقفوا عند الحدود السياسية التي كانت قائمة آنذاك.

في شهر آذار سنة 1924 حصلت على إجازة محلية لمدة شهرين، وإذ ذاك ركبت بعيرًا عبر الصحراء السورية من العراق إلى عمان في الأردن. وإذ كانت بعيدًا عن قاعدتي في الناصرية كان أحد الوهابيين (فيصل الدويش) من قبيلة (مطير) قد قام بغارة ممزقة على القبائل العراقية في الصحراء. لم يكن في الصحراء المزيد من الماء مما يكفي للقيام بغارات كبيرة ولكن ما أن اقترب فصل الخريف حتى أصبحت القبائل العراقية قلقة بصفة متزايدة.

كان الوهابيون الذين عرفوا باسم (الإخوان) كلهم من القبائل التي كانت تمتلك الإبل وتسكن الصحارى الواسعة. ولكن في العراق أيضًا توجد أعداد كبيرة من القبائل شبه البدوية التي لا تعنى إلا بتربية الأغنام وتستخدم الحمير

لنقل خيامها، وكان أفراد هذه القبائل يصيّفون على شواطئ نهر الفرات ثم لا يلبثون أن ينتقلوا إلى داخل الصحراء حيث يتوفر المرعى والماء العذب هناك ابتداء من شهر تشرين الثاني حتى شهر آذار.

على أن هذه القبائل التي كانت تُعنى بتربية الأغنام كانت تحت رحمة الإخوان الذين يمتطون الإبل. كان الإخوان يقتلون كل الذكور. وكان مثل هذا التطبيق العملي لمذابح هو الذي يثير المزيد من الفزع.

كنت في بعض الأحيان أرى الصحراء كأرضٍ موات لا حياة فيها، قفر قاحل، أو مشهد لقمر. ولم يكن هناك شيء أبعد عن الحقيقة ذلك لأن الصحراء، كانت في الواقع، جميلة بصفة لا يمكن وصفها، وذلك بهوائها النقي، وبآفاقها الزرقاء النائية وبتلالها المتدحرجة، ووديانها المغطاة بالشجيرات فهناك فتنة سحرية تلف الصحراء التي تملأ نفس المرء بالزهد القطري.

ففي الأيام السابقة وحين اعتاد البدو أن يزوروا المدن، أو القرى فإنهم اعتادوا أن يكمموا مناخرهم بأكمام مادية لكي تحميهم من التلوث وما أن يركبوا مطاياهم خارجين من القرى والمزارع إلى هواء الصحراء النقي، غير الملوث، حتى يرفعوا الأكمام عن مناخرهم، وينفجروا في الغناء ويدفعوا بإبلهم إلى الجري خببا. حتى إذا ما حصل توقف لتنازل الطعام كانت التربة نظيفة نقية، كأن لم يكن هنا إنسان قد اجتاز قبلاً ذلك الطريق. وفي دقائق قليلة تكون النار قد أوقدت من شجيرات الصحراء التي كان الكثير منها زكي الرائحة أشبه بالبخور.

كانت معظم الصحارى الشمالية لجزيرة العرب تتألف من حجر الكلس والتي يندر وجود كثبان للرمل فيما بينها. وحتى إذا ما وجدت كثبان الرمل فإنها تكون بعيدة عن الطرق، لأنها كانت تنبت الشجيرات الشوكية الطويلة

مثلما تنبت الأعشاب أيضًا. كذلك تؤلف الرمال مطارح ناعمة يمكن الاستلقاء عليها أثناء الليل، بعد أن تلف نفسك بالعباءة!

وكذلك لا يمكن أن تكون الصحراء خالية من الحياة ففيها تعيش الخنافس، والذباب، والسحالي، والجرابيع (جرذان الصحراء الصغيرة) والثعالب والغزلان والذئاب، والضباع وكلها تعيش من دون ماء وبشكل واضح في الغالب غير أن الجمال الرئيس للصحراء قد يتمثل في نقاء الهواء وفي الآفاق الزرقاء البعيدة!

قبل حلول عيد الميلاد بوقت قصير تلقيت رسالة تفيد بأن (فيصل الدويش) يوشك أن يغير على العراق. كان الرعاة العراقيون قد سبق لهم أن انتشروا في الصحراء وكانت مضاربهم الرئيسة تقع في (جو هادية) (جو هادية: تقع إلى الجنوب من منطقة العيون وإلى الشرق من جرف (هانية) في الناحية الشمالية من المنطقة المحايدة). على بعد سبعين ميلاً عن الفرات. لم تكن الحكومة العراقية قد اهتمت بأمر الصحراء وكذلك لم يهتم الأتراك أنفسهم أيضًا.

وحين تم إبلاغ مقر القوة الجوية البريطانية بالموضوع طلب تأكيدًا آخر له. ولذلك استأجرت جماعة من أصحاب الإبل لكي نذهب إلى رعاة الماشية ونطلب إليهم بأن يعودوا لكنهم تأخروا في العودة، وطبقًا لذلك فقد قررت بأن أذهب أنا بنفسي إلى ذلك الموضع، فاستأجرت بعيرًا لكي أركبه واصطبحت معي ثلاثة من البدو.

لم تكن الإبل قد هيئت في الوقت المحدد ونجم عن ذلك أنني تأخرت مدة أربع وعشرين ساعة. وأخيرًا تحركنا فوصلنا إلى بعد حوالي عشرين ميلاً عن المضارب التي يقيم فيها الرعاة في حدود الساعة العاشرة صباحًا. وما أن هبطنا،

على حين غرة، حافة واطئة حتى شاهدنا أمامنا واديًا سحيقًا امتلأ بأناس أصابهم الهلع،وبقطعان من الأغنام والحمير وقلة من راكبي الخيل، وقد اتجهوا هاربين نحو الشمال في شيء من الهياج.

وعلى بعد ميل إلى الجنوب كنا نرى (الإخوان) الذين يمتطون الإبل يرفعون أعلامهم الحربية، وهم يطبقون على الهاربين ويقتلونهم ويسوقون أغنامهم. كان الهاربون الذين مروا بنا قد اتسعت حدقات عيونهم من شدة الفزع وراحوا يهتفون (الإخوان ! الإخوان! إنها معركة! إنها معركة! أين الحكومة؟) كان منظر النساء الخائفات وهن يحملن أطفالهن ويسحبن الصغار الذين كانوا يصرخون ويعولون من المناظر المثيرة بمنتهى الشدة. لقد كان الكل يصرخون فزعين (يا الله ! يا علي ! يا الله ارحمنا،وأسدل الرحمة علينا!).

كان البدو الثلاثة المرافقون لي قد أصابهم الفزع فصرخوا يخاطبونني (دعنا نهرب! إنهم الإخوان. إنهم مقبلون علينا!) أمسكت ببعيري وترجلت عنه لكي أهدئ أعصابي وأعصاب رفاقي. لم يكن هناك ما أستطيع أن أفعله لأنني كنت على بعد حوالي، خمسين ميلاً تقريبًا عن أقرب دائرة للبريد تقع في محطة جليبة (جليبة، هي محطة الجليب التي تقع على سكة حديد بغداد - البصرة إلى الجنوب من محطة تل اللحم، وعلى الطرف الغربي من هور الحمار).

كان باستطاعتنا ونحن على ظهور إبلنا أن نهرب بأسرع مما يستطيعه الرعاة، سيرًا على الأقدام غير أنني لم أستطع أن أهضم فكرة التخلي عن الهاربين الفزعين، ولذلك امتطينا إبلنا، أنا والبدو المرافقون لي وأخذنا نسير بهدوء وسط بؤرة الشر التي كانت تثير الضيق والغم.

كنا نستطيع رؤية راكبي الخيل الذين كانوا يتعقبوننا وأن نسمع قرقعة بنادقهم قريبة وراءنا، ولكن بصفة تدريجية وما أن اقترب المساء حتى أخذ

المتعقبون يتراخون ولم يكن هنالك أدنى شك في أن هؤلاء المتعقبين الذين ساروا الليلة السابقة كلها بقصد الإغارة على مضارب الرعاة وتقويضها، قد أنهكهم التعب وقد سبق لهم أن أحاطوا بالألوف من الأغنام العائدة للرعاة.

وإذ غربت الشمس استعرت حصانًا من أحد المضارب وأسرعت به قاصدًا محطة (جليبة) وعلى حين فجأة تحقق لدي أن ذلك اليوم كان هو عيد الميلاد. وصلت إلى محطة (جليبة) عند الفجر وبعثت منها بسلسلة من البرقيات التي طلبت فيها تطهير الخط إلى مقر القوة الجوية البريطانية والرف الرابع والثمانين من القوة الجوية البريطانية المرابطة في الشعيبة فطلبت إلى جميع الطائرات بأن تقلع وأن يعطى لها الموقع المثبت على الخارطة.

ما لبثت إحدى الزوابع أن انفجرت وتساقط المطر مدرارًا فتبللت حتى بلغ البلل جلدي. رد رف الطيران على طلبي بأن الجو لا يساعد على الطيران. غير أن آمرية الرف بعثت بعد الظهر إلي بطائرة لكي تلتقطني وتطير بي إلى الشعيبة وفي صباح اليوم السابع والعشرين من كانون الأول حلقت (ولكن بثلاث طائرات ليس إلا). لقد تحقق لدينا وجود منطقة من الصحراء لا تزيد مساحتها عن ثلاثة أميال في ميلين مغطاة بالألوف من راكبي الإبل يتحركون نحو الجنوب وهم يسوقون أمامهم قطعان الماشية التي نهبوها من الرعاة. بدأنا بمهاجمتهم في ذلك اليوم وفي اليوم التالي الذي أعقبه، ولكن كان من المشكوك فيه ما إذا كنا قد ألحقنا بهم إصابات كثيرة.

هناك شيء واحد وعيته بحيوية هو أنني كنت قد تأخرت لمدة أربع وعشرين ساعة لأن الإبل التي استأجرتها لم تكن قد هيئت في اليوم الذي أمرت بإعدادها فيه. فلو أنني بدأت منذ أن صممت فلربما كنت أرقد في مخيمات أولئك

الرعاة في فجر يوم عيد الميلاد وقد لا أكون قد بقيت على قيد الحياة. إن الله يتصرف حسب وسائله السحرية!

ما أن شاهدت بنفسي واحدة من مذابح الصحراء هذه وهروب الذين جزّعهم الهلع، حتى أصبح لدي فيما بعد سبب يدعوني إلى أن أكرس نفسي لإنقاذ أولئك الرعاة العراقيين من الدمار. لقد كان هناك حوالي ثلاثين ألفًا من الناس في المنطقة الجنوبية الذين كانوا يتحركون إلى داخل الصحراء أثناء الشتاء ويستخدمون الحمير لنقل خيامهم.

ومهما يكن الأمر فقد كان هناك سبب لم يجعل تلك الحوادث تلاقي سوى القليل من العطف الخارجي. ذلك أن السنوات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية قبل أن تتداعى في سنة 1918 كانت كلها قد أنفقت في السعي لتقليد أوروبا. أما في سنة 1924 فإن معظم الموظفين الصغار إن لم أقل كلهم قد عاشوا في ذلك الجو التركي الذي تميز بتقاليد أوروبا والتشبه بها. إنهم لم يريدوا أن يفعلوا أي شيء مع القبائل ولم يكونوا ليهتموا بآلامها أبدًا.

عهد إلى الحكومة البريطانية بالانتداب على العراق. وكان الهدف من وراء ذلك هو أن تساعد العراقيين على تكوين إدارة غربية عصرية، كما كنا نقول: ولقد كان تقليد الغرب يمثل الرغبة لدى العراقيين. كذلك كان من واجب الحكومة البريطانية أن تدافع عن حدود العراق إلى أن يستطيع إنشاء جيشه الخاص به. وبما أن الحكومة العراقية لم تكن تطلب الدفاع عن قبائلها الصحراوية فإن الحكومة البريطانية لم تكن راغبة، بصفة خاصة، لأن تفعل ذلك بنفسها.

وفضلاً عن ذلك فإن الحكومة البريطانية في لندن كانت ترغب أيضًا في أن تحافظ على قيام علاقات ودية لها مع ابن سعود. ولذلك كان أمرًا طبيعيا،

بالنسبة إلى تلك الأوساط (العليا) أن يعتبر التزام شاب متحمس بالدفاع عن الرعاة الفقراء، أمرًا غير متوازن على أقل تقدير، إن لم يدل على الغرور، وغالبًا ما ينقصه الاحترام الصادق من لدن رؤسائه.

لقد أصبحت منهمكًا بأمور العراق، بكل حماسة، إلى درجة أنني قضيت خمس سنوات، من دون أعود إلى إنكلترا في إجازة. إن العالم مليء حقًا بالإثارة، بالنسبة إلى الشباب!

في صيف سنة 1925، جئت أخيرًا في إجازة،والتقيت مع والدتي في أحد الفنادق بمدينة نابولي، وما زلت حتى الآن أذكر عناقها الحار، وصيحتها الفرحة وهي تهتف (إنها خمس سنوات يا كنزي وذخيرتي! غير أنك ما تزال في الصورة ذاتها!). سافرت معها سوية نحو الشمال، مرورًا بمدن روما، وفلورنس، وميلانو، إلى أن التقينا مع أبي، فمضينا سوية إلى بلدة (سرميون) على بحيرة (غردا).

كانت إيطاليا تمثل الفردوس الذي كنت أحلم به منذ زيارتي الأولى القصيرة لمدية (سان ماميت) في سنة 1919 وذلك بعد حياة الخنادق التي أمضيتها في منطقة (الفلاندرز). أما الآن فالشمس الدافئة والسموات الزرق والجبال والبحيرات كلها قد أضيفت، إلى قصة التاريخ وفن العمارة ولذلك انكببت، بكل حماس على دراسة المدن الإيطالية التي تعود إلى القرون الوسطى.

لقد شاهدنا في روما كلاً من (الفوروم) و(الكولوسيوم) (الفوروم والكالسيوم صرحان مدرجات يقعان في ميدا (الأسرار بمدينة روما يكون على شكل نصف دائرة يمتد مئات الأمتار والمدرجان من طراز البناء الروماني بناه الفلافيون في سنة 80 للميلاد وكان الكالسيوم يتسع لحوالي خمسة وأربعين ألف

متفرج). والفاتكان بحراسة السويسريين، ومعبد (سستين). ولكن حماستي ازدادت إثارة بجمال فرونس وسيينا ومدن الشمال. وفي نهاية إجازتي عدنا إلى إنكلترا لتمضية أسبوعين فيها، وإذ ذاك عدت إلى العراق بقطار الشرق السريع من باريس إلى استنبول، وبتجربته المليئة بالذكريات.

ما أن عدت إلى الناصرية حتى جوبهت بوضع حرج على الحدود السعودية حيث كان فصل الغارات على وشك أن يبدأ. تكون الصحراء أثناء الصيف خالية من الناس في الغالب. ولكن في شهر تشرين الأول أو تشرين الثاني تبدأ أولى الأمطار السقوط وإذ ذاك تبدأ القبائل الخروج إلى الصحراء.

كانت الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها مربو الأغنام أن يرعوا قطعانهم أيام الشتاء هي أن ينتقلوا إلى الصحراء. كان أمر القوة الجوية البريطانية يعتبر عشائر الرعاة من المدنيين. وحين يقع التهديد بنشوب الغارات، كما يطلب إلي أن أقوم بإخراج الرعاة من الصحراء. ولقد اعترضت على هذا الإجراء، لأنه إذا ما تم تطبيقه فإن أغنام الرعاة سوف تموت جوعًا. ولذلك كان من واجب الحكومة أن تحميهم في مواطنهم الاعتيادية. على أن آمر القوة الجوية البريطانية قد اعتبرني بأنني لا أحترم الأوامر إذا لم أكن أخضع لها.

في الشتاء التالي غزا ابن سعود وقبائل الإخوان بلاد الحجاز التي كان يحكمها الملك حسين شريف مكة سابقًا، ووالد فيصل ملك العراق. وحين بدأت الأمطار بالسقوط في شهري تشرين الأول وتشرين الثاني كانت القبائل العراقية تخشى الخروج إلى الصحراء،لأنها كانت تخاف أن تتكرر غزوة (جو هادية) التي حدثت قبل سنة، وفي الوقت ذاته أخذت حيواناتهم تموت جوعًا بسبب نقص المراعي.

كانت قبيلة (الضفير) هي القبيلة الوحيدة التي تهتم بتربية الإبل، في الصحراء الجنوبية من العراق، أما بقية القبائل الأخرى فإنها كانت تعني بتربية الأغنام والحمير وقد استشرت (عجمي بن سويط) شيخ الضفير، بشأن أحسن وسيلة بالنسبة إلى الوضع الراهن. لقد كان الإخوان بعيدين عنا في الحجاز، وكان يبدو بأن غاراتهم على العراق غير متوقعة، ولكن عجمي رد علي يقول بأن القبائل لن تخرج إلى الصحراء إلا إذا ذهبت معها.

وطبقًا لذلك نصبت لي خيمة بيضاء (كانت كل الخيم العربية سوداء)، وعلى أثر ذلك تحرك عجمي وأتباعه إلى داخل الصحراء على أن أتبعهم أنا بخيمتي البيضاء. كانت القبائل التي ترعى الأغنام ما تزال حَذِرة، وتبعث بكشافة منها إلى مخيم عجمي، حيث كان أولئك الكشافة يشاهدون خيمتي البيضاء ويتساءلون على الدوام قائلين: (ما هي تلك الخيمة البيضاء؟) فكان (عجمي) يرد على تساؤلهم ذاك بلهجة معتادة (آه! إنها الحكومة).

وما أن تشجّع الرعاة بوجود الحكومة حتى تحركوا للانضمام إلى مخيم عجمي، وسرعان ما تحركنا نحن بعزم نحو المنطقة المحايدة، (المنطقة المحايدة منطقة أشبه بالعين كانت تقع بين العراق والسعودية وتصل إلى حدود الكويت.وكانت من أهم المواقع فيها هني الرخيمية، وأنصاب، وجليدة وقد وزعت هذه المنطقة خلال السبعينات بين العراق والسعودية ولم يعد لها من وجود منذ ذلك التاريخ)، حيث كانت المراعي فيها فاخرة كانت المنطقة المحايدة تحتوي على عدد من الآبار العميقة التي تحتاج القبائل العراقية والنجدية إليها، وبذلك أصبحت محايدة بالنسبة للرعاة العراقيين والنجديين على حد سواء.

لم أستطع المكوث خلال الشتاء في خيمتي البيضاء لأن أمر القوة الجوية البريطانية قد طلب إلي بأن أرد على الرسائل التي كان يبعث بها إلي، وأن

أكتب التقارير اللازمة. غير أنني تركت الخيمة البيضاء على حالها في مخيم عجمي لكي ترمز إلى وجود الحكومة،وكنت أقوم بنفسي بزيارة ذلك المخيم من وقت إلى آخر. وعلى هذه الشاكلة انقضت سنة، دون أن تتعرض الخيمة البيضاء لأية غارات، ذلك لأن (الإخوان) كانوا يقاتلون في الحجاز.

وفي ذات الوقت تلقيت في سنة 1926 رسالة من وزارة الحرب البريطانية تنبئني فيها بأنني قد أمضيت خمس سنوات خارج الجيش، وأنني سوف أعاد إلى بريطانيا بعد وقت قصير. ولما كنت قد كرست نفسي لخدمة العراقي والعراقيين فقد أجبت وزارة الحرب بالاستقالة من مهمتي. ولقد كان من حسن حظي أن أسرع (السر كنهان كورنواليس) مستشار وزارة الداخلية العراقية إلى نجدتي، بأن عرض علي توقيع عقد أمده عشر سنوات للعمل بصفة إداري مدني لدى الحكومة العراقية، الأمر الذي تقبلته مسرورًا !

والواقع أن ذلك العقد كان ذا فائدة مزدوجة. ذلك لأن الانتداب كان سينتهي أمده في سنة 1928 حين يصبح العراق مستقلاً استقلالاً تامًا ويصبح حرًا في طرد الموظفين البريطانيين لديه. غير أن مطامحي الشخصية وحبي للعراقيين كانت تطغى بصفة تامة كالعادة على أي اعتبار بالنسبة إلى سلامتي الخاصة أو إلى عملي في المستقبل.

ومما تجدر الإشارة إلى تأكيده هنا هو كيف أن الوضع الداخلي للشرق الأوسط كان قد تحول تحولاً تامًا خلال حقبة العشرينات. ففي ذلك الوقت كانت كثير من البلدان العربية تضم قبائل مسلحة، وكانت الاضطرابات التي تثيرها تلك القبائل تؤلف تهديدًا ثابتًا للقانون والنظام. ونتيجة لذلك كان سكان المدن موالين للحكومة دومًا، لأنهم كانوا ينتظرون منها حمايتهم من تلك

القبائل. ولقد استمر هذا الوضع طيلة الوقع الذي بقيت فيه قوات الحكومة مسلحة بالبنادق التي يستطيع أفراد العشائر أنفسهم أن يتسلحوا بها أيضًا.

وما أن أصبحت الحكومات العربية قادرة على أن تسلح قواتها بالأسلحة الحديثة، من أمثال الطائرات والسيارات المصفحة حتى اصبح أفراد العشائر عاجزين ومن ثم فإن سكان المدن (الذين لم يعودوا موالين للحكومة بسبب الخوف من العشائر) قد أصبحوا هم المترددون في الوقت الذي بقي فيه أفراد العشائر موالين.

أخذت مقاومة المدينة للحكومة صيغتين: الأولى هي إغراء الجيش الذي راح فيما بعد يؤدي سياسة حكومات المعارضين لأعداد انقلاب عسكري لقلب الحكومة القائمة. فلقد أقدمت كثير من حكومات الشرق الأوسط على تطبيق عملية التجنيد الإلزامي أملاً في أن تحصل على جيش كبير بثمن بخس. وكانت نتيجة ذلك غدت الجيوش المؤلفة من المجندين أصحاب المرتبات الضئيلة، غير موالية للحكومة في الغالب. لقد كان من الأفضل أن يزجى النصح إلى الحكومات بأن تكون لديها جيوش متطوعة من أفراد يتقاضون مرتبات طيبة ممن يعتد على إخلاصهم.

أما النقطة الثانية من صيغ المقاومة لدى أهل المدن والتي أخذت تتطور، فإنها قد اشتملت على أعمال الاغتيال والإرهاب أو زرع القنابل الموقوتة. لقد دارت العجلة الآن دورة كاملة فقد أصبحت العشائر موالية بصفة عامة للحكومة وإن كانت متباينة بالنسبة إلى السياسة الحزبية. غير أن الحكومات كانت على الدوام مهددة بالتنافس بين ساسة المدن، وكانوا في الغالب يلجأون إلى استخدام الإرهاب أو اقتراف حوادث الاغتيال، أو تدبير الانقلابات العسكرية التي كانت تنهض بها العناصر غير الموالية في الجيش.

- 7 -

مستشار مدني

سنة من التثقيف والمتعة

قُسِّم العراق إلى ألوية، يحكم كل واحد منها متصرف يكون رئيسًا لكل الدوائر في لوائهِ. وكان يعمل معه مستشار إداري بريطاني، يكون واجبه، تقديم النصح والمساعدة. ولربما كنت أنا صغير السن كيما أنال مثل هذا التعيين، ذلك لأنني وإن كنت ذكيًا بصفة مؤكدة، وقد كرست نفسي للعمل بحماسة، إلا أنني كنت أصغر سنًا من المتصرف، الذي يفترض فيّ أن أسدي النصح إليه.

أمضيت السنة المحددة من ربيع 1926 حتى ربيع سنة 1927، في الإدارة المدنية في لوائيّ (الحلة) و(الديوانية) في الفرات الأوسط. ولقد هيأت لي هذه السنة، معرفة وثيقة بأعمال الإدارة، والضرائب، والمنازعات العشائرية حول الأراضي، بصفة خاصة.

كانت جميع الأراضي الزراعية، إبان الحكم العثماني تعود بصفة نظرية، إلى الحكومة، وإن كان المزارعون، من الناحية العملية، يشترون ويبيعون الأراضي، أحدهم إلى الآخر. ولكن أمثال هذه المعاملات لم يتم تسجيلها في سجل رسمي، لأن الحكومة كانت تزعم بأنها هي المالكة لكل الأراضي الزراعية.

على أن السلطات العثمانية، ما لبثت أن قررت في بداية القرن العشرين، ورغبة منها في تقليد أوروبا، بأن تشجع الملكية الخاصة للأراضي، ولذلك تم إصدار تعليمات بقصد تسهيل مهمة نقل الأراضي الحكومية إلى الملكية الخاصة.

ومع هذه القرارات العشوائية فإن إجراءات التطبيق خلال السنوات العشر الأخيرة من الحكم العثماني، كانت قد فسدت، نتيجة ارتشاء الموظفين العاملين في دائرة الأراضي، ذلك لأنه كان في مستطاع الأغنياء، وأصحاب النفوذ، أن يذهبوا إلى دائرة الأراضي، وأن يحصلوا عن طريق الرشوة، على سندات خاصة، بامتلاك أية منطقة من الأراضي التي يطمعون في امتلاكها. ومن المحتمل تمامًا، أن الأرض موضوعة البحث، كانت تزرع سابقًا، ولمدة أجيال، من قبل العشيرة المحلية، التي لم تكن تدرك بأن أحد الأغنياء، قد استطاع في الوقت ذاته، أن يحصل على هذه المستندات التي تخوله ملكية تلك الأراضي. وغالبًا ما يكون الرجل الثري قد حصل على هذه المستندات عن طريق الادعاء، ولا يحاول تثبيتها، لأن العشيرة لابد وأن تقاوم ذلك.

ولابد أن تحين إحدى الفرص في وقت ما، حين يحدث أن يحل أحد الفيالق العسكرية التركية في المنطقة، وإذ ذاك يظهر المدعي مستندات ادعائه، والتي تكون نافذة المفعول من الناحية القانونية، حتى وإن كانت تلك المستندات قد تم الحصول عليها عن طريق الرشوة في الواقع.

وإذا ذاك تشرع العشيرة التي كانت تزرع تلك الأرض لعدة أجيال، بمقاومة ادعاء المدعي بكل عنف، حيث تنجم عن ذلك مصادمات مع القوات الحكومية أحيانا. وقد يتم ترتيب الصلح والتوفيق في بعض الحالات، ولكن كان من العسير جدًا إجلاء العشيرة، التي تستطيع لوحدها أن تزرع الأرض، ولكن كان يتم إرغامها، تحت ضغط الاحتجاج، على أن تدفع بدل إيجار إلى المدعي بملكية تلك الأرض.

هنالك مشقة أخرى، كانت تتمثل في الواقع، في أن الأرض المتنازع عليها، لم يكن قد جرى تسجيلها. ولذلك فإن من المحتمل، حين يقدم أحد الأغنياء على

دفع رشوة إلى دائرة الأراضي،ويحصل على مستندات بملكية قطعة من الأرض، أن يسأله كاتب الأراضي عن الحدود التي يشير إليها في المستندات التي يحتفظ بها. وغالبًا ما كان يتم تحديد تلك الحدود بعبارات مبهمة من أمثال (إلى الشرق من بستان الحاج محمد، وإلى الغرب من الصحراء!).

وإنني لأتذكر بهذه المناسبة، أن مستندًا لملكية الأرض، مؤرخًا من العهد التركي، قد أبرزه أحد المدعين بملكية الأراضي، فإذا به يحدد حدود تلك الأرض بأنها تشتمل على (شمال الهور، وشرقي الهور، وجنوبي الهور، وغربي الصحراء!).

لقد أشرت إلى بعض هذه المشاكل، لأنني أردت أن أبين الارتباك الإداري، الذي خلفه الأتراك فيما وراءه واتساع مقدار العمل الذي يحتاج إليه لتسوية هذه الحالات المربكة على أساس قانوني معقول.

ولقد كان من سوء الحظ، أن غدت القضايا السياسية والقومية، تؤلف الموضوعين اللذين يتلقيان معظم الشهرة والذيوع. فلم يكن هنالك من أحد يهتم بالقدر الواسع في العمل الإداري الذي يحتاج إليه، لتقليص تلك الفوضى العثمانية، وتحويلها إلى دولة حديثة.

كانت الضرائب في العهود التركية، تجبى على أساس مقدار كميات القمح، أو الرز، أو التمور، التي يتم حصادها فعلاً في كل سنة. ولم تكن مثل هذه القاعدة صائبة أو عادلة، ذلك لأن المزارع الذي يبقي أرضه غير مزروعة، لا يدفع أية ضرائب بالمرة. فلو كانت الضريبة المحددة واجبة الدفع عن الأرض، فإن المزارع سوف يتشجع لإنتاج أكثر مما تستطيع الأرض إنتاجه.

كان الإجراء المطبق بالنسبة إلى الضرائب، هو الافتراض بما يقدم المزارعون، وقت الحصاد، على جمع قمحهم على الأرض التي تتم تذريته فيها،

وإذ ذاك تقوم لجنة تقدير حكومية بالكشف على أكوام الحنطة أو الشعير، و(تقدير) قيمة القمح ومقداره، وحصة الحكومة من الضريبة. وكان تكديس القمح في أكوام مختلفةٍ، هي الطريقة المثلى، في ذلك الوقت، لقسمة الحاصلات بين المزارع، والعمال الذين يعملون في مزرعته.

على أن طريقة التخمين كانت بالطبع، معرضة لظاهرة الرشوة المتفشية والتي تقدم إلى لجنة التخمين،وإن كان من المتعذر إبطال مثل هذه الرشوة، لأن لجان التخمين كانت تتألف بصفة رئيسية من الموظفين الحكوميين وبعض الوجهاء المحليين.

ولعل أخطر من هذا كثيرًا، هو أن تعمد لجنة التخمين إلى إنقاص تقدير حاصلات أحد الوجهاء المحليين، ولكنها في الوقت ذاته، تتجاوز تقدير حاصلات رجل فقير، قد لا يستطيع الذهاب إلى بغداد، وتقديم شكواه بهذا الشأن.

لقد كنت مقتنعًا بصفة شخصية، تمام الاقتناع بأنه كان من المستطاع، خلال السنوات الثمان من الانتداب على العراق، إنجاز مقدار واسع من العمل في كل هذه الميادين، وذلك بمساعدة من عمال دؤبين، لفرقة صغيرة من الموظفين البريطانيين المكرسين لمثل ذلك العمل.

فلقد تم بالطبع إنجاز عمل مماثل في دائرة أخرى. ذلك لأن الجيش العراقي قد تم إعداده وتدريبه بمساعدة من البعثة العسكرية البريطانية. وبذات الطريقة، كانت دوائر الأشغال العامة،والري، وسكك الحديد، والوزارات، تحتفظ بموظفين من صنوف عالية، من العراقيين والبريطانيين معًا، وفي الوقت الذي كنت فيه أعتقد بأنه بمثل هذه الوسائل، يمكن معاونة العراق لكي يصبح دولة

عصرية مستقلة، خلال سنوات الانتداب الثماني، فإن النظام كان قد ساء على أيدي أصحاب الأفكار السياسية في المدن. أما في المناطق الريفية التي عملت فيها بمفردي، فلم تكن الحالة على مثل هذه الشاكلة اعتياديًا. ذلك لأن أبناء الريف والموظفين الإداريين، كانوا في الغالب يتميزون بالصداقة والمساعدة فيما بينهم.

ومع كل ذلك فإن الازدواجية، أو الحكم المزدوج، كان نظامًا شاقًا ينبغي العمل في ظله. ففي ميدان الإجارة، كانت السلطة التنفيذية كلها محصورة في يد الموظف العراقي، في حين لم يكن زميله البريطاني سوى مشاور ليس إلا. ومع هذا كان الناس يسعون، بصفة حتمية، إلى بذور الشقاق بين الموظف العراقي، والمشاور البريطاني! ولكن كان الاثنان، مع كل ذلك وبصفة عامة، يعملان معًا وبسعادة دائمة وكان مثل هذا الاحتكاك حين يقع، يقتصر في العادة على مدينة بغداد وحدها. ومع هذا وبشكل عام تمامًا، فإن النتيجة الخالصة لكل ذلك هي التذمر الشائع لدى أصحاب الأفكار السياسية من العراقيين.

وكما سبق أن بينت، كان نظام الانتداب برمته، من مبتدعات الرئيس الأمريكي، (وودرو ولسون) ذلك المثالي الأكاديمي. فالولايات المتحدة الأمريكية، كانت في ذلك الوقت أمة لم يمض آنذاك على تكوينها أكثر من مائة وخمسين سنة، وكانت منعزلة على نطاق واسع، فيما وراء المحيط الأطلسي، وربما كانت على أتم الاستعداد، لأن تحاول فرض تفوقها. غير أنها أخفقت في تحقيق مساهمات كافية، بالنسبة إلى ثقافات تمتد جذورها إلى ألوف عديدة من السنين في الأجزاء الأخرى من العالم. ولهذا السبب، كان نظام الانتداب، يشتمل، ومن دون ذكاء، على عنصر من التفوق والتنازل المفترضين.

لقد وزعت الانتدابات من لدن عصبة الأمم، وفرضت على البلدان التي أقرت الوصاية عليها، من دون استشارة تلك البلدان، ولذلك فإن هذه الأخطاء

الخالية من المناهج، قد وردت في مذكرة أثارت الحنق والاشمئزاز. لا يوجد أدنى شك في أن البلدان، التي كانت تعود سابقًا إلى الإمبراطورية العثمانية، كانت في حاجة إلى المستشارين الفنيين من الغرب. ولكن إذا ما تركت تلك البلدان وشأنها، فإنها سوف تختار أولئك المستشارين والفنيين من أمم مختلفة، وبذلك تتجنب المذلة بأن تصبح خاضعة لدولة واحدة مسيطرة.

ومع أن الانتداب كان فكرة أمريكية، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية، سرعان ما انسحبت من الميدان على الفور، وتركت الحلفاء الآخرين هم الذين ينظمون الوضع، لو كان الحلفاء كلهم قادرين على إيجاد فريق المستشارين من الأقطار الأوروبية الغربية، وسمحوا للبلدان المنتدب عليها بأن تختار المستشارين الذين يحتاج إليهم، لمكن ذلك تجنب التوتر والاشمئزاز.

فقد كان في مستطاع كل قطر أن يختار خليطًا من المستشارين البريطانيين، والفرنسيين، والأمريكيين والإيطاليين، أو الاسكندنافيين. وبهذه الطريقة يستطيع ذلك القطر أن يتجنب الشك المذل بأنه عنصر يخضع لبلد غربي معين.

كانت كل الأمم الغربية التي عهد إليها بالانتدابات، قد أخذت تعامل الأقطار المنتدب عليه بطرق متباينة. فالبعض منها، كانت تعامل تلك الأقطار في صفة مستعمرات خالصة، ولذلك كانت تعهد بكل الوظائف الإدارية العليا، إلى موظفيها الخاصين ليس إلا (في هذا يلمح المؤلف إلى معاملة الفرنسيين والإيطاليين بصفة خاصة لسكان البلدان التي استولوا عليها، أو التي عهد إليهم بالانتداب عليها، والفظائع التي أنزلوها بالشعب العربي في ليبيا، وسوريا وتونس والجزائر والمغرب التي ما تزال تئن من آثار الاحتلالين الفرنسي والإيطالي). ولست أعتقد بأن بريطانيا كانت قد فعلت مثل هذا الأمر في العراق، ذلك لأن كل الموظفين البريطانيين في العراق كانوا استشاريين حسب.

هناك عاملان اشتركا، بصفة خاصة، في حوادث العراق (يقصد بذلك ثورة العراق الكبرى في سنة 1920، والانتفاضات التي أعقبتها بعد فرض الانتداب وتشكيل الحكم الملكي فيه). لقد وافق الأتراك، أثناء مفاوضات الصلح، على التخلي عن البلدان التي كانت تابعة لهم، والمأهولة بأكثرية عربية، غير أنهم ادعوا، في الوقت ذاته، بأن الموصل وكردستان لا تضم أكثرية عربية، وطبقًا لذلك فيجب أن تبقى هذه الأقسام تابعة إلى تركيا. لم تكن لدى العراقيين حينذاك أية قوات مسلحة، وكان الأتراك يستطيعون أن يحتلوا الموصل وكردستان بيسر، إذا لم تهبّ بريطانيا للدفاع عنهما.

ولو تحرك الأتراك فتقدموا إلى داخل ولاية الموصل وكردستان، لاستطاعوا بذلك، أن يطبقوا على ولاية بغداد ذاتها. وإذ ذاك فإن العراق حتى إذا ما استطاع تمامًا أن يحيا، فإنه سوف يتحول إلى دولة صغيرة أشبه بشرقي الأردن، التي فصلت عن سوريا التي غزاها الفرنسيون. وعلى هذا الأساس فإنه لم يعد هناك أدنى شك بأنه لو لم تقدم بريطانيا على الدفاع عن العراق في حقبة العشرينات، لما كان له من وجود بالشكل الذي هو عليه اليوم.

ومع كل ذلك فإن التذمر من الانتداب الذي فرض على العراق من دون استشارة سكانه، لم يمكن التغلب عليه، وعلى هذا الأساس شاع التذمر والاشمئزاز، طيلة فترة الحكم المزدوج،والتي أعانت العراق على أن يبرز في صفة دولة متحضرة، من غمرة فوضى الحكم التركي. ونقول أن ذلك التذمر قد شاع بفعل الساسة العراقيين (على الرغم من كل الفضائل المزعومة لفترة الانتداب البريطاني على العراق، فإن العراقيين قد تحققوا بصفة عملية، بأن الإجراءات التي طبقتها بريطانيا، لم يكن يقصد بها تحويل العراق إلى دولة

عصرية مستقلة، كما كان الإنكليز يزعمون ذلك على الدوام، بقدر ما كان يراد بها الحفاظ على المصالح الاستعمارية البريطانية في العراق).

في سنة 1928، وحين انتهت فترة الانتداب، أوصت بريطانيا بقبول العراق في عصبة الأمم، باعتباره دولة مستقلة. وبذلك أصبحت الخدمات التي أحالتها بريطانيا إلى العراق، بصفة نظرية، واسعة جدًا. ومع ذلك فإن ذكرى السنوات الثمان من الحكم المزدوج، استمرت تثير التذمر بين الساسة العراقيين.

خلال فترة العشرينات، وإذ كنت ما أزال في العشرينات من عمري، شعرت لأول مرة بنوع من (مركب النقص) إزاء الفرنسيين. لقد كنت أظن بأن بريطانيا ما تزال دولة ملكية، في حين كانت فرنسا دولة جمهورية، وأن الفرنسيين لابد أن يكونوا أكثر مساواة دون ريب. ولكن حين التقيت بالفرنسيين، في مختلف المؤتمرات التي عقدت بشأن الحدود السورية، أصبحت سطحية الآراء التي كنت أؤمن بها، أكثر وضوحًا لديّ.

فحين يكون شيوخ العرب، أو الموظفون حاضرين، لا أتمالك نفسي من أن ألاحظ بأن الضباط الفرنسيين كانوا يعاملونهم بطريقة أقل صداقة ورفقة، مما كان البريطانيون يظهرونه إزاء العراقيين. كما أنني لست أعتقد بأن تهم الاستعمار التي كانت توجه بكل حرية ضد بريطانيا من قبل مواطنيها، مما كان يمكن تبريره بالنسبة إلى قضية البلاد العربية (؟). ذلك لأن نظام الانتداب قد تم تطبيقه من دون تدبر، وأن المباهاة المشروعة لدى الأمم الصغيرة كانت مؤذية.

قد يؤدي وجود القوات البريطانية إلى التذمر. ولكن لم يكن، بعد الحرب العالمية الأولى، من جدوى لذلك، لأن الأمة العراقية الحديثة لم تكن لديها قوات خاصة بها. وقد تكون تهمة الاستعمار قد قامت على أساس الشك في نوايا

البريطانيين. فحين تخلت بريطانيا عن الانتداب في الموعد الذي حدد لانتهائه، ادعى الوطنيون العراقيون بأن بريطانيا لم تكن تنوي الجلاء أصلاً، ولذا كانت قوة معارضتهم هي التي أجبرتها على أن تفعل ذلك. (إن الثورة العراقية الكبرى في سنة 1920، وما قبلها، وأن المعارضة الوطنية للانتداب، قد كانت من الأسباب الأساسية التي حملت بريطانيا على إجلاء قواتها عن العراق في وقت سريع، وعلى الأخص بعد أن ضمنت هيمنتها على السياسة العراقية عن طريق المعاهدات التي عقدتها مع العراق ولا سيما معاهدة سنة 1930).

والواقع أنه كانت هناك معارضة أوسع في بريطانيا، لا تقوم على أساس قبح الاستعمار وشراسته، وإنما على العكس من ذلك، كانت تقوم على أساس أنا نحن البريطانيين، لم نكن ملزمين بأن ننفق تلك الأموال على بلد بعيد جدًا عنا.

كان مما يسوؤني في الغالب، حين يذكر لي أبناء الجيل الناهض في بريطانيا، بأنهم يشعرون بالخجل الواسع من شراسة الاستعمار البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى. فبالنسبة إليّ كانت خدمتي في العراق تعتبر على الدوام عملاً ينطوي على الحب.

كانت السنة التي أمضيتها بصفة موظف إداري مدني في العراق، تعتبر سنة تثقيفية وممتعة. فقد كان جميع الذين عملت معهم، سواء كانوا من الموظفين العراقيين أو شيوخ العشائر، يظهرون لي الود والمساعدة. ومع ذلك فقد غدت الأمور كئيبة بسبب فعل الساسة في بغداد، والذين كانوا يمارسون الضغط بصفة دائمة على المتصرفين، لكي يساعدوا المنتمين إلى أحزاب أولئك الساسة، بتفضيلات إدارية من أمثال خفض الضرائب المفروضة عليهم، أو تسوية المنازعات على الأراضي لصالحهم.

لقد جعلتني هذه التجربة أمقت السياسات الحزبية، واستهجنها طيلة حياتي. والحقيقة أن بريطانيا كانت معرضة إلى أي لوم بشأن علاقاتها مع العراق،ومن المحتمل أن يكون ذلك اللوم ناتجًا، في الواقع، عن استخدامها لنفوذها في إقامة نظام الديمقراطية والسياسة الحزبية في ذلك القطر. غير أن هذا كان قد وقع بنتيجة غيرة إنسانية خاطئة، وليس نتيجة استعمار شرير! (لا مجال لتبرئة بريطانيا في هذا المجال، من سوء النية والتطبيق، فلو كانت بريطانيا تعتزم إقامة حكم ديمقراطي في العراق، على أسس النظام القائم فيها، لاستطاعت أن تقيم مثل ذلك الحكم على الأسس الرصينة التي توطد أركانه، وتحقق ديمومته، وفي مقدمة تلك الأسس حرية الانتخابات، والكلام، والصحافة، والأحزاب، والحكم بالعدل في القضايا التي تحدث، وعدم اختيار طبقة معينة، حصرت بها وحدها مقومات الحكم ووجوده بحيث اندفعت تلك الطبقة فيما بعد إلى التناحر الشخصي البغيض، واستخدام العشائر والجيش إلى إزاحة البعض من زملائهم عن كراسي الحكم والحلول محلهم فيها).

ولم يتطرق إلى ذهني أدنى شك في أن مختلف الأعراق البشرية، كانت تحتاج، نتيجة لأمزجتها المتباينة وللآلاف من السنين التي انقضت في تغير الثقافة والتقليد، إلى أنظمة متباينة من الحكومة، ذلك لأن الاعتقاد بأن أي فرد يستطيع أن يقيم حكومة، تكون هي النموذج، لمجموع العنصر البشري، يكون وهمًا له خطورته البالغة.

وفضلاً عن ذلك، وفي الوقت ذاته فإن اقتراح نظام التبعية، الذي كان يراد تطبيقه أثناء الانتداب، لم يكن من الضروري له أن ينقص من قيام نظام أريد من ورائه تطبيق التعاون المثمر بين الأصدقاء.

وبإدراك متأخر، نستطيع أن نرى كيف حصل سوء التفاهم فيما بعد، ولذلك لم يكن هنالك أدنى عذر لتوجيه الاتهامات العنيفة بطريقة ما أو أخرى، لوجود طرف سافل في هذه الحكاية.

لم تكن بريطانيا، في حقبة العشرينات، تتسم بالنزعة التوسعية (لقد كانت بريطانيا حقبة العشرينات، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى هي الدولة الوحيدة في العالم التي تملك إمبراطورية لا تغيب الشمس عنها أبدًا) لقد بدأت آنذاك، بتقليص سيطرتها على الهند، فلماذا تريد، في مثل ذلك الوقت، أن تحصل على المزيد من البلدان في الشرق الأوسط؟ أما بالنظر إلى مصالح بريطانيا التي كانت ما تزال قائمة في الهند، وفي الشرق الأقصى، واستراليا، فقد كان خوفها الوحيد يتمثل في أن تقدم دولة كبرى، من أمثال روسيا، أو ألمانيا، على توطيد أقدامها في البلدان العربية، وأن تقطع المواصلات البريطانية مع المحيط الهندي.

لقد كانت بريطانيا تبدو سعيدة حين وجدت أن تركيا قد غدت تحت السيطرة، لأن الإمبراطورية العثمانية الضعيفة لم تكن تؤلف خطرًا عليها. غير أن مصير الحرب كان قد أدى إلى اختفاء الإمبراطورية العثمانية، وجعل بريطانيا هي التي تسيطر على العراق.

وكذلك فإنني أعتقد بأنه ينبغي على بريطانيا أيضًا، بأن تتحمل قسطًا معينًا من المسؤولية، وذلك لأنها ما أن وجدت نفسها، طائعة أم مكرهة، موجودة في العراق، فلم يكن لها أي حق في البقاء هناك إلى أن يستطيع العراق أن يصبح دولة مستقلة مدعمة بصفة ذاتية، ومن ثم تجلو عنه؟ .

- 8 -

الجدل حولَ السيقان الخلفية للحمار وحكمة القبطان

مرَّت السنتان 1925، 1926 بسلام على الحدود السعودية، وذلك لأن ابن سعود كان بعيدًا في الحجاز، حيث استولى على كل من مكة، والمدينة، وجدة، وأخرج منها الشريف حسين والد فيصل ملك العراق. ومع ذلك فقد عاد ابن السعود في خريف سنة 1926. وقد تحقق لدى اتباعه (الإخوان) بأنهم هم الذين اقتحموا الحجاز، وليس ابن سعود الذي لم يكن لديه جيش نظامي. وما أن اعتقدت القبائل بأن السلطة تكمن في أيديها حتى كانت على استعداد لأن ترفض سلطة ابن سعود.

وجد عبدالعزيز بن سعود نفسه في مأزق. لقد أثار بنفسه تطرف الإخوان، لكي يدحر منافسيه من العرب. أما الآن فإنه لا يستطيع أن يكبح جماح (الإخوان) وإن كان لا يود أن يثير خصومة بريطانيا له، بالإغارة على العراق. وطبقًا لذلك، وفي شتاء سنة 1926-1927، قام الإخوان بغارات مكثفة على الرعاة العراقيين وقد وصلت إحدى هذه الغارات إلى نقطة لا تبعد سوى خمسة وعشرين ميلاً عن محطة القوة الجوية البريطانية في (الشعيبة) خارج البصرة. والحقيقة أن الإخوان لو واصلوا غزوهم، لاستطاعوا ، أن يدمروا تلك المحطة برمتها.

لقد فشلت القوة الجوية البريطانية فشلاً ذريعًا في معالجة هذه المشكلة. أما أنا فإنني كنت ما أزال منهمكًا في الإدارة المدنية في منطقة الفرات الأوسط. وفي

اليوم الثاني من شهر آذار سنة 1928، تلقيت على حين غرة، برقية تنبؤني بأنني قد نقلت إلى الصحراء الجنوبية، وإذ ذاك وجدت نفسي أعود إليها، ولكن بالقليل من الاحترام، من دون مقر القوة الجوية البريطانية.

كنت منذ أن قدمت إلى العراق، ومنذ أيام عملي مع فرقة العمل في جسر الرمادي، ألقب باسم (أبي حنيك) (تحول الكاف في اللغة العراقي إلى الجيم الفارسية، فأصبح لقب غلوب عندهم هو أبو حنيج (وظل شائعًا حتى في الأردن أيضًا أبو حنيك). واللغة العربية تستخدم على نطاق واسع، صفة التصغير، وذلك بإضافة الحرف (ي) في وسط الكلمة. فالكلمة (حنك) تعني الفك الأسفل، في حين أن كلمة (حنيك) يقصد بها الفك المصغر. وعلى هذا فإن العرب حين كانوا يدعونني أبو حنيك.. فإنما يشيرون بالطبع إلى الجرح الذي أصبت به أثناء الحرب على مقربة من مدينة أرّاس في سنة 1917.

في سنة 1928 تلقيت اسمًا جديدًا من التكريم، لكنه يعتبر مع ذلك محدودًا بالنسبة إلى عالم البدو. فبين القبائل التي تعنى بتربية الإبل،غالبًا ما يتلقى المحاربون فيها أسماءهم من قطعان الإبل التي يملكونها، فيسمون أنفسهم (صاحب العالية) و(صاحب الضبطة) (تقول العامة (راعي) بدلاً من كلمة صاحب عادة). فالكلمات (عالية، وضبط) كانت تعني أسماء الإبل.

ولقد حدث في بعض الأيام (حين كنت غائبًا) أن شرع بعض البدو في خيمة الضيوف لدينا، يتناقشون في موضوع احتمال حماية لقطعانهم من الإخوان، حين تمتم أحدهم يتحدث بقوله (والله إنه صاحب الأبيض الصغير) (وكان يعني بذلك بعيره) ومن يومها أصبحت معروفًا بأنني (راعي وضيحة) أي (صاحب البعير الأبيض الصغير).

إن أي امرئ يخيم في الصحراء، يكون في حاجة لأن يهيئ نفسه لاستقبال الضيوف الذين لا يمكن منعهم من الدخول إلى المخيم والجلوس فيه. نتيجة لذلك كنا - إضافة إلى كل مواقعنا ومضاربنا - ننصب على الدوام خيمة خاصة بالضيوف، والتي تكون نافعة كأداة لجمع المعلومات.

فمن خيمة واحدة من خيام الضيوف التي كانت لدينا في هذا الوقت، كنت أتلقى التحايا التي أتذكرها دومًا. ذلك لأن البدوي، الذي ينتقل من منطقة لأخرى، يسأل رجل القبيلة المحلي عن نوعية الرجل الإنكليزي الذي كان معهم، فيرد رجل القبيلة بكلمتين قائلاً (دائمًا يضحك)! كنت على الدوام أحب الملاحظة التي كان يبديها (بروبرت لويس ستينفنسون) والقائلة (لا يوجد واجب نستخف به أكثر من الواجب الذي نغدو به سعداء).

في شهر آذار سنة 1928، كان موسم الرعي على وشك أن ينتهي، ولذلك أخذت العشائر تعود إلى ضفاف نهر الفرات. كانت لدي ستة أشهر كي أستعد لفصل مقبل من الغارات، التي قد تكون مكثفة على الأرجح.

أمعنت التفكير في كيفية تعليم العشائر العراقية عملية الدفاع عن نفسها. كان مقر القوة الجوية البريطانية يفكر عكس تلك الفكرة تمامًا. ولما كان هذا المقر يعتبر العشائر العراقية من المدنيين، فإنه طالب بإخراج تلك العشائر من الصحراء، بقصد أن يعهد إلى القوة الجوية البريطانية، بأن تلتحم مع الغزاة الذين لا يمكن أن يمكثوا في مكان ما.

كانت الرقابة الجوية ما تزال تحت التجربة حقًا، ولذلك كان مقر القوة الجوية متشوقًا، إلى أن يبرهن بأن كل شيء يمكن عمله من الجو وحده. ومنذ ذلك الوقت تعلمنا بأن القوات الجوية والبرية شركاء ضروريين، غير أن القوة الجوية البريطانية في سنة 1927 لم تكن لتأخذ القوات البرية بنظر الاعتبار.

ومهما يكن فقد كانت الحكومة العراقية متعاونة في هذا الموضوع إلى أقصى حدود التعاون. فطبقًا لما طلبته أنا بعثت إليّ الحكومة العراقية، بأربع سيارات تجارية من حمولة طن واحد، وأربع سيارات لحمل الماء، كانت قد اشترتها من الأسواق المحلية في بغداد. كذلك خولتني الحكومة العراقية، بأن أسجل مائة من بدو الصحراء في صفة شرطة.

وفي الوقت ذات كانت العشائر التابعة لنا ناقمة على الحكومة العراقية، لأنها كانت ترغمها على دفع الضرائب من دون أن تفعل شيئًا لحمايتها. ولذلك كانت المهمة التالية بالنسبة إليّ، هي أن أكسب ثقة عشائرنا، وتعاونها معنا، وهو أمر استطعت أن أحققه عن طريق الزيارات والمناقشات التي كنت أجريها مع تلك العشائر.

كانت خطتي تنطوي على ضمان التعاون المخلص التام من لدن عشائرنا، وأن أرتب في الوقت ذاته، استطلاعات أرضية تقوم بها شرطة الصحراء في سيارات، لكي تكون طليعة جديدة لعشائرنا، وبذلك ننقذ القوة الجوية البريطانية من ساعات لا نهاية لها من الاستطلاع المبهم في صحراء خالية، والتأكد من ذات الوقت، بأننا نستطيع أن نحدد مواقع الغزاة المتقدمين!

لقد علمت بأن العشائر العراقية من الرعاة والبدو على حد سواء كانوا في العهود التركية، وقبل أن يعمد آل سعود إلى إثارة التطرف الديني في الجزيرة العربية، قد اعتادوا أن يقودوا المعركة على القبائل النجدية، بما في ذلك قبيلة مطير ذاتها. وعلى هذا فلم أجد أي سبب يدعو إلى عدم إقدام العشائر العراقية، بما لها من قيادة ملائمة، على أن تدافع عن نفسها ضد الإخوان. ذلك أن أفراد العشائر لم يعودوا يعاملون من قبل القوة الجوية البريطانية بصفة مدنيين، وأنهم كانوا يؤمرون بأن يهربوا حين يتلقون الإنذار بوقوع غارات الإخوان عليهم.

في شهر نيسان سنة 1928، رافقت إحدى البعثات الدبلوماسية العراقية، إلى ابن سعود الذي كان مقررًا له أن يستقبلنا في جدة.. وقد تقرر أن يقوم السر غلبرت كلايتن الذي كان يعرف ابن السعود، بدور محكم بريطاني غير أننا ما أن وصلنا إلى القاهرة حتى قيل لنا بأن الوقت هو موسم الحج السنوي إلى (مكة) وأنه طبقًا لاتفاق دولي، لا يسمح لأحد بالهبوط في جدة خلال موسم الحج، إلا إذا كان قد سبق تطعيمه ضد قائمة مطولة من الأمراض الوافدة إلى الشرق. ووفقًا لذلك تم إعلامي بأنني لا أستطيع الذهاب إلى هناك، كما أنبأني الأطباء بأنني أحتاج إلى ثمانية أسابيع لمساعدتي على تلقي كل التطعيمات المطلوبة، مع حدوث فترات مناسبة بينها.

وحين سألت الطبيب، عما إذا كنت أستطيع أن أتلقى كل التطعيمات على الفور، رد علي بقوله أنه لم يسمع من قبل بإجراء من هذا القبيل. ومع ذلك استطعت أن أقنع الطبيب بأن يعطيني كل التطعيمات في مدى نصف ساعة من الوقت. ولم أصب بأي رد فعل إطلاقًا نتيجة لذلك. والذي أعتقده أنه كانت هناك سبعة أنواع من الأمراض الوافدة من بينها (الطاعون الدبلي) والكوليرا، والحمى الصفراء وغيرها.

وفي اليوم السابع من شهر أيار سنة 1928 اجتمعنا مع عبدالعزيز آل سعود في جدة. كان ابن السعود شديد التأثير على من ينظر إليه، لأن رأسه وكتفيه كانتا أعلى من أفراد حاشيته، وكان يمتلك الشخصية التي لا يمكن تحديدها، والتي كانت ترغم كل إنسان على أن ينفذ ما يأمر به. وفي الوقت ذاته كان تصرفه صريحًا وبشكل مبهج، وأبوي، مطبوع على حب الخير!!

كان من سوء الحظ أننا لم نستطع أن نتفاوض معه مباشرة. قد كانت تمثله جماعة من المحامين اللبنانيين، والفلسطينيين، والمصريين، الذين كانوا يتجادلون، كما عبرت عن ذلك أمي (حول السيقان الخلفية للحمار)!

كان ابن السعود قد جوبه بمشكلتين: أولاهما، وهي أكثر أهمية بالنسبة إليه، هي مشكلة اشد القبائل المتطرفة التي كانت تقوض سلطته وهما قبيلتا (المطير) و(عتيبة). أما المشكلة الثانية: فإنه ظل لسنوات عديدة، يحاول أن يبرر غارات هذه القبائل على العراق، وذلك بشكواه علنًا، من أن البدو القاطنين في العراق، كانوا يغيرون عليه.

كانت هذه الشكاوى قد أيدت بقوة، عن طريق المذكرات ذات اللهجة القوية، التي أصدرتها الحكومة البريطانية. والحقيقة أن هذه الغارات العراقية كانت صغيرة، وكانت تتم بصفة سرية، وتلقى التشجيع من لدن فيصل ملك العراق، والذي طُردت أسرته من الحجاز على يد ابن السعود.

ففي اليوم الخامس من شهر تشرين الأول سنة 1925 قامت قبيلة شمر بغارة واسعة من شمال العراق، فنهبت الإبل من الكويت، تلك الدول الصديقة المجاورة. كنت في ذلك الوقت ما أزال أعمل مع القوة الجوية البريطانية، ولذلك كان علينا أن ننهض للعمل، فنقصف الغزاة الذين كانوا يرتوون عند مجموعتين رئيستين من الآبار العراقية في الصحراء الجنوبية، وأعني بهما آبار (البصية) و(السلمان) (تقع البصية في المنطقة الجنوبية الغربية لمحطة (تل لحم) على سكة حديد بغداد - البصرة - أما السلمان فإنها تقع إلى الغرب كثيرًا من تلك المحطة).

نتيجة لتلك الغارة، فقد أوصيت ببناء حصون للشرطة عند آبار (البصية) و(السلمان)، لأن تلك أبسط وسيلة لإنهاء الغارات الصحراوية. وفضلاً عن ذلك، فإن هذه المواقع الصحراوية إذا ما زودت بأجهزة اللاسلكي، فإنها تستطيع أن تنقل إلى السلطات المختصة، كل أنباء تلك الغارات، والتحركات القبلية.

أرسلت توصياتي بهذا الشأن إلى مقر القوة الجوية البريطانية، التي أوصلتها بدورها، إلى الحكومة العراقية، التي صادقت على إقامة حصن للشرطة عند آبار (البصية). ومع ذلك ففي هذا الوقت (أي في شهر أيار سنة 1926) كنت قد غادرت الصحراء، لأصبح مفتشًا إداريًا للديوانية.

سارع (الإخوان) إلى تقييم خطتي لإقامة الحصون عند الآبار، وأن هذه الخطة سوف تضع نهاية للغارات الصحراوية. ولذلك تم في شهر أيلول سنة 1927 إرسال فريق مؤلف من اثني عشر عاملاً إلى (البصية) يصحبهم سبعة من أفراد الشرطة. وفي ليلة اليوم الخامس - السادس من شهر تشرين الثاني سنة 1927، قام فريق مؤلف من حوالي خمسين رجلاً من أفراد قبيلة (المطير) بمهاجمة مخيم العمال والشرطة فقتلوهم جميعًا ما عدا رجل واحد تخلوا عنه على أساس أنه ميت، لكنه نجا من الموت في الواقع. تم إرسال فريق آخر من العمال إلى البصية، ولكن كانت تصحبه في هذه المرة، سيارات مدرعة تابعة للقوة الجوية البريطانية، وإذ ذاك كمل بناء الحصن المطلوب.

ولغرض استرضاء قبائله المتمردة، وتهدئتها، طلب منا ابن السعود، وهو في جدة، تدمير الحصن الذي أقيم في (البصية). ولقد رددنا على طلبه ذاك، بأن الحصن كان قد أقيم لكي يساعدنا في منع قبائلنا من الإغارة على ابن السعود نفس، وكان ذلك أمرًا واقعًا حقًا.

لم يتم التوصل إلى حل، لأن ابن السعود لم يكن ليسيطر على أتباعه. ولقد كنت أنا شخصيًا أعطف كثيرًا على ابن السعود. وكان يبدو لي أن من المرغوب، فيه أن أساعده في بسط سلطته، لأنه إذا ما أخفق في ذلك، فإن الفوضى سوف تعم الجزيرة العربية كلها، ولذلك كنت أميل إلى منح امتيازات، إلى ابن السعود، أكثر مما كانت تقبل به الحكومة البريطانية أو العراقية.

عدنا إلى بغداد في نهاية شهر أيار سنة 1928، من دون التوصل إلى اتفاق مع ابن السعود. كانت لدي خمسة أشهر كي أستعد فيها لموسم الغارات المقبلة. وقد سبق لي أن تقدمت بمقترحاتي إلى الحكومة العراقية منذ شهر آذار. وقد طلبت إليها في تلك المقترحات الموافقة على تأليف فيلق للهجانة في الصحراء الجنوبية، والذي كان يتألف مما يلي:

1- سبعين هجانًا.
2- ثلاثين رشاشًا منصوبة على السيارات.
3- ثماني سيارات متنوعة، اثنتان منها مزودة برشاشات من طراز (فكرز).
4- أربع سيارات جديدة من طراز (فورد) مزودة برشاشات من نوع فكرز.
5- سيارات للاسلكي.

جوبهت هذه المقترحات بمعارضة من قبل (آمر الجيش) الذي قال بأنه لا يود أن يخوض أفراد الشرطة أي قتال، وأن القوة الجوية البريطانية، هي وحدها التي تقوم بمثل هذا القتال. والحقيقة أن الرد على الغارات التي يقوم بها آلاف المغيرين الذين يمتطون الإبل، يجب أن يكون بواسطة السيارات المدرعة المتوفرة لدى القوة الجوية البريطانية، لكن القوة الجوية البريطانية لم تكن ملتزمة بالعمل.

أخفقت الحكومة البريطانية أن تتفهم أن ابن السعود كان قد فقد سيطرته على القبائل التابعة له، ولذلك أعاقت خططنا الدفاعية التي اعتبرتها موجهة ضد ابن السعود. ولذلك بدا أن لا أمل هناك إطلاقًا لممارسة العمليات العسكرية في الصحراء، تلك العمليات التي سيطر عدد كبير من الموظفين الجالسين في دوائرهم ببغداد ولندن، سيطرة مطلقة على كل تفاصيلها. ووفقًا لذلك فقد صممت بأن استخدم قوتي الصحراوية الجديدة بمثابة نقطة متحركة قوية، تتجمع حولها القبائل العراقية.

ومع أنه كان من اليسير إقناع مقر القوة الجوية البريطانية بذلك، إلا أننا كنا نعتمد بالدرجة الأساسية، على الطائرات التي كان (الإخوان) يخشونها، كما أنني كنت في ذات الوقت، أتمتع بمساعدة وثيقة وحماسية من الرف الثامن والأربعين من القوة الجوية البريطانية القائمة في (الشعيبة)، والتي كانت الوحدة الجوية هناك تشتمل عليه تمامًا.

وسرعان ما انطلقت قبائلنا، فاندفعت في شهر تشرين الثاني نحو الحدود. كنا ملزمين بأن نسير مع هذه القبائل، ولذلك خيَّمنا في موقع (المغيزل) في الرأس الشمالي للمنطقة المحايدة. وبالإضافة إلى تنظيم القبائل العراقية ، إعدادها للعمل طبقًا لأوامرنا، سعيت إلى تحقيق نظام التجسس الذي كنت أشرف عليه بمدى واسع داخل أراضي الإخوان ذاتها، وبذلك أصبح جواسيسي الآن يأتونني بالأنباء، بصفة اعتيادية، من المخيمات التابعة للإخوان.

ومن التحريات التي قمت بها بشأن الحرب القبلية الصحراوية القديمة، استطعت أن أكتشف بأن نظام الدفاع المعترف به كان قائما، وإن كان يتألف من نصب جميع الخيام في خط مستقيم، تكون فيه الواحدة قريبة من الأخرى بحيث تصبح حبال الخيام متداخلة فيما بينها، وحينذاك يتم ربط كل الإبل والأغنام خلف الخيام. وإذا ما كان المخيم واسعًا، فإن من المحتمل أن يمد خط ثاني مشابه من الخيام، خلف الخط الأول. فهذه الخطوط المؤلفة من الخيام، بالحبال المتقاطعة فيما بينها، تؤلف عقبة لا يمكن التسلل خلالها للوصول إلى الخيول المربوطة وإلى راكبي الإبل.

والحقيقة أن الإبل، باعتبارها أداة للركوب، لا تستخدم، على نطاق واسع، أداة للقتال، ذلك أن سكان نجد حين يواجهون بمعركة جدية، تراهم

يترجلون عن إبلهم ويعقلونها،ومن ثم يتقدمون إلى القتال سيرًا على الأقدام. ولكن حين تكون الخيام التي يجري الدفاع عنها، منظمَّة أساسًا على هيئة خطوط، فإن كل واحد من الرجال المدافعين، يستطيع أن يفتح له فجوة لبندقيته أمام الخيمة،وأن يطلق النار على العدو الذي يتقدم سائرًا على قدميه.

على هذه الشاكلة كانت تجري أساليب الدفاع البدوية القديمة. غير أننا أدخلنا تحسينات على هذه الطرق القديمة، بأن شرعنا نحفر المتاريس أمام خطوطنا، ومن ثم كنا نزل رشاشاتنا من سياراتنا ونثبتها في تلك المتاريس، وبذلك كانت تتهيأ لنا نار جبهوية، يمكن إطلاقها بانتظام ضد العدو المتقدم نحونا.

ومهما يكن الأمر فقد كان المردود السلبي لهذا النظام، أن أصبحت قطعان الماشية والأغنام لا تستطيع أن ترعى، ونتيجة لذلك فإن مثل هذا الخط الدفاعي القوي لا يمكن الاحتفاظ به لأكثر من أربع وعشرين ساعة، بل أكثر من ثماني وأربعين ساعية على أعظم تقدير. وثانيًا أن بناء الخيام، بمثل هذه الكثافة، يتطلب وجود تجهيزات مائية واسعة جدًا، حيث يفضل في مثل هذه الحالة تهيئة غدير كبير من ماء المطر.

والواقع أن الاحتفاظ بالموقع الدفاعي لوقت قصير، يعني بأن المخيمات القبلية، يجب أن تترك متناثرة على مدى واسع لغرض الرعي إلى حوالي أربع وعشرين ساعة، قبل أن يبدأ العدو بالهجوم. ومثل هذا الأمر يتطلب الحصول على معلومات دقيقة تمامًا، بالنسبة إلى الوقت المحتمل الذي سوف يقدم العدو خلاله على الهجوم. كذلك يتطلب الوضع أيضًا،إطاعة دائمة من لدن جزء من القبائل التي ما أن تتلقى الدعوة للتعسكر، حتى تكون قد سارت يومًا وليلة للوصول في الوقت الملائم لإقامة الخط الدفاعي. لقد أوضحت كل هذه

العمليات عن طريق الموظفين القابعين في دوائر بغداد، أو الحكومة البريطانية، فإن الإجراء الوحيد كان يتمثل في استخدام الطرق القبلية للدفاع عن أنفسنا، والتخلي عن أمل مساندة الحكومة لنا. وكان من حسن حظنا أن (الإخوان) لم يكونوا يعرفون، بأن القوة الجوية البريطانية، لم تكن تساندنا في المعركة!

في اليوم السابع عشر من شهر شباط سنة 1929، جاءني أحد جواسيسي الذين اعتمد عليهم بمعلومات مفصلة. كان فيصل الدويش رئيس قبيلة المطير يتقدم ضدنا بآلاف من راكبي الإبل، وأنه قرر أن يهاجمنا في فجر يوم العشرين من شهر شباط. بعثت ببرقية لاسلكية إلى مقر القوة الجوية طالبًا إليه إرسال ما لديه من السيارات المصفحة، وعلى أثر ذلك أرسلت إلى كل القبائل العراقية بأن تتجمع حول مخيم شرطتنا في (البطّية) (موقع لآبار خفيفة يقع على الطريق بين نقرة السلمان وآبار البصية إلى الجنوب منها بمسافة ثمانين كيلو متر، وأهم بئر فيه هو بئر (تكيد) الكاف المعجمة، ومعناه (خذ حذرك) والتي تقع على يمين الطريق).

وضعنا خطط المعركة مع هذه القبائل بكل عناية، وإذ ذاك تجمعت القبائل على الفور. وفي اليوم التاسع عشر من شهر شباط،كانت كل القبائل العراقية، قد تمركزت في خط صلب، مع وجود ساتر من شرطة الصحراء وسط ذلك الخط. وصلتنا إشارة من مقر القوة الجوية البريطانية يرفض بها إرسال السيارات المصفحة ويقترح بأن علينا أن ننسحب قبل أن يصل المغيرون من الإخوان.

في اليوم التاسع عشر من شهر شباط بدأت في مخيمنا رقصات حربية لتقوية شجاعتنا، ولقد عرضت تلك الرقصات مفارقة مهمة بين مختلف مراحل التقدم الحضاري. ذلك أن الرعاة كانوا يمارسون ما عرف بالهوسات وهي رقصة نشطة ذات طاقة تنطلق فيها نيران البنادق في الهواء. أما البدو الذين كانوا

يركبون الإبل فإنهم كانوا كالعادة أكثر تميزًا، لأنهم وقفوا في خط طويل وهم يتمايلون بخفة وفقًا لأصوات إنشادهم.

لقد كان أمرًا ملحوظًا كيف أن حضارة أواسط الجزيرة العربية تؤكد الهدوء، والاعتبار، على نقيض الرقصات العراقية الصاخبة العاصفة. في فجر اليوم العشرين من الشهر كنا ننتظر هجوم ألوف كثيرة من راكبي الإبل المغيرين، غير أن شيئًا من ذلك لم يحدث. ولقد مضت ثلاثة أيام قبل أن نسمع بأن فيصل الدويش قد وصل فعلاً إلى الموقع في ليلة التاسع عشر - العشرين من شباط.

ففي منتصف تلك الليلة وصل ابن الدويش إلى (جليدة) (جليدة بئر تقع على مسافة مائة وخمسة وثلاثين كيلومترًا عن البصية)، في المنطقة المحايدة على بعد حوالي خمسة وثلاثين ميلاً من موقعنا الذين حسبنا بأنه سوف يهاجمه عند الفجر. كان قد اتخذ الحذر لوضع جاسوس في مخيمنا سوف يلتقي معه عند منتصف الليل عند جليدة. ولقد أفهمه ذلك الجاسوس بأن جميع القبائل قد تهيأت للمعركة. لم يكن فيصل الدويش بالطبع قد عرف بأن القوة الجوية البريطانية قد رفضت مساعدتنا. وبناء على ما أنبأه به جاسوسه، وجد أن إقدامه على القيام بالهجوم سوف يكون محفوفًا جدًا بالمخاطر ولذلك انسحب نحو الجنوب.

يستحيل على المرء (بعد مرور خمسين سنة) أن يتحقق من نوعية هذا الحادث الممزق، الذي كان يقع في الصحراء. ذلك لأن (الإخوان) قد اعتادوا طيلة عشر سنوات، النهب والقتل في كل أنحاء الصحارى الجنوبية للعراق. أما الآن فإنهم، على حين غرة، قد تراجعوا عن تلك الأعمال بصفة مشينة، ولم يكن مثل هذا الحادث ليبدو بأنه شيء أقل من معجزة!

أمضينا مع القبائل العراقية الشهرين الأخيرين من مواسم الرعي في عشب أخضر رائق، وفي روحية من الانتعاش والسمو لا مجال إلى وصفها. ترى هل

كانت نهاية السنوات العشر الطوال من الرعب، قد أصبحت منظورة؟ لقد أنقذنا ابن السعود بصفة عرضية أيضًا. فلو أن (الإخوان) المتمردون عادوا مثقلين بالغنائم، لعاد ذلك على ابن السعود، وعلى أواسط الجزيرة العربية، بتفاقم الفوضى الناجمة عن القبائل المتحاربة. والحقيقة أن المغيرين من (الإخوان) عادوا خالي الوفاض، الأمر الذي أدى إلى التفاف (نجد) حول ابن السعود.

في اليوم التاسع والعشرين من شهر آذار سنة 1929 خاض ابن السعود. معركة عنيفة مع القبائل المتمردة من (مطير) و(عتيبة) في موقع (سبلّة) (سبلّة على حدود المعين الذي كان يؤلف المنطقة المحايدة بين العراق والسعودية)، ودحرها. ومنذ ذلك الوقت وما بعده أصبحت العمليات الحربية الكبرى، مستحيلة الوقوع، نظرًا لقلة المياه.

ففي طيلة صيف سنة 1929 كانت نجد في حالة من الفوضى،وكانت القبائل المتمردة على ابن السعود، والموالية له، تغير إحداهما على الأخرى. أما الغارتان اللتان قام بها (الإخوان) على العراق، قد أمكن صدهما ودحرهما بسياراتنا المصفحة، ومن دون إسناد جوي.

خلال ذلك الصيف استسلمت قبيلة (عتيبة) لابن السعود، وتركت قبيلتي (مطير) و(العجمان)، اللتين فقدتا الأمل الآن، خارج الحسبان. وفي اليوم الثلاثين من شهر تشرين الثاني سنة 1929، خيَّمنا في (جليد) في المنطقة المحايدة، وقد خيمّت معي شرطتي الصحراوية المتحركة، وأحاطت بها القبائل العراقية التي امتلأت الآن بروحية القتال. وفي اليوم الثالث عشر من شهر كانون الأول سنة 1929، وصل وفد من قبيلة (مطير) التي اعتادت خلال السنوات العشر الماضية، أن تنهب العراقيين، وتقتلهم باستمرار، أقول وصل هذا الوفد إلينا

يطلب اللجوء إلى العراق، وإذ ذاك سارعت قبيلة (شمر) والقبائل النجدية المخلصة الأخرى، بالانضمام إلى القبائل العراقية، خوفًا من قبيلة (مطير).

لم نكن طيلة السنوات العشر الماضية المليئة بالفزع في الصحراء، نحلم بهذا المنقلب العجيب، وتبدل الأوضاع تبدلاً تامًا. لا أستطيع الآن أن ألمّ بالكلمات التي تصف التأثير العجيب لهذا التغير غير المتوقع في الحظ. ذلك لأن القبائل العراقية كانت، طيلة عشر سنوات، تعيش في حالة خوف متواصل من المذابح، وتغامر بحذر في الخروج إلى الصحراء بحثًا عن العشب الجديد النامي، ومن ثم تنطلق هاربة في ذعر شديد، حين ترد إليها إشاعة ما عن الخطر. فقد كان يتم، في كلِّ سنة غالبًا، الاستيلاء على مخيم أو مخيمين للرعاة، وتتم تصفيتهم.

ولقد عشت أنا نفسي ست سنوات في خوف دائم على ظهور الإبل، أو في سيارتي من طراز (فورد)، أو أن أعيش وحيدًا في خيمتي الصغير البيضاء على عمق سبعين ميلاً داخل الصحراء، لكي أشجع الرعاة العراقيين على التحرك.

ولم أكن أحس بأنني كنت أخاطر بحياتي لخدمة العراق، مدعمًا بموافقة الحكومة العراقية، وحماستها، أو من الحكومة البريطانية، بل على العكس من ذلك كانت الحكومة العراقية آنذاك، لا تميل إلا لتحضير القبائل، وتنظر إليها نظرة كراهية وعدم مبالاة. أما الحكومة البريطانية فإنها كانت تتطلع على تحسين علاقاتها مع ابن السعود، ولا تجد أية حاجة إلى مضايقته، في الوقت الذي لم تكن فيه الحكومة العراقية لتطلب أية مساعدة. وفي هذه الحالة لم تفعل القوة الجوية البريطانية، في فترات الفزع، أكثر من أن تنبئ القبائل العراقية بأن تهرب!

أما الآن، وبعد ذلك العدد الكبير من السنين، التي تسللت في خوف، فإننا قد وجدنا أنفسنا، على حين غرة، محاطين بقبائلنا العراقية مع القبائل الموالية

لابن السعود، وهي تحتمي وراءنا، ويروح (الإخوان) الخائفون يتوسلون إلينا لكي نسمح لهم بالالتجاء إلى العراق ! لقد كنت أفرك عيني، ويندر أن أصدق بأن ذلك قد حدث حقًا!!

في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الأول، وفي مثل هذه الحال الحذرة، حيث كانت توجد القبائل المتمردة على الحدود، وقبائل عراقية، وموالون نجديون كانوا قد خيَّموا حولنا، تلقينا بغتة أمرًا قاطعًا يقضي بضرورة الانسحاب. ومهما يكن الأمر، ففي اليوم التالي هبط رئيس أركان القوة الجوية، عميد الجو (بونت) في مخيمي. فبعد عشر سنوات من العمليات العسكرية، يبعث آمر القوة الجوية البريطانية، بضابط كبير إلى الجبهة! ومن ثم سارت الأمور سيرًا حسنا، على أساس أن وقائع الحال كانت واضحة.

في اليوم الخامس من شهر كانون الثاني سنة 1930، ظهر ابن السعود مع كل قواته فجأة في موضع (الركعي) (موقع يقع على رأس معين المنطقة المحايدة، من ناحية الشرق فيه آبار ماء خفيفة قليلة العمق، ومياهها عذبة، تبعد عن الزبير بمقدار مائتين وخمسة كيلو مترات). وعلى بعد ثلاثة أميال ليس إلا من المخيم الذي كنت فيه. وصلت سيارة من الملك ابن السعود تحمل السيد يوسف الياسين، أحد المحامين السوريين لدى ابن السعود، وفي الوقت ذاته استبد الخوف بالقبائل المتمردة على ابن السعود فهربت إلى داخل أراضي الكويت، فأصبحت الآن خارج نطاق حكمنا.

وفي اليوم العشرين من شهر كانون الثاني في سنة 1930، تم عقد اجتماع بين ابن السعود وممثلين عن بريطانيا والكويت، تم الاتفاق فيه على إخراج القبائل المتمردة من الكويت (تم التوصل بين شيخ الكويت وابن السعود، وبتأثير

بريطانيا طبعًا، إلى اتفاق يتضمن قطع الإمدادات عن القبائل المتمردة من نجد والتي التجأت إلى الكويت، واستطاع ابن السعود عن طريق هذا الاتفاق أن يتخلص من فيصل الدويش وأنصاره، وأن يحسن علاقاته مع العراق ومع الكويت). والعودة إلى نجد، الأمر الذي تم تنفيذه على الفور.

أظهرت الحكومة البريطانية، التي كانت تتطلع دوما إلى تحقيق الهدوء، رغبتها في اقتناص هذه الفرصة لتحقيق المصالحة بين فيصل ملك العراق، وعبدالعزيز بن السعود، وحيث أن أيًا من الملكين لم يكن يرغب أن يزور الآخر، فقد تم إعداد اجتماع على ظهر مركب شراعي هو السفينة (س. لوبين) في الخليج العربي بعيدًا عن منظر الأرض.

وفي مساء اليوم الحادي والعشرين من شهر شباط، وصلت ثلاث سفن في الموعد المحدد لها. كانت إحدى هذه السفن تقلُّ الوفد العراقي الذي كان يتألف من الملك فيصل، ورئيس الوزارة العراقية (هو المرحوم ناجي السويدي). ومستشار وزارة الداخلية (كنهان كورنواليس) والمندوب السامي البريطاني في العراق (هو السير فرنسيس همفريز)، وإلى جانب هؤلاء شارك عدد من الأشخاص من بينهم (فيفان هولت) سكرتير المندوب السامي، الدكتور سندرسن الطبيب الخاص للملك فيصل الأول، ومارشال الجو (لود لوهوت) وملاح السفينة لوبين، وهو السرجون ألين) وأنا باعتباري خبيرًا بالأمور القبلية. تم إرسال سفينة بريطانية لجلب وفد ابن السعود، وكان المقرر أن تتم الاجتماعات على ظهر السفينة (لوبين).

وفي ذات المساء صعدنا إلى ظهر السفينة (لوبين) لترتيب تفاصيل الاجتماعات، وقد طُلب إلى ربان السفينة بأن ينزل ممرين خشبيين، أحدهما عند

الجانب الأيمن من السفينة للسماح بصعود الملكين إلى ظهر السفينة في آن واحد، وان يلتقيا في الوسط. غير أن الربّان أعلن بكلٍّ أسف أنه ليس لديه سوى ممشى واحد. ولقد أحدثت هذه الحقيقة أزمة، ولكن الربان نفسه توصَّل إلى حل منطقي، فقد أعلن يقول: (في قوانين البحرية يكون الرجل الذي هو أكبر سنًا هو الذي يصعد إلى ظهر السفينة في الأخير! فلماذا لا توضحون هذا للملك فيصل، وتطلبون إليه، طبقًا لذلك، أن يصعد إلى ظهر السفينة في الأخير، ثم تدعون ابن السعود الذي لا يعرف العادات البحرية، بأن يصعد إلى ظهر السفينة أولاً؟..)

تم اختيار هذا الاقتراح بكل نجاح، وكان كل من الملكين يعتقد بأنه قد ظفر بالتقدم على صاحبه. ولا يمكن القول بأن أيًا من الملكين كان يحب أحدهما لأول نظرة. ولكن الواقع أنهما قد اجتمعا، وأكلا، وشربا سوية، وبصورة يصعب التوصل إليها، وأهم من ذلك كله أن اجتماع (لوبين) كان قد أدى إلى سلام دائم، قد انقضت بعد ذلك الاجتماع خمسون سنة لم تستأنف خلالها الغارات، لا على حدود العراق أو حدود السعودية.

كان تكريسي لنفسي في سبيل الدفاع عن قبائل الرعاة، نتيجة ارتباطي الشخصي المحبب معها. ومع كل ذلك كان (الإخوان) في حقبة العشرينات، ما يزالون يؤلفون خطرًا جديًا على العراق. ففي الفترة التي سبقت السلطة الوهابية، في بداية القرن التاسع عشر كان (الإخوان) قد أشاعوا الذعر في كل مدن الفرات الأدنى، وقد دكوا حتى مدينة (كربلاء) المكان المقدس لدى الشيعة. ولذلك كان من المستحسن، على وجه التأكيد ، أن تتم مجابهة (الإخوان)، وردهم بعيدًا إلى داخل الصحراء، بدلاً من السماح لهم بالوصول إلى مدن الفرات الأدنى وقراه، وبث الرعب فيها.

حين كنت في الصحراء، كنت أحس بالخوف، أكثر مما كنت أشعر به حين كنت في فرنسا، خلال الحرب العالمية الأولى، ذلك لأن احتمال أن تقتل في فرنسا كان أوسع من أن تقتل في الصحراء. والحقيقة أن كثيرًا من الرفاق الذين قتلوا في الحرب كان يبدو عليهم بأن الموت الذي اختطفهم كان أقل فزعًا لهم. أما في الصحراء فإنني كنت وحيدًا تمامًا، ومن دون رفاق يساندونني. ذلك لأن عملياتي في الصحراء لم تحظ لا بالدعم، ولا بالموافقة، لا من قبل الحكومة البريطانية، أو الحكومة العراقية. فإذا جابهتنا الكارثة فأن المسؤولية سوف تلقى على عاتقي وحدي ليس إلاّ!

- 9 -

مع الفيلق العربي في الأردن

في الوقت الذي كانت تجري فيه حربنا القبلية واجتماع الباخرة (لوبين). كان الانتداب الذي فرضته عصبة الأمم على العراق قد انتهى في سنة 1928، وكانت بريطانيا تضغط على قبول العراق في عصبة الأمم، باعتباره دولة مستقلة، في ذلك الوقت كنت شخصيًا، قد كرست جهودي لهذا القطر، غير أن مستقبلي، بصفة عضو في الإدارة، بدا مشكوكًا فيه.

وفي ذلك الوقت بالذات كانت حكومة شرقي الأردن، التي ما تزال تحت الانتداب، لم تتخذ الخطوات اللازمة لتدعيم سلطتها في صحاريها. وما أن سمعت حكومة شرقي الأردن، بتوطيد القانون والنظام في صحارى العراق، حتى تشجعت على انتهاج نهج العراق، وعرضت عليَّ أن تستخدمني لديها لهذا الغرض. ونظرًا لعدم تأكدي من مستقبلي في العراق، فقد أبديت استعدادي لتقبل ذلك العرض.

استدعيت إلى القصر ببغداد لأتلقى توديعي الرسمي من لدن الملك (فيصل)، ولأتلقى منه وسام الرافدين. لقد كان الملك معروفًا بالنسبة إلى شرقي الأردن، لأن الأمير فيصل هو الذي قاد القوات العربية، التي شقت طريقها من (العقبة) إلى (دمشق) في الحرب العالمية الأولى، باعتبارها حليفة لبريطانيا.

كانت تلك، بالطبع، هي الحرب التي نال فيها لورنس الشهرة، وحقق فيها سمعته السيئة بتبذيره الأموال (وكلها من النقد الذهبي) على القبائل البدوية.

وجه إليّ الملك فيصل كلمة الوداع في صفة نصيحة فقال يخاطبني (لا تعط المال إلى البدو. إن في مستطاعهم أن يفعلوا كل شيء من أجل التكريم. أما أن تهبهم المال فإن ذلك سوف يحطم صفاتهم الخلقية!).

كانت إمارة شرقي الأردن تمتد حوالي مائتين وخمسين ميلا، من الشمال إلى الجنوب، ومائة وثلاثين ميلاً من الغرب إلى الشرق، وهذه تعادل في الغالب نفس مساحة إنكلترا، من دون اسكوتلندا، أو ويلز. غير أن الأرض القابلة للزراعة، وسقوط الأمطار الكافية لزراعة القمح، ونمو الأشجار، لا تؤلف سوى أكثر بقليل، من سدس أراضي القطر، أما البقية فهي صحراء. كانت المنطقة الصحراوية تتألف بصفة رئيسة من تلال جبسية متموجة، ينتشر فيها حجر الصوان بصفة عامة. أما في ناحية الشمال، فإن الصحراء مغطاة بمقذوفات بركانية مندرسة، بينما تشتمل في ناحية الجنوب، على سلسلة من جبال تعرف باسم (جبال طبيق) (جبال طبيق: تقع إلى الشمال الغربي من المملكة السعودية، وفي جنوبي صحراء الصوان التي تحاور عند الغرب وادي سرحان، وتمتد حتى مدينة (معان) في الأردن). أما الحدود الغربية لشرقي الأردن فإنها تتألف من نهر الأردن ومن البحر الميت، وواد منحدر واسع يدعى وادي (عربا) الذي ينحدر إلى خليج العقبة.

أقامت الإدارة الحكومية وسلطتها. في المنطقة المزروعة وحدها،وكانت تضم مناطق معروفة مثل (مواب) و(جليد) التي وردت في التوراة. وكان حاكم الأردن هو الأمير عبدالله أخ فيصل ملك العراق، وابن الشريف (حسين) الذي طرده (ابن السعود) من مكة.

كانت القبيلتان البدويتان اللتان تعنيان بتربية الإبل، هما (بني صخر) و(الحويطات)، وإن كانت توجد بعض القبائل البدوية الأخرى الصغيرة التي تعني بتربية الإبل أيضًا من أمثال (سرحان) و(عيسى) و(سردية) و(أهل الجبل) الذي كانوا يسكنون التلال البركانية الشمالية.

ونظرًا لأن الأمير عبدالله هو ابن الشريف حسين، فقد كان الود معدومًا آنذاك بين شرقي الأردن،والبلاد التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم المملكة العربية السعودية غير أن حدود شرقي الأردن، كانت أكثر بعدًا عن المناطق التي كانت تسكنها قبائل (الإخوان) المتطرفة، ونتيجة لذلك كانت غارات هذه القبائل على شرقي الأردن، أقل حدة مما كانت تجري على العراق.

وفضلاً عن ذلك، ففي سنة 1924 اقتحمت قوة واسعة تمامًا من (الإخوان) تضم الألوف من الرجال الأشداء، أراضي شرقي الأردن، ووصلت إلى مكان يدعى (زيزيا) على بعد عشرة أميال حسب، من (عمان)، حيث كان مستطاعًا احتلالها بعد فترة قصيرة، والقضاء عليها قضاء مبرمًا.

كانت للقوة الجوية البريطانية نقطة هبوط في (زيزيا). وقد صادف أن كانت إحدى سيارات القوة الجوية البريطانية، التي تنقل الوقود إلى نقطة الهبوط، قد وصلت في اللحظة الحرجة. لقد شاهد سائق تلك السيارة نوعًا من معركة قائمة، ولذلك أسرع بالعودة إلى معسكر القوة الجوية البريطانية في عمان لينبأه بما كان يحدث.

حلقت طائرات القوة الجوية البريطانية، فصدت المغيرين، بإلقاء قنابل صغيرة عليهم، في الوقت الذي وصلت فيه السيارات المصفحة التابعة للقوة الجوية البريطانية إلى مكان الحادث. كان ألوف من راكبي الإبل، الذين كانوا

يتقدمون في ريف مكشوف، قد وجدوا أنفسهم من دون حماية أمام السيارات المصفحة، ولذلك تلقى الإخوان هزيمة منكرة، حفظت شرقي الأردن في السنوات التي تلت ذلك من مذابح غارات كبيرة أخرى.

كان من نتيجة ذلك أن بقيت العلاقات بين شرقي الأردن، وابن السعود من سنة 1926 حتى سنة 1930، في غمر حرب دبلوماسية. استمرت الغارات الصغرى من قبل كلا الجانبين، وكانت تلك الغارات تستهدف نهب الحيوانات، وليس ارتكاب المذابح، ومع ذلك بقي ابن السعود يحتفظ له في لندن بنهر متدفق من الشكاوى.

تولت بريطانيا الاحتفاظ بالانتداب على شرقي الأردن، وكانت مسؤولة عن الدفاع عن حدوده، غير أنها كانت في الوقت ذاته تحتفظ بعلاقات ودية مع ابن السعود، ولذلك كانت شكاوى ابن السعود، يجري نقلها إلى شرقي الأردن بخبث إضافي! .

في هذا الإطار الدبلوماسي كانت حكومة شرقي الأردن هي المتضررة، لأنه ليست لديها السيطرة على صحاريها، وليست تعرف بما كان يجري هناك، ولم تستطع أن تفند اتهامات ابن السعود، أو أن ترد باتهامات مضادة لغارات سعودية (كانت متواصلة تمامًا) لأنه ليست لديها أية فكرة عما كان يحدث.

حين ظهرت شرقي الأردن إلى الوجود في سنة 1921، نتيجة تفكك الإمبراطورية العثمانية، كانت قد ورثت معظم الجيش الذي استطاع به الأمير فيصل، الاستيلاء على دمشق في سنة 1918 فهذه القوة، وإن لم يكن تعدادها، ليزيد عن ألف وخمسمائة نفر، كانت تضم وحدات من المدفعية والمخابرة.

وإذ كان هذا هو الجيش العربي الوحيد الذي خاض غمار الحرب العالمية الأولى، فقد أطلق عليه اسم الجيش العربي. وحين طرد الفرنسيون (فيصلاً) من

دمشق، كانت بقايا هذا الجيش، قد التفت حول شقيقه الأمير عبدالله. ومع ذلك فإن الحكومة البريطانية لم تكن ترتاب من إخلاص هذه القوة، ولذلك أعلنت بأن ألفًا وخمسمائة رجل لا يمكن أن يؤلفوا جيشًا، ولهذا أطلقت عليه اسم (الفيلق العربي).

أودعت قيادة هذا الفيلق إلى العقيد (بيك) الذي عمل مع فيصل ولورنس. وكان من سوء حظ الفيلق العربي، أن عين (اللورد بلومر) مندوبًا ساميًا على فلسطين وشرقي الأردن (كان بلومر يحمل رتبة فريق (فيلد مارشال) وكان آمرًا للجيش الثاني في فرنسا وبلجيكا في الحرب العالمية الأولى، وكان أبي يحتل منصب رئيس المهندسين في هيأة أركان بلومر هذا).

التحم العقيد (بليك) بجيشه الصغير هذا في سلسلة من العمليات العسكرية في شرقي الأردن، ضد القبائل المتمردة التي لم يستطع الأتراك أن يسيطروا عليها، واستطاع بكل نجاح أن يوطد أركان القانون والنظام.

ومع كل ذلك، وعند هذه النقطة، كان اللورد (بلومر) المندوب السامي الجديد قد جاء في زيارة رسمية إلى الأمير عبدالله. أبلغ الفيلق العربي بأن يهيئ حرس الشرف، وسارع كثير من الرجال إلى إظهار كيفية عرض السلاح.

أدى هؤلاء العرض تمامًا حين وصل اللورد بلومر، فقام هذا بتفتيش الحرس، ولكنه بدلاً من أن يدخل إلى القصر، كما كان متوقعًا، بقي واقفًا مكانه، وقال: (اصرفوا الحرس من فضلكم!) وكانت تلك مناورة لم يكن أفراد الحرس مستعدين لها وقد أوقعتهم في شيء غير قليل من الارتباك!

بعث اللورد بلومر إلى لندن بما هو مناقض للفيلق العربي، واقترح بأن يتم خفض عدده إلى النصف، وأن يتم إنشاء قوة جديدة يتولى إمرتها ضباط

بريطانيون، للدفاع عن حدود شرقي الأردن، التي كانت بريطانيا مسؤولة عنها، وفقًا لصك الانتداب. وعلى هذه الصورة تم تجريد الفيلق العربي الذي أنقص عدده، من مدفعيته، ومن مخابراته، ومن وحداته الإضافية، واصبح مسؤولاً عن الأمن الداخلي ليس إلا.

ومع كل ذلك واصل ابن السعود اتهاماته الصادرة من جانب واحد، بأن قبائل شرقي الأردن، كانت تغير على رعاياه، وأن الحكومة البريطانية قد أمرت بإرسال قوة الحدود الأردنية إلى الصحراء وهي تحمل أوامر مشددة بمنع القبائل الأردنية من الإغارة على الأراضي السعودية. ولم ترد أية إشارة عن منع الغارات السعودية على شرقي الأردن، وإن كانت هذه الغارات في الواقع متعددة، مثل الغارات التي كانت تصدر من الجهة المقابلة.

في ربيع سنة 1930 قام (الإخوان) بغارات على شرقي الأردن، كانت الأولى يتزعمها ابن عم ابن السعود، وقد ألحقت خسائر فادحة بالقبائل الأردنية. وفي هذه اللحظة بالذات، كان قوة الحدود الأردنية قد وصلت إلى الصحراء، وهي تحمل أوامر متحيزة بصفة جماعية ضد القبائل الأردنية!! وعلى هذه الشاكلة وجدت القبائل الأردنية مستضعفة من جانب حكومتها، ومدمرة بغارات من الجانب الآخر!

تقرر أن تجري محاولة وتهيئة شيء من النظام في غمرة هذه الفوضى، ولذلك استدعتني الحكومة الأردنية لأن أتولى السيطرة على الصحراء التابعة لها، وعلى هذا الأساس منحت رتبة لواء في الفيلق العربي، وطلب إلي بأن أوطد القانون والنظام في منطقة الصحراء.

بادرت بتسجيل مائة رجل، وسبعين من الهجانة، وثلاثين رشاشة محمولة على سيارات، وهي ذات القوة الصحراوية، التي سبق لي أن أنشأتها في العراق.

كانت هذه العملية تحتاج إلى المال طبعًا. وفي الوقت الذي تمت فيه المصادقة المالية على ذلك (لأن بريطانيا هي التي ستدفع هذه الأموال) كنت قد توجهت إلى الصحراء.

كانت قبيلة (الحويطات) قد تولاها اليأس، بعد أن هصرت، وجرى تهديدها، ودفعها عن مواطنها من قبل قوة الحدود الأردنية، بناءً على اتهامها بأنها كانت تغير على أراضي ابن السعود، في حين أن هذه القبيلة كانت تجابه بصفة منتظمة، بغارات من الجانب السعودي، في الوقت الذي لم تكن فيه لدى قوة الحدود الأردنية، أية أوامر لأن تحمي هذه القبيلة من الغارات الصادرة من الأراضي السعودية.

استطعت، خلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول من سنة 1930، أن أطوف بسيارتي حول مضارب قبيلة (الحويطات) والتحدث إلى أفرادها. حيث أن الكرم، الذي يتميز به البدوي يوفر فوائد عظيمة، لمن قد يتوقف عند أية خيمة، وأن يدعى على الفور إلى تناول طعام العشاء، وأن يمضي الليلة هناك. والغالب أن أيَّ مجتمع آخر، لا يمكن الاتصال فيه بين الناس وإدارة حكومتهم، إلا عن طريق دعوة أحد الناس إلى إحدى الدوائر الحكومية، وذلك بتوجيه رسالة إليه، كما هو الأمر في بريطانيا.

يمكن للمرء الاتصال بالعرب الذين يسكنون الخيام، بصفة ضيف غير مدعو من قبل أية عائلة، وتناول طعام العشاء، والجلوس حتى منتصف الليل، والتحدث في جو ودي. ذلك لأن الناس الذين يجلسون سوية على الأرض، حول النار الموقدة، ويقدمون دورات لا نهاية لها، من أقداح القهوة، يكونوا أكثر أنسًا وانفتاحًا، من الرجل الذي يجلس أمام منضدة. في حين يقف الرجل الآخر أمامه.

كان الوضع نموذجيًا لتطبيق المثل الذي كنت أطبقه وهو (حب وثق (بأنك) ستكون محبوبًا وموثوقًا به). ولذلك فلم يشأ عرب (الحويطات) إلا الموافقة على إشارتي لهم، بأنهم كانوا في طريقهم إلى الفناء. ذلك لأنهم لا يستطيعون في ذات الوقت أن يقاتلوا حكومتهم والحكومة السعودية، بما لديها من قبائل. غير أنهم لا يستطيعون أن يجدوا لهم مخرجًا من هذه المعضلة.

ولقد ارتابوا في ضعف مقترحي القائل بأن عليهم أن يساندوا حكومتهم مقابل أن تقدم حكومتهم على حمايتهم، وراحوا يتساءلون منكرين (هل تفعل الحكومة ذلك؟ وهي التي لم تفعل أي شيء سوى فرض الضرائب علينا، ومحاصرتنا والإلقاء بنا في السجن) غير أنهم لابد وأن كانوا قد سمعوا بما حدث في العراق، ذلك لأن الصحراء، كانت في تلك الأيام، تؤلف عالمًا واحدًا، وأن في مستطاع البدوي أن يعرف كل ما يحدث في الصحراء على مسافة خمسمائة ميل، ولو أنه قد لا يعرف أدنى شيء عن الحوادث التي تقع على بعد خمسين ميلاً عن مخيمه في المنطقة الزراعية.

كان نجاحي الأول يعود إلى وصول بعض رجال من شرطتي من العراق، الذين استقالوا من عملهم هناك، وتبعوني إلى شرقي الأردن. كان هؤلاء من البدو، وبذلك أصبح مستطاعًا أن أؤكد كل ما سبق لي أن قلته عن العراق. وحين تمت المصادقة على الميزانية التي اقترحتها، كان أولئك المحاربون من العراق أول الرجال الذين سجلتهم لديّ.

كان عرب الحويطات على شفا الهلاك جوعًا، وكانوا يرتدون الأسمال، لكنهم كانوا في الوقت ذاته ملهمين بمقت حكومتهم وقواتها. كانوا على قناعة بأن البريطانيين كانوا حلفاء ابن السعود في تدميرهم (كانت هذه القناعة في

محلها. ذلك لأن بريطانيا اعتمدت من الأساس على محالفة ابن السعود معها، لأنها كانت تخشى مطامح الشريف حسين، وتمسكه بالعهود التي قطعتها له إبان الاتصال معه قبل إقدامه على إشعال نيران الثورة ضد الأتراك، ولذلك شجعت بريطانيا ابن السعود وأمدته بالمال للقضاء على ملوكية الأسرة الشريفية في الحجاز واستحذائها سواء في سوريا، أم العراق، أم الأردن). وعلى الرغم من هذه الكراهية المجسدة تجسيدًا عميقًا، ومن الأهواء، فقد استطعت أن أكسب صدقتهم وثقتهم بصفة بطيئة.

مضى شهران على مثل هذه الشاكلة. وفي شهر كانون الثاني سنة 1931 استطعت أن أجمع سبعة أو ثمانية جنود من البدو، من هنا وهناك، ولكن لم يكن بينهم أحد من عرب الحويطات. لقد كان التنافر بين الحويطات والحكومة الأردنية، وقواتها، شديدًا إلى درجة أنني طلبت إلى السلطات الأردنية بأن تعمد إلى نقل كل القوات المسلحة.

وبعد جدل، وافقت الحكومة الأردنية على سحب قوات الحدود في اليوم الأول من شهر شباط سنة 1931، على أساس التجربة، وكانت مفعمة بالأمل في أن الفوضى سوف تنتج عن ذلك الإجراء، وأنه ينبغي لقوات الحدود أن تعود على عجل. قدّم هذا الوضع لي الفرصة لأن أدعو عرب الحويطات بأن ينقذوا أنفسهم، وإذ ذاك أنفذنا كمائن من الخيالة، والهجانة لكي يراقبوا الحدود تحسبًا للغارات السعودية. كانت السيارات التي طلبتها قد وصلت، وبدأ التدرب على استعمال رشاشات (لويس) و(فيكرز)، وبالتدريج أصبحت العلاقات أكثر ثقة. وفي نهاية شهر شباط أصب لدي عشرون رجلاً بينهم بعض من عرب الحويطات.

وصلت الأنباء مسبقًا بأن قوة سعودية تتألف من عدة آلاف من الرجال، تحت قيادة (إبراهيم النشمي) أحد أتباع ابن السعود، تتقدم نحو الأردن، ولقد

نجحت في إقناع عرب الحويطات بأن يتماسكوا فيما بينهم، ويستعدوا للقتال. كان تجاوبهم متوسطًا، لأنهم لم يتعلموا بعد، أن ثقوا بي ثقة تامة، مثلما كانت القبائل العراقية تفعل ذلك، وكان من حسن الحظ أن (إبراهيم النشمي) لم يتقدم للإغارة.

وفي شهر آذار سنة 1931، تلقيت معلومات تفيد بأن فريقًا من عرب الحويطات، يقدر رجاله بأربعين نفرًا، كانوا قد توجهوا للإغارة على الأراضي السعودية، لم أعمد إلى استخدام الجواسيس في صفوف القبائل التابعة لنا، غير أنه كان لي أصدقاء من عرب الحويطات كانوا يعرفون بما قد يقع.

تعتبر قضية الجواسيس هذه إحدى المسائل المهمة،لأن كل فرد في البلاد العربية يعتقد بأن لدى الحكومة الآلاف من الجواسيس. ففي أول الأمر كان رجالي يقولون لي، بطريقة التملق والإطراء (إننا نعلم بأن لديك المئات من الجواسيس!) ولكني لا أعتقد بأني قد استخدم جاسوسًا واحدًا في شرقي الأردن. أما في العراق فقد كنت أبعث بالجواسيس لمراقبة (الإخوان) بشأن غاراتهم ولكنني لم أكن أتجسس على قبائلنا في العراق لأنهم كانوا على الدوام، يفضون إليّ بكل شيء!

وما أن سمعت بأن ذلك الفريق المغير من عرب الحويطات، قد خرج للإغارة، حتى نقلت حوالي خمسة عشر من رجالي الذين سجلتهم، في السيارات. ذهبنا إلى المخيم الذي غادره المغيرون، واستولينا على كل إبلهم، من دون أن نجد مقاومة لذلك. وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع على ذلك، وحين عاد المغيرون وجدوا أن كل قطعانهم قد ذهبت!

لم يكن أمامهم أن يفعلوا أي شيء سوى أن يفدوا عليّ، فكان لنا حديث طيب معهم، ولذلك وعدوا بأن لا يكرروا ما فعلوه مرة أخرى، وإذ ذاك أعدت إليهم قطعانهم، وتم إغلاق الحادثة.

فلو أن الحكومة الاعتيادية، كانت قد تلقت أنباء عن المغيرين، فإنها سوف تبادر باستدعائهم، وكأنهم مطلوبون من لدن الشرطة، ويندر أن يعثروا عليهم. ولكن إذا ما حدث واعتقل أحدهم، فلسوف يحكم عليه بالسجن الطويل وغالبًا أن يموت في السجن نهايةً لهذا الرجل الذي أمضى حياته في الهواء الطلق، أو أن يموت على أكثر احتمال، بداء السل، الذي يبدو بأن البدو لا يملكون أية مقاومة ضده.

أعقبت ذلك الحادث، حادثة واحدة أو حادثتان من وقوع غارات صغيرة، كانت واحدة منها ضد القبائل التي تسكن جنوبي (بئر السبع) في فلسطين. وفي أية قضية كنت أتلقى المعلومات عنها، أنهض عند الفجر فأقوم بمباغتة المخيم الذي انطلق منه المغيرون. أن الفائدة المتوخاة من الوصول عند الفجر، تتمثل في أن قطعان الإبل تكون، عند ذلك الوقت، ما تزال معلقة أمام الخيام، وإذ ذاك أضع سياراتي الأربع التي تحمل الرشاشات في موضع يطل على المخيم، وحينذاك يخرج الكبار من المخيم، فأعطيهم أسماء الرجال الذين خرجوا للغزو وأطلب تسليم الإبل العائدة لهم.

لن يحدث آنذاك أي جدل، وإنما يجري تسليم الإبل المطلوبة. وحين يعود الغزاة يفدون عليّ خجلين، فأعيد إليهم إبلهم، وأنبأهم بأن لا يظلوا حمقى! وقد يحدث في بعض الأحيان في أن أفرض عليهم غرامة تتألف من بعير واحد أو بعيرين. وهكذا فإن هذا النظام الذي طبقته، قد وضع نهاية ليس للغارات حسب بل حتى لأعمال السرقة بين الأردنيين أنفسهم!

تتوقف الغارات، خلال ثلاثة أو أربعة اشهر. ففي خلال هذه المدة لا تطلق حتى ولا إطلاقة واحدة، ولا يتم إرسال واحد من أفراد القبائل إلى السجن. ولقد كانت آخر غارة وقعت على الحدود الأردنية السعودية قد حصلت في شهر تموز سنة 1832، كانت قد جاءت من الأراضي السعودية.

لقد استطعت أن أكسب عرب الحويطات، بأن أوضحت لهم بأنهم لا يستطيعون أن يحاربوا الحكومة السعودية، والحكومة الأردنية في وقت واحد.

وكان الاقتراح الثاني الذي طرحته عليهم، هو أنه بدلاً من دفع قوات الحكومة إلى الوراء، من الأفضل لهم، أن ينضموا إلى قوتي الاستطلاعية في الصحراء والمؤلفة من مائة رجل، وأن يبسطوا سيطرتهم على صحاريهم الخاصة بهم. لقد احتاج هذا الاقتراح، إلى وقت أكثر، لكي يستقر في أذهانهم، ولكن استطعت في غضون أسابيع قليلة، أن أجند العدد اللازم لذلك.

لقد بدأ المجندون يفدون من كل القبائل، وكان الشرط اللازم للتجنيد، هو أن يتخلى المجندون عن الهوس القبلي، و أن يكرسوا أنفسهم لخدمة الحكومة وحدها. ذلك لأنه يستحيل تجنيد أو تدريب أية قوة تسمح بها المشاعر القبلية من أمثال سرية، من الحويطات، أو سرية من شمر، أو أخرى من (بني بكر).

جهّزنا قواتنا التي تقوم بمهمة الاستطلاع في الصحراء، بملابسهم الطبيعية، المؤلفة من السراويل القطنية البيضاء، ومن الثياب الطويلة البيضاء أيضًا، تلقى فوقها عباءة طويلة من نسيج (الخاكي) وحزام نسيجي واسع أحمر اللون، وكمية من أحزمة الذخيرة، وأحزمة عريضة للطلقات، ومسدس ذي محفظة حمراء، وخنجر فضي. أما لباس الرأس فكان مؤلفًا من (يشماغ) ذي لون أحمر وأبيض، والذي أصبح طرازًا للنموذج العربي. ذلك لأن المألوف سابقًا، هو ارتداء الكوفيات البيض في الأردن وفي فلسطين.

كان هؤلاء المائة من الرجال يمثلون قيادة عسكرية نموذجية، وسرعان ما أخذ العدد يتكاثر، وذابت الحساسيات الشخصية. لقد كنا في فرقة استطلاع الصحراء هذه، نؤلف عصبة حقيقية، مكرسة حقًا من الأخوة. فالروح التي

كانت تربطنا معًا، هي روح الخدمة الأصيلة. وفضلاً عن ذلك فإننا لم يكن جميعًا من البدو، إذ كان لدينا سائقون للسيارات كانوا من أبناء المدن، واثنان أو ثلاثة من عمال اللاسلكي الذي كانوا من العرب المسيحيين، ولذلك فلم يكن هناك أي إحساس بأية فوارق عصبية نظرًا لتفوق الإحساس بالرفقة، وعلى هذا أستطيع أن أعبر عن هؤلاء حقًا، بما عبر به الملك (هنري الخامس) حين قال (نحن قلة، ولكننا قلة سعيدة، لأننا عصبة، عصبة من الأخوة)!

وسرعان ما كانت هنالك قائمة مطولة من الشبان الذين كانوا ينتظرون الانضمام إلينا. فقد كان الانضباط تامًا ومباشرًا، لأنه كان قد فرض بصفة ذاتية. لم تكن العقوبة معروفة في الغالب، وكان الجرم الوحيد الذي كنت أعاقب عليه بشدة، وذلك بفرض غرامة تقتطع من المرتب، هو النوم أثناء واجب الحراسة. ذلك لأن الهجوم المؤقت ليلاً أثناء القيام بعملية الاستطلاع في الصحراء يجعل حياة رفاق الحارس تعتمد تمامًا على اليقظة أثناء الحراسة. وعلى إثر ذلك أعانتنا الشهرة والشعبية الواسعين اللتين تميزت بهما قوة استطلاع الصحراء، على أن لا نختار سوى أعلى المستويات الممكنة من المجندين.

وفي شهر نيسان سنة 1932، أصبحت الإغارة على امتداد الحدود السعودية، أثرًا من آثار الماضي، ولذلك حولنا اهتمامنا نحو ناحية الشمال، حيث توجد منطقة مكونة من حوالي خمسة آلاف ميل مربع، من الصحراء التي تعلوها الصخور البركانية بشكل مكثف، لا يمكن اجتيازها إلا سيرًا على الأقدام، وبمشقة.

والمعتقد أن هذه الحقول البركانية ربما كانت قد حدثت، قبل آلاف السنين، بفعل سلسلة من البراكين، التي تمتد نحو الجنوب الشرقي من (جبل

الدروز). ولقد كانت التلال البركانية مأهولة بقبائل بدوية خاصة تعرف باسم (أهل الجبل)، وكان الريف بالبركاني، قد تم شقه اعتباطًا من قبل صانعي السلام، في أعقاب الحرب العالمية الأولى،ولكن بقلم أزرق اللون على خارطة صغيرة دون ريب!

كانت القبائل الجبلية تمضي فصل الصيف في جبل الدروز في سوريا، لكنها كانت تمضي فصل الشتاء في الحقول البركانية في شرقي الأردن. وهي لا تضرب خيامها خارج المكان الذي توجد المقذوفات البركانية فيه،ومع ذلك فإنها كانت تقوم بغارات صغيرة ومفاجئة على القبائل التي كانت تخيم في الصحراء المكشوفة.

والمعتاد أن تحدث أمثال هذه الغارات قبل شروق الشمس مباشرة، حيث يبرز من المنطقة البركانية فارسان أو ثلاثة فوارس يندفعون نحو قطيع من الإبل القريبة التي ترعى هناك، ويكررون ذلك ثلاث أو أربع مرات، ثم يعودون مسرعين إلى المنطقة البركانية، حين تبدأ الشمس بالمغيب.

واستطعنا في الأيام القلائل التالية أن نطور واحدًا من الأساليب. فقد أقمنا أولاً نقطة استطلاع في أقرب رابية، ومن ثم بدأنا العمل في إزاحة الصخور البركانية، بعد أن تركنا رجلاً واحدًا في كل سيارة يبقى جالسًا خلف رشاشته المحمولة هناك.

أمضينا في ذلك العمل شهورًا عديدة خلال فصل الصيف، فاستطعنا أن نتغلغل إلى جملة أميال في المنطقة البركانية، على امتداد الطريق الذي فتحناه،والذي كان عرضه يبلغ حوالي تسعة أقدام. لقد كانت القبائل تنتقل أثناء فصل الصيف نحو الشمال وإلى الأراضي السورية الخاضعة للانتداب الفرنسي،

ومن ثم تعود في شهر تشرين الأول، أو تشرين الثاني حين يعثرون علينا مباشرة في خط هجرتهم. وقد يتراوح عددهم، ما بين ثمانية آلاف، وعشرة آلاف نفر. ولقد اعتدت أن أصطحب معي حوالي خمسة وعشرين رجلاً في أعمال الاستطلاع هذه.

يبدأ سقوط الأمطار في شهر تشرين الثاني. ولقد شاهدنا في أحد الأيام ثلاثة من راكبي الإبل يقتربون منا. كان كل رجالنا قد أبلغوا بما ينبغي لهم أن يفعلوه، وإذ ذاك هتفوا بصوت عال (الله يعطيهم العمر!. إنها الساعة المباركة التي نراكم فيها!) وما لبثوا أن مدوا بساطًا داكنًا على الأرض، وأوقدوا النار من الشجيرات المحلية، ثم أوغلوا أوعية القهوة في النار، وسرعان ما كان كل واحد يتحدث مع الآخرين بسعادة!

بعد أيام قلائل وفد أحد الشيوخ علينا لزيارتنا، فلقي الترحيب الودّي منا، وسرعان ما تحول الوضع تحولاً كاملا، فلم تطلق الإطلاقات، ولم يرسل الرجال إلى السجن. وفي خلال شهور قليلة أصبحنا على علاقات ودية مع قبائل الجبال، وراح كثيرون منهم يتضرعون إلينا في أن يتم تجنيدهم في قوة استطلاع الصحراء!

وما أن استطعت أن أجد ليّ أصدقاء ثابتين من كل القبائل البدوية في شرقي الأردن، حتى بقيت أمام خطوة لأن أجعل سيطرة الحكومة هناك دائمة. وكان هذا الأمر يتطلب بناء حصن عند كل بئر دائمة. صحيح أن برك الأمطار تتكون أثناء الشتاء في الأودية هنا، وهناك، وأن القبائل تستطيع أن تخيم عندها، إلا أن المعتاد هو أن الجميع كانوا يعتمدون على الآبار الدائمة. وعلى هذا فإذا ما تم بناء حصن عند كل بئر دائمة، إن الحكومة تستطيع أن تمسك بالمنطقة كلها.

تمت إقامة أربعة من هذه الحصون في كل من (ازرق) و(البير)، و(الجفر) و(الروم). ولقد استولينا في (المدورة) على حصن قديم كان الأتراك قد بنوه (تقع المدورة على جدول ماء صالح للشرب، وكانت تعتبر مرحلة على طريق الحج القديم من دمشق إلى مكة).

لم تبنَ حصوننا هذه لكي تقاوم المدفعية. ولكن كان مستطاعًا مهاجمتها من قبل قوة تتألف من جملة آلاف من (الإخوان) المغيرين من أوساط الجزيرة. فهؤلاء الناس كانوا في الغالب لا يشعرون بالخوف، وقد يحاولون أن يتسلقوا جدران الحصن، بأن يصعد الواحد منهم على أكتاف الآخر. ووفقًا لذلك جعلنا حصوننا بأن تنغلق على فراغ مكشوف يبلغ زهاء عشرين ياردة مربعة، وأن يُحاط الفراغ بجدران ترتفع إلى حوالي اثني عشر قدما. وفي زاويتين متقابلتين أفقيًا، أنشأنا أبراجًا من طابقين، مع مزاغل لإطلاق الرصاص خلالها من الخندق الذي يكون في أسفل الجدران.

لم تكن القاعدة التي اعتمدناها لبسط سيطرتنا على الصحراء، لتنطوي على القوة بل كانت تعتمد على الإقناع والمودة. ففي كل دائرة لأي حصن صحراوي هناك، علق إعلان على الجدار، يذكر فيه (احتذاء المثل الحسن أقوى من السلوك، وعلى هذا ينبغي لك أن تتزعم رجالك بخصالك الحميدة).

كنت أقوم بزيارة كل مواقع الصحراء في فترات متوالية، وغالبًا ما كنت أجمع الرجال، وأتحدث إليهم عن واجبنا إزاء الشعب. لقد كان أولئك الرجال قساة، تمت تربيتهم، على الغارات والرشوة، ولكنهم كانوا أناسًا بسطاء، وغالبًا ما كنت أرى الدموع تنحدر على حدودهم حينما كنت أتحدث إليهم عن واجبنا تجاه الأمة.

غير أن مثل هذه الطرق لن تكون ناجحة في المجتمع المعقد كثيرًا، وكم كان محقًا مؤلف (المزامير) الأول حين كتب يقول (مبارك ذلك الإنسان الذي لا يجلس في مقعد الاحتقار! إن السخرية والخديعة تكون على الدوام هي الأسلحة التي تستخدم ضد أولئك الذين يحاولون أن يقدموا الخدمة للآخرين. إن هؤلاء الناس لم يكونوا مثقفين، بما فيه الكفاية، لكي يتعلموا كيف يهزأون بالغير)!

وما أن حققت هذه السيطرة الصارمة والجدية معًا على كل قبائلنا، حتى اصطحبت معي وفدًا أردنيًا للتفاوض في عقد معاهدة حسن جوار مع ابن السعود في (جدة). وكما سبق لي أن أتيت على وصفه سابقًا، فقد كنت موفدًا قبلاً إلى جدة أيضًا مندوبًا عن العراق، وكان السير غلبرت كلايتون، هو الذي كان يمثل الحكومة البريطانية في تلك المناسبة.

ففي المناسبة الأولى، هيأ لنا ابن السعود دارًا تدعى (الكندرة) خارج المدينة. وكان يخرج في الأماسي لزيارتنا، فيجلس وساقاه متصالبتين على إحدى الأرائك، ثم يبدأ يدردش بود حول مواضيع كثيرة. ولكن حين عدت مع الوفد الأردني بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ كان كل شيء قد تغير. ذلك لأن ابن السعود لم يقدم إلينا، ولم يبادلنا الدردشة المعتادة. فقد كنا نتلقى بيانًا رسميًا يذكر فيه، أن جلالته سوف يستقبلنا في ساعة محددة. وكان يحيط بنا في حضرته ضباط يرتدون البزات الأوروبية، ولم يكن يسمح لنا إلا بمصافحته ومن ثم نغادره محاطين بأولئك الضباط أنفسهم!

لقد بدا ليّ، أن هذه المحاولة في تقليد المراسيم الغربية، كانت مدعاة للأسف. لقد كان عبدالعزيز ابن السعود رجلاً ذا شخصية هائلة يستطيع أن يستحوذ على أي تجمع في أية أمة في العالم. لقد كان صريحًا وبدويًا ذا عقلية

مبسطة، يقول الحق من دون خوف ومحاباة، غير أن مستشاريه من المصريين والسوريين قد أقنعوه بأن هذه ليست هي الطريقة للتعامل مع الأوروبيين. وكانت نتيجة ذلك، أنه لم يعد مستطاعًا الوصول إلى ابن السعود، وأن المناقشات كانت توجه بلا نهاية من قبل المحامين الذين كانوا يجهلون الغارات، وحياة الصحراء جهلاً تامًا.

لقد كان ابن السعود يدّعي، من دون أدنى حق، بأن يصبح هو الحاكم الطبيعي لكل البدو في الجزيرة العربية. ولكن ممثليه لم تكن لديهم التجربة مع البدو على الإطلاق. ولذلك وجدت نفسي، في أكثر من مرة واحدة مجبرًا على أن أتحدث إلى هؤلاء الممثلين، وأوضح لهم عادات البدو وكيفية التحدث إليهم. ومع ذلك فقد تمت المصادقة على المعاهدة في النهاية ولكن انقطاع الغارات لم يكن بسبب ما أوجده المحامون الذين وضعوا المعاهدة، وإنما بسبب الحقيقة القائمة وهي أن الصحراء قد أصبحت الآن تحت السيطرة.

كان من دواعي فخري وابتهاجي، أن هذا السلام والأمن الجديدين، قد تم توطيدهما، من دون إطلاق رصاصة واحدة أو توقيف أو حبس رجل واحد.

يقول (بليس باسكال) (أكسب القلوب، لأن الرجال أكثر أهمية من القضايا) لقد كانت فكرة (باسكال) البارعة تمثل تمامًا الطريقة التي طبقناها في صحارى العراق والأردن معًا.

لقد طبقت قبل سنوات خلت، إحدى التجارب في فرنسا، تم بموجبها إرسال بعض القسس للعمل في مختلف المعامل الصناعية بقصد إقامة علاقات أوثق بين العمال والكنيسة. لقد قيل لهؤلاء القسس، لا تحاولوا أن تبدلوا عقيدة العمال، وإنما امنحوهم الحب ليس إلا).

لقد كانت تلك من النصائح الصائبة. ذلك لأن تحويل العقيدة باعتبارها عملية ثقافية غالبًا ما تثير التذمر، ذلك (لأن ما تؤمن به أنت خطأ، وما أومن به أنا هو المصيب) هو الأمر الوحيد الذي يثير التذمر، في حين أن الحب هو الذي ينتزع من القلوب كل الكراهيات.

فقبل أن يتم تشكيل قوة استطلاع الصحراء، كان الأمير (شاكر) ابن عم الأمير عبدالله، يترأس ما كان يعرف باسم (مجلس السيطرة البدوية). ومع ذلك وحين أن ذلك المجلس لم يكن يملك قوات في الصحراء، فإنه لم يستطع أن يسيطر على أي فرد. ومنذ أن نجحت في تأليف قوة استطلاع الصحراء غدا الأمير (شاكر) من أوثق أصدقائي والمساندين لي. لقد كان يجسد بحق عبارة (النبيل الطبيعي) لأنه كان على الدوام صريحًا ودودًا، مرحا، ومجاملاً، ويتولى ابنه (الأمير زيد بن شاكر) في الوقت الحاضر، منصب آمر القوات الأردنية المسلحة.

- 10 -

روزميري وعش الزوجية السعيد

حينما كنت فتى، لم يكن الفتيان في ذلك الوقت قد (تعلموا) شيئًا عن الجنس. وكان الحادث الوحيد الذي حدث، حين كنت في حدود السنة السادسة عشرة (من عمري)، هو أن قال لي أبي، ذات مرة، (لا تطارد النساء أيها الفتى الكبير!.. إنك إن فعلت ذلك فلسوف تندم ندمًا شديدًا، حين تلتقي في النهاية، بامرأة تريد أن تتزوجها. قد لا يفكر بعض الرجال في شيء ما، غير أن الإغراء لم يكن كبيرًا نحوي بهذه الوسيلة والذي آمله، إنك لن تكون على هذه الشاكلة!). كان ذلك كل ما تلقيته عن التربية الجنسية.

وحين كنت في (المدرسة)، كانت الخيول تؤلف الحماسة الطاغية المستحوذة علي. فقد كنت أثناء عطلاتي المدرسية، أقضي كلّ وقتي تقريبًا، وأنا أمتطي أحد الخيول. كنت في أول أمري استخدم مهري الصغير الذي خصص لي. غير أن أبي سمح لي فيما بعد، بأن أجرب ركوب جواده هو أيضًا. وكان هذا يستغرق مني عمليا، كل يومي، ويمنحني الحماسة كذلك، لأن أكرس أوقاتي لزيارة الريف. كان الفتيان والفتيات في تلك الأيام طبعا، يتم تعليمهم في مدارس منفصلة، ولم ألتق بواحد منهم أبدًا، كان صديقًا لفتاة.

وفي سنة 1914، وحين غادرت (تشلتنهام) للالتحاق بالكلية العسكرية في (وولتش) ومن بعدها للعمل في مستودع المهندسين في (تشا تام)، كنا جميعًا

قد كرسنا أنفسنا جسميًا وروحيًا، للمغامرة الكبرى التي تقول (إن الحرب هي التي تنهي الحرب!).

وحتى بعد مضي سنة فيما بعد الحرب (حين استأجر أبي وأمي دارًا لمدة سنة في (بكستيد) بمقاطعة سوسكس) فقد أخفقت هذه الأمور في إثارة أيّ اهتمام لدي بالنساء.

وفي شهر حزيران سنة 1920، تطوعت للخدمة في العراق، وأمضيت عشر سنوات في ذلك البلد، كنت خلالها أعيش غالبًا في المناطق العشائرية. وفي خلال هذه المدة من النشاط المكثف خارج المسكن، لم تكن فكرة النساء قد دخلت إلى دماغي بعد!.

في سنة 1925، كنت أقطع الصحراء السورية على ظهر بعير، من (الرمادي) على نهر الفرات، إلى (عمان) في شرقي الأردن، وإذ ذاك بعت ذلك البعير، وذهبت بسيارة أجرة إلى بيت المقدس. ولقد استدعاني المندوب السامي هناك، (السرجون تشانسلر) الذي كان يعرف أبي. وفي دار الحكومة مررت بسيدة جميلة ترتدي ملابس شفافة، وكانت متكئة برشاقة على إحدى الأرائك. وحين تحول الحديث إلى رحلتي عبر الصحراء على ظهر بعير، ما لبثت تلك السيدة أن غمغمت، وقد فزعت من ذلك، تقول (آه! إنني أود أن أرافقك عبر الصحراء!). لقد كانت تلك السيدة هي (روزيتا فوربس) التي أصبحت فيما بعد رحالة ومؤلفة شهيرة (روزيتا فوربس ROSITA FORBIS من الإنكليزيات اللواتي ظهرت شهرتهن بعد الحرب العالمية الأولى وذلك بما قامت به من جولات في عدد كبير من البلاد العربية والبلدان الشرقية وكانت تركز اهتمامها في كتبها ومقالاتها على الأوضاع الاجتماعية في الشرق وعلى الأخص أوضاع المرأة فيها، وقد طمست شهرتها تقريبا بعد أن برزت إلى الوجود شهرة المس

غرترودبل وفريا ستارك وغيرهن). ألقيت إليها بأعذاري الكثيرة عن ذلك، ومن ثم حصلت على إجازتي بعد ذلك، بفترة قصيرة.

كنت في الثالثة والثلاثين من عمري حين غادرت العراق، وعهد إلي بمهمة توطيد الأمن في الصحراء الأردنية. وفي غضون سنتين بعد ذلك، تذكرت لأول مرة، الإحساس بالتطلع إلى البيت وإلى رفيقة لي.

ومما أتذكره بهذه المناسبة، أنني كنت في إحدى الأمسيات أجلس أمام جذوة من نيران أحد المخيمات في صحارى الأردن الجنوبية، وأنا أتحدث إلى (عناد بن جازي) شقيق الشيخ الأول لعرب الحويطات. كان يهنئني على نجاحي لكسبي ولاء القبيلة، حين انفجرت فجأة، بالشكوى وأنا أقول (كل هذا لا شيء! الشيء الحقيقي الذي أريده هو أن تكون لي زوجة، وأطفال وبيت، مثلما هو متوفر لك الآن).

خلال السنوات الخمس الأولى من خدمتي في العراق، لم أطلب إجازة للذهاب إلى إنكلترا. ولكن بعد انتقالي إلى شرقي الأردن، أخذت أحصل في كل سنتين، على إجازة كنت أقضيها في إنكلترا. لقد كبر أبواي، ولربما لأول مرة بدأت أحس بالالتزام نحوهما!

كتب إلي أبي يقول أن أمي المسكينة في خوف شديدي على عينيها، فمن الذي يستطيع أن يلومها على ذلك؟ إنها ضربة قلب تمامًا، وهناك ظلام!. لابد من القيام بعمل ما. ولكن لا يوجد أحد سوف ينبئ أحدًا بذلك. إنني أحاول أن أقرأ لها بصوت عال، لكن وضعي سيئ جدًا لذلك.. يبدو بأن الرسائل على وشك أن تتحول إلى شكوى طويلة. آمل أن هذه الرسائل لن تردد لك مثل هذا.

محبك الدائم / أبوك

ومنذ ذلك الوقت، وما أن أصبحت أبًا وجدًا، وأنا أفكر غالبًا في هذه اللامبالاة الحيَّة، باعتبارها واحدة من مآسي الحياة القليلة. ينمو الشبان أقوياء، ومعتمدين على أنفسهم،ويلفهم العالم الذي يعيشون فيه. ولابد أن يتذكر الكبار، الشيء المحبب إلى الشباب، غير أنه يستحيل على الشاب أن يتحقق بأنه سوف يغدو كبيرًا!

أثناء عملي في الأردن،كنت أستحق إجازة أمدها شهران كل سنتين. ولكن أمي كانت تحب أن تقضي أوائل الصيف في أوروبا. وعلى الأخص، في إيطاليا، والنمسا، وتريدني على الدوام أن أشاركها بهجتها هناك. وكنت أفعل ذلك حقًا، فأروح أبحث عن تاريخ البلد الذي نزوره، وعن المناظر فيه. ولكن النتيجة كانت، أنني في كل إجازة لم أكن أمضي سوى شهر واحد في إنكلترا، وقد غدوت الآن أتشوق إلى وجود شريكة لحياتي وإلى بيت!

وهكذا حدث، فقد كان لأقرب أصدقاء والدي وجيرانهما، فتاة لائقة للزواج، وأصغر مني سنًا ببضع سنوات. وكان آباء العائلتين سيفرحون إذا ما قمنا بمسيرة. استأجرت سيارة لقضاء إجازتي في إنكلترا، ولقد انتقلنا بها عبر الريف لمدة ساعتين لقد كنا سعداء معًا، وتحدثنا بإسهاب عن كل موضوع تحت الشمس، وفي اليوم الذي لم نستطع فيه، أنا وتلك الفتاة، أن نخرج، لأي سبب كان، كنا نتبادل الرسائل. وسرعان ما أخذت أيام الإجازة القليلة تبلغ نهايتها، فطلبت إلى الفتاة بأن تتزوجني، ولكنها ردّت بأنها لا تستطيع ذلك!. وما أن عدت إلى شرقي الأردن حتى تلقيت منها رسالة تقول فيها (آه جاك ! إني آسفة. إنك قد رحلت الآن فما الذي أصنعه؟). وحين عدت بعد سنتين إلى إنكلترا وجدتها قد تزوجت شخصًا آخر!

على أنه كان على بعد مئات قليلة من الياردات من دار أبوي، يسكن عقيد متقاعد مع زوجته، ولهما فتاة أيضًا من عمر مناسب. ومرة أخرى لم يكن لدي سوى شهر واحد ليس إلا، أمضيه في إنكلترا. وسرعان ما استأجرت سيارة، وأقمت صداقة مع هذه الفتاة، كانت العائلة شديدة التدين، وكانت الفتاة نفسها على هذه الشاكلة أيضًا. وللمرة الثانية، وقبل أن تنتهي إجازتي بوقت قصير، سألت الفتاة بأن تتزوجني لكنها رفضت هي الأخرى!

عدت إلى شرق الأردن يغمرني اليأس، وذلك أنني لم أستطع أن أعرف سبب الرفض. ففي كلتا الحالتين كنا نخرج معًا ونسوق سيارة لعدة ساعات حتى النهاية،وكنت أحس بالسعادة، ولم تكن أيٌ من الفتاتين سريعة التقلب، طائشة!

وإذا أنظر الآن، إلى تلك المخاوف، وآلام القلب، فإنني استنتج بأن سبب إخفاقي كان يعود إلى عدم قدرتي، على ممارسة أية اتصالات جسدية، وكان هذا يعود من ناحية، إلى براءتي، وإلى نقص التجربة لديّ. ومع ذلك فإنني كنت أحسن وليس ذلك قطعًا، بأن لياقتي الجسمانية قبل الزواج، كانت شريرة!

في سنة 1936 أمضيت شهرًا من إجازتي في إنكلترا. ولقد أوضحت من قبل بأن والدتي كانت تفضل السفر إلى أوروبا،وكانت تتحدث وتقرأ بعدة لغات. وقد حدث في سنة 1936 أن نشرت والدتي إعلانًا في إحدى الصحف المحلية، تطلب فيه دعوة شخص يفد عليها، ويتحدث إليها باللغة الألمانية. وكانت زوجتي المقبلة، التي تعلمت الألمانية في بيت أهلها من إحدى السيدات، هي التي أجابت على ذلك الإعلان الذي نشرته أمي.

وكالعادة استأجرت سيارة لمدة شهر في بريطانيا، فكنت أخرج مع أمي، والمحدثة الألمانية التي تدعى (روزميري فوربس). وعلى الفور قررت أمي بأن تمكث المحدثة معنا في البيت، فأصبحنا أنا وروزميري فوربس صديقين حميمين.

هنالك عامل جديد أتذكره عن هذه المناسبات، هو أنني اعتدت أن أغني. لم يكن لدي صوت طبعًا،ولم أكن أعرف أن أميز نغمة عن أخرى، ذلك لأنني حين كنت في المدرسة لم يكن الفتيان آنذاك يتعلمون الموسيقى، التي كانت تعتبر في ذلك الوقت حرفة نسائية خالصة.

ومع أن صوتي الأجش لم يمنعني، فإنني غالبًا ما كنت أمضي في الغناء، مما كنت أكتنزه من ألحان، لترويح صديقتي الجديدة. كانت الأغنية المشهورة في ذلك الوقت هي أغنية (بيتي الصغير المغبر في الغرب) ومع ذلك فإنني لم أتردد عن الانكباب على غناء إحدى (الأوبرات) الإيطالية من أمثال (آه لي! كم يتأخر الموت كم يتأخر الموت عن إنسان يود أن يموت) أو (دار على مقربة من جبالنا) من طراز (التروفاتور) غير أن التمثيلية المفضلة لدي ربما كانت هي تمثيلية (قبعتي العالية القديمة).

وللمرة الثانية كانت إقامتي في إنكلترا موجزة لكننا توعدنا بأن يكتب أحدنا للآخر! في أوائل سنة 1938 أصيب أبي بنوبة قلبية، فعدت طائرًا إلى إنكلترا. كان لدينا أخصائي في القلب من لندن. صحبت أبي في سيارة الإسعاف التي نقلته إلى دار التمريض في لندن، لكنني أرغمت فيما بعد، على أن أعود طائرًا إلى شرقي الأردن. وبعد أسابيع قلائل عاودت أبي ذات النوبة فمات في دار التمريض،ولذلك طرت عائدًا إلى إنكلترا مرة أخرى، في الوقت الذي جرى فيه تشييعه ودفنه إلى جانب أمه في باحة كنيسة أبرشية (كاوفولد) في سوسكس، حيث كان يعيش هناك مع أمه وهو فتى، بعد أن عادا من الهند في أعقاب وفاة أبيه، بعد العصيان الهندي مباشرة.

أقدم هنا خلاصة من نبأ الوفاة الذي نشر بمناسبة وفاة أبي في مجلة المهندسين جاء فيها:

(الفريق السير فردريك غلوب، حامل وسام K.C.M.G.B.D.S.O. الذي توفي في لندن في اليوم الحادي والثلاثين من شهر تموز الماضي، يعتبر بالنسبة لجيله أكثر من محترف، وهو شهير وأن كان يبدو لأول وهلة بأنه أكثر شهرة مما هو عليه حقيقة بعد تسع عشرة سنة من تقاعده، بالنظر إلى الجيش القائم الآن. وليس ينقص من قدر معاصريه إذ نقول بأن شهرته بصفة مهندس عسكري في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، وعلى الأخص بعد معركة (مسينيس) لم تكن ليفوز بها أحد في الجيش. وبالنظر إلى عمره، كما أنبأه بذلك رئيس أركان الجيش، فإنه لم يتم اختياره ليخلف الجنرال رايس رئيسًا للمهندسين في الجبهة الغربية.

ومع ذلك فإن كان ذلك الرجل نفس، أكثر من تجربته، ومن قابليته التي منحته الثقة المطلقة من لدن رؤسائه، والمحبة والإعجاب من قبل جميع من كانوا على اتصال مع، وبوأته مركزًا مماثلاً لمركز رجل الدولة الأكبر في جيش فرنسا. فهو بقلبه العظيم الذي كان يحمله جسمه الضئيل، وباشتهاره بالبساطة التامة، قد استطاع أن يشرك المبادئ الرفيعة مع العطف ولين العريكة، والطبع الهادئ الذي حببه إلى الجيل الشاب، في الوقت الذي كان فيه يستخلص منهم آخر (أونس) يستطيعون بذله!

لقد كانت له تلك الموهبة العظيمة في أن يلهم الجميع، الاحترام المشفوع بالود. لم يكن من طراز ذلك الرجل الذي يستطاع معه اغتنام الفرص والحريات، ولذلك لم يكن مستطاعًا تحسين ما قاله عنه (دون جيليوكايتاني) ضابط الارتباط الإيطالي (الذي عين فيما بعد سفيرًا لإيطاليا في واشنطن)، بعد فترة قصيرة من التعارف معه (يسوؤني أن أترك الجنرال غلوب لأنه رجل!).

إنها لمهمة عسيرة حقًا، أن تبرز رجلاً،لأولئك الذين لم يكونوا يعرفونه، والذين لم يكونوا قد عرفوا بأن (توني غلوب) قد خلف ذكرى حية من الطرافة الهادئة، والرجولة الغالية. إن الذين كانوا يعرفونه، كانوا يدركون كم أنهم كانوا مدينين له، بالاتصال بالقوة، والحكمة، واستقامة الشخصية. فلقد كان بطريقته البسيطة التي تنبع من ود ذاتي، رجلاً عظيمًا.

كانت رسائل التعزية الخاصة الكثيرة التي تلقتها أمي، تحمل شواهد عن آراء مرسليها، بأن أبي كان يجسد مفهوم (النبيل الإنكليزي). نادرًا ما يثمن الشباب من الناس، الصفات العامة لآبائهم. فبالنسبة إليهم كانوا يرون أن مهمة آبائهم في الحياة، هي أن يكونوا آباء ليس إلا. وأن فيض العواطف الجياشة التي تلقيناها بعد وفاته، هي التي جعلتني أتحقق كم كان أبي عظيمًا حقًا.

قررت أختي أن نبيع منزلنا في (بمبوري) وأن أعد نفسي لكي آخذ أمي الأرملة معي إلى الأردن. لكنني جوبهت، فيما بعد، بأزمة في علاقتي مع (روزميري فوربس). ذلك لأنه إذا ما بيع بيتنا في إنكلترا، فإنه قد يكون من المشكوك فيه أعود إلى إنكلترا.

بقينا، أنا و(روزميري) نتراسل لمدة سنتين. وكان واضحًا تمامًا،أنه ينبغي اتخاذ قرار كان ضروريًا. لم أستطع أن أرتب موضوع الخطوبة الاعتيادية، والاستقبال بعد مرور يومين على وفاة أبي. ولذلك ذهبنا إلى دائرة التسجيل في (تنبرج ويلز) وتزوجنا في اليوم العشرين من شهر آب سنة 1938. وفي اليوم التالي لذلك أخذت أمي وعدنا بطريق البحر/ من مارسيليا إلى بيروت، وانتقلنا من هناك إلى عمان.

بعد مرور ثلاثة أشهر طارت زوجتي ومعها أمها قادمتين إلى بيروت، فعقدنا زواجنا مرة أخرى في كنيسة (كل القديسين)، وهي كنيسة إنجليكانية

صغيرة تقع على شاطئ البحر. كانت التهاني الوحيدة التي تلقيناها، قد جاءت من والدتينا. أمضينا يومين من شهر العسل في أحد الفنادق ببيروت، تصحبنا والدتانا،ومن ثم عدنا إلى عمان.

على هذه الشاكلة، عثرت أخيرا، على شريكة حياتي. لقد كنت، ومع مشاغلي الكثيرة، غير جدير بها. وغالبًا ما كنت أهملها لأنني كنت أمضي وقتي في العمل المجهد. ولقد عانينا كثيرًا من التقلبات لكنها كانت تساندني خلال تلك التقلبات كلها. والآن (أي في سنة 1983، والتي صدرت فيها هذه المذكرات وذلك قبل وفاة غلوب في السابع عشر من شهر آذار سنة 1986)، أصبحنا متزوجين منذ أربع وأربعين سنة! ولم نكن قد تخاصمنا خلالها ولا مرة واحدة أبدًا، وأستطيع أن أشكر الله وحده لتوجيهه الذي قادني عبر أخطار لا نهاية لها، إلى هذا العمل الطويل المسالم، محاطًا بأولادي، وأحفادي، قد جعلتنا تلك الأخطار والقلق الذي شاركنا فيه سوية، أوثق وأكثر وثاقًا معًا، وأبعد بكثير مما كانت تفعله فينا تحمسات الشباب الأولى.

قبل سنوات قلائل سمعت من التلفاز،أحد الشباب يعرب عن رأي يقول: (إن اعظم خطوة يمكن إنجازها إلى الأمام في الأيام الأخيرة، تتمثل في تحرر الفتيات اليافعات من السلطة الأبوية). إن البرهان على قيمة (الكعك) الذي تتناوله، لا تظهر إلا بعد أن تأكله. وإلى أن عدت إلى إنكلترا في سنة 1956 بعد ست وثلاثين سنة أمضيتها في الشرق الأوسط، لم أكن أعرف أي شخص كان قد أقدم على الطلاق.

أما اليوم فإن نسبة كبيرة من الزيجات التي جرت في إنكلترا قد انتهت بالطلاق. وأسوأ ما في هذه الحالة، أن سنتين أو ثلاث سنوات من المغامرات

الجنسية التي تعقب زيجات الشباب، تكون كافية لإنجاب طفلين، وإذ ذاك يخمد الهياج ويقرر الزوجان الشابان، الحصول على الطلاق، وهكذا تتحطم العائلة ويحرم الأطفال من سعادتهم، ومن الأمن الذي ينشدونه في البيت.

قد كرست قدرًا كبيرًا من الوقت لدراسة قيام الحضارات القديمة وانهيارها، وكنت أهتم اهتمامًا شديدًا بالكشف عن أن معظم الأدوار القومية للانحطاط، قد تميز بازدياد سهولة الإقدام على الطلاق، والانحلال الجنسي.

لقد صحب انهيار الجمهورية الرومانية، نتيجة الحرب الأهلية وأعمال القتل، ازدياد سهولة الطلاق، وتحطيم الأسرة الرومانية. فحين هيأ (أغطس) (أغسطس المقصود به كايوس اكتافيانس. (63ق.م. 14م) ابن قيصر بالتبني اشترك مع انطونيوس ولبيدس في الحكم، ثم انفرد به وأسس الإمبراطورية الرومانية. أقر السلم وشجع الأدباء، وفي زمانه ولد المسيح)، نفسه لاستعادة عظمة روما، قرر بأن واحدة من الطرق الضرورية لذلك، هو إعادة ضبط الأسرة الرومانية،وسلامتها وذلك عن طريق الإقناع الذي كان يهدف إليه، إلى درجة أنه شرع قانونًا يعتبر العزوبة جريمة يعاقب عليها.

إنني أحب الناس اليافعين ويسوؤني أن أعبر عن آراء قد تثير سخطهم، لكني لا أشك أبدًا في أن الفتيات اليافعات في حاجة إلى الحماية. إنهن يؤلفن كنز عصرنا، وأن مستقبل شعوبنا بأسره، يعتمد عليهن، لأنهن الأمهات اللواتي يؤلفن صفات أولادهن!.

ولسوء الحظ ففي السنوات الخمس والعشرين الماضية، وبنتيجة الوسط القائم، والانحطاط العام الذي أصاب أخلاق الأمة، أصبح الحب يعتبر محض متعة جسدية بدلاً من أن يكون عطفًا روحيًا وعقليًا معًا بين الأرواح الصغيرة.

فإذا كان (الوقوع في الحب) يعني تجربة المتعة الجسدية ليس إلا، فإن مثل هذه المتعة لابد لها أن تضمحل خلال سنوات قليلة ومن ثم يفترق الزوجان.

كان النجاح النموذجي الخالي من المنغصات، لزواجنا يعود بدرجة كبيرة إلى حلاوة (روزميري) وصبرها، لأنني كنت في عمان أدربها تدريبًا عميقًا، وكان إهمالي لها هي وأسرتي، يعود بصفة شاملة إلى مشاغل عاجلة!

كنا ننهض في الساعة الخامسة صباحًا، وانصرف في حدود الساعة السادسة والنصف إلى دائرتي. ويحدث في بعض الأحيان أن آخذ معي أحد الجياد الذي جُلب إلى البيت، فاستمتع بدورة قصيرة حول التلال قبل أن أترجل أمام مقر الفيلق العربي. ومن ذلك الوقت حتى الساعة الواحدة بعد الظهر أكون منهمكًا في المراسلات، والأحاديث والزيارات المتوقعة للقصر، أو لأعضاء الوزارة.

ينتهي الدوام في الساعة الواحدة، بعد الظهر، لكن هذا الوقت يكون مزدحمًا بالزوار، وأصحاب الطلبات الذين يكونون قد تجمعوا سلفًا. كان هؤلاء من أفراد العشائر، من الفقراء والأميين، الذين لا يتم تقبلهم في الدوائر الحكومية في العاصمة.

ووفقًا للصيغ التقليدية للحكم العربي، ينبغي أن يتم إشغال كل منصب لسلطة من قبل رجل واحد (ليس من لدن لجنة، ولا غرفة، ولا من البرلمان). ولكن ذلك الرجل يستطيع الوصول إلى كل إنسان من دون أدنى استثناء. كان تقليد أوروبا، من لدن الأتراك قبل الحرب العالمية الأولى أولاً، ومن لدن الدول المنتدبة بعد الحرب ثانيًا، قد أدى إلى تحطيم هذا النظام. فأعضاء الوزارة، والموظفون، يوصدون عليهم أبواب مكاتبهم، فلا يمكن الوصول إليها بالنسبة إلى عامة الناس، وعلى الأخص الفقراء منهم، إن الصيغ القديمة لسلطة رجل

فرد، وإمكانية الوصول إليه، ما تزال سارية المفعول في (السعودية) التي تقع على أميال قليلة من شرقي الأردن.

وإذا أردنا أن نقيم الواقع، فإن هذه التغييرات التي كانت قد حرمت الفقير والأمي، من الصيغ التقليدية للعدالة التي يفهمونها، فإنني حاولت أن أجعل باب مكتبي بعد ساعات الدوام مفتوحة أمام الفقير والجاهل.

فلقد كنت من الساعة الواحدة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، أستقبل زيارات من الأفراد المستضعفين بعد ساعات الدوام. وقد لا أعود إلى البيت لتناول الغداء إلا في الفترة ما بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة بعد الظهر. غير أن أصحاب الطلبات الذين لم يتم قبولهم قد يتبعونني إلى البيت حيث يجلسون على قطعة عارية من جانب أحد التلال وراء بيتي.

بعد أن أتناول غدائي مسرعًا في حدود الساعة الرابعة والنصف أشرع أعالج هذه القضايا. ولكنني لا أدعهم يدخلون علي البيت، وإنما أروح أدور فيما بينهم ذهابًا وإيابًا.

وفي حدود الساعة الثامنة مساء تنادي (روزميري) من الغرفة التالية قائلة (أليس بوسعنا أن نتناول عشاءنا الآن؟) وإذ ذاك أنبئ الحاجب بأن كل شيء قد انتهى، وحينئذ يدعو بقية الزائرين يقول لهم (غدًا إن شاء الله!) وعند ذاك نستطيع أن نتناول عشاءنا معًا!

ولم أكن أقصد من وراء هذه الأعمال أن أنشئ نظامًا خاصًا بي، أو أن أنتقد الآخرين بصفة ضمنية. لأن كل ذلك كان يحدث بطريقة تلقائية. فلقد عهدت إلي حكومة الأردن مهمة إقامة القانون والنظام في الصحراء ولقد أنجزت هذه المهمة عن طريق العيش مع القبائل وإقناعها بالتخلي عن الغارات.

غير أن القبائل لم تكن تعرف قبلاً، بصفة شخصية، أيًا من الموظفين الكبار، ولذلك اعتبرتني صديقًا للبلاد، وقد تأتي لتستشيرني في كل مشاكلها. إن أي فرد يذهب للتسوق في شوارع عمان، سوف يجد نفسه محاطًا بمجموعة من الصبية الصغار الصاخبين، وكل واحد منهم يحمل إحدى السلال. وقد يصحب المتسوق معه واحدًا من هؤلاء الصبية، يدور معه حول الحوانيت، ويحمل مشترياته ثم يصحبه في الأخير إلى داره، وهو يحمل ما تسوقه في سلته. والملاحظ أن كثيرين من هؤلاء الصبية كانوا قد قدموا من قرى نائية، وقد ينامون لياليهم في الشوارع، أو في مداخل الطرق.

كانت (روزميري) قد تحركت للعمل بحنان نحو هؤلاء الأطفال، وقررت أن تبدأ العمل بنفسها. فقد استأجرت دارًا صغيرة قريبة من دارنا، وعهدت إلى رجل شيخ بأن يعلمهم القراءة والكتابة، ثم شرعت تمدّهم بالورق وأقلام الرصاص، والملابس ووجبات عرضية من الطعام، وتدفع إليهم علاوة، عوضًا عما كانوا يحصلون عليه من استعمال سلالهم،وكانت بصفة عامة، تتصرف إزاءهم تصرف الأم.

كان الصبية في البداية مرتابين ارتيابًا عاليًا، ولذلك كانوا يعطون أسماء كاذبة، ومواقع مغلوطة عن بيوتهم حتى يستطيعون أن يختفوا، دون أن يتركوا أي أثر لهم، إن وجدوا ذلك ضروريًا. على أنهم ما لبثوا أن أخذوا بالتدريج يثقون بروزميري، وشرعوا يعطونها أسماءهم الحقيقية، وكان واحد أو اثنان منهم يأتون إلى دارنا للعمل فيها بين آونة وأخرى.

لقد كنا نذكر أولئك الصبية عرضًا، بأنهم سوف يصبحون من الفتيان. كان أحدهم ويدعى (مفلح) قد صعد ذات مرة إلى سيارتي التي كانت تقف أمام

دارنا. وحرك مقبض التوقف، وإذ كانت دارنا تقوم على جانب أحد التلال، فقد انحدرت السيارة إلى الطريق، واصطدمت بأحد الجدران.

كان من أعظم الصبية الذي نجحوا في المدرسة، صبي يدعى (عطا) كان قد قدم من قرية ريفية نائية، كان ذكيًا ولذلك وفرنا له التعليم التام، وفي النهاية تم إرساله إلى كلية (ساندهرست) العسكرية في إنكلترا فأصبح ضابطًا في الجيش الأردني.

وهناك صبي آخر يدعى عبدالعزيز كان ذكيًا بصفة ملحوظة وقد تعلم القراءة والكتابة بسرعة، وما لبثت روزميري فيما بعد أن منحته من النقود ما يكفي لفتح حانوت له في موطنه بمدينة (الكرك) حيث راح يعيل نفسه بنفسه.

- 11 -

حركة رشيد عالي الكيلاني

والعودة إلى العراق ثانية

أعطيت موجزًا عن انقطاع الغارات في صحارى شرق الأردن في سنة 1932. فلقد تم الاتفاق، أثناء اجتماعاتنا في (جدة) على أن تعين الحكومتان السعودية والأردنية، مفتشي حدود، يستطيعون أن يتعاملوا مع أحدهم الآخر، بصفة مباشرة، وأن يتوصلوا إلى تصفية لأية حوادث صغيرة قد تقع.

عينت من قبل حكومة شرقي الأردن مفتش حدود لديها، في حين عين السعوديون (عبدالعزيز بن زيد). وهو موظف حكومي عملي، ولكنه ليس من منزلة اجتماعية رفيعة. ومن الواضح أن تعيين هذا الرجل قد جاء نتيجة شكوك ابن السعود، حول نوع الاستقبال الذي سوف يستقبل به ممثلوه.

كانت الحكومة البريطانية تتطلع دومًا إلى توطيد السلام في الشرق الوسط. ولطالما حاولت التوسط بين ابن السعود وشرقي الأردن في أن يتوصلا إلى تسوية ادعاءاتهما المتبادلة المتعلقة بأعمال النهب التي كانت تقع أثناء الغارات. غير أنها، أي بريطانيا، قد أخفقت في إقناع الطرفين بلزوم الاتفاق، وإذ ذاك أحيلت قوائم تلك المنهوبات إلى عبدالعزيز بن زيد.

وفي أول اجتماع عقدناه طرح الممثل السعودي قائمة ادعاءاته ومطاليبه.

وكان من حسن حظي أنني ألهمت بأن أقول (لست أعرف كيف نستطيع أن نصدر حكمنا بشأن كل هذه الادعاءات؟ ولكن لما كنت أعلم بأن فخامتكم سيكون رجل شرف، فإنني أقبل بأية ادعاءات تقدرون بأنها ادعاءات محقة!؟).

تغيرت طريقة الممثل السعودي على الفور، وأجاب بأنه لا يستطيع أن يتخذ قرارات من جانب واحد ليس إلا، وأنه سوف يتقبل كل ما أقرره أنا.

وخلال دقائق كان أحدنا يجادل الآخر في اتخاذ تسوية من جانب واحد حسب. وهكذا تم حل المشكلة، فاتفقنا معًا على أن نتخلى عن كل الادعاءات والمطاليب، وافترقنا صديقين حميمين!

كان ابن السعود قد تحقق على وجه الدقة من سر انفتاحي (لابن زيد) ولذلك عين مؤخرًا الأمير عبدالله السديري، أحد أبناء عمه، (من فرع أمه). ولقد أصبحنا صديقين وثيقين بصفة شخصية، وعقدنا الكثير من اجتماعات الحدود، إلى أن تم ترفيعه بأن أصبح حاكمًا على (المدينة)، إلى أن خلفه في هذا المنصب (الأمير عبدالعزيز) وهو سديري آخر.

وما أن رأت القبائل ممثلي الحكومتين على مثل هذه المنزلة من الصداقة والود حتى أصبحت تعيش في سلام، إلى درجة أن اللصوص أصبحوا خارج نطاق البحث.

مرت الفترة بين سنتين 1932 و 1936 بسلام ولكن من دون كسل وخمول. فمن الأمور التي أثارت قلقي في تلك الأيام هي قضية الديون القبلية. فقد كان من المعتاد أن يجابه أي مزارع أو مربٍّ للحيوانات، أحيانًا بحلول سنة سيئة لأن الأمطار تكون شحيحة. ففي الأوقات السابقة، كان رجال القبائل يتوجهون إلى تجار المدينة، ويقترضون منهم النقود على أن يسددوها عينًا حين

تكون الأوقات أفضل. وكان أفراد القبائل وتجار المدينة يثق أحدهم بالآخر، ولم يكونوا يتبادلون فيما بينهم سندات مكتوبة، وقد بقي هذا النظام يجري تطبيقه بصفة تامة.

ومن ثم شرع بإنشاء المحاكم وسن القوانين وفقًا للحماسة الجماعية في تقليد الغرب. وسرعان ما تحقق التجار من توقعات تطبيق القوانين. ففي المستقبل حين كان المزارع أو مربي الحيوانات يريد الحصول على قرض، يبرز التاجر عقدًا قانونيًا يوقع عليه ببصمة إبهامه، لأن أيًا منهما التاجر أو رجل القبيلة، لم يكونا يعرفان الكتابة.

وفي السنة التالية يتلقى مربي الحيوانات أو التاجر دعوة بالحضور إلى المحكمة، وإذ ذاك يبرز أحد المحامين السند الذي وقعه المقترض ببصمة إبهامه، والذي يظهر فيه بأن المقترض قد رهن، من دون نباهة، مزرعته لدى الشخص الذي أقرضه النقود، والذي قرر الآن أن يتمسك بالرهن، فيتسلم المزرعة، أو يضع يده على قطيع الماشية لدى الراعي. لقد كنت أشعر بالأسى العميق لأن إنشاء وزارة للعدل لم ينتج عنه سوى المزيد من الظلم والاضطهاد.

وقد ظهر بأن العلاج الوحيد لكل ذلك هو تعليم أفراد القبائل القراءة والكتابة. ولهذا سعيت إلى فتح مدارس في الصحراء. لم تكن هناك أموال متوفرة لدى الحكومة لهذا الغرض، وأن من العسير إنشاء مدارس لأطفال البدو، لأن آباءهم كانوا في تنقل دائم، وفضلاً عن ذلك فقد نجحت في الحصول على استخدام طبيب إنكليزي، يقوم بزيارة القبائل البدوية التي لم تكن تحظى بأية عناية طبية.

في سنة 1933، كنت قد بلغت السنة السادسة والثلاثين من عمري وبدأت أفكر بأنني قد غدوت الآن أسير في طريقي إلى الكبر!. وللمرة الأولى في حياتي

شرعت بأخذ النقود بنظر الاعتبار، وكذلك الحصول على تقاعد لكبر سني. فلم أكن حتى ذلك الوقت قد طلبت من الحكومة الأردنية أن أتعاقد معها حين دخلت في خدمتها، أو أن أحصل على تقاعد أو مكافأة، حين بلوغي سن التقاعد.

وطبقًا لذلك كتبت إلى الحكومة البريطانية أسألها عما إذا كانت هناك وسيلة ما أستطيع بها أن أحصل على مرتب تقاعدي.

ولكن الحكومة البريطانية ردت على تساؤلي ذاك، بأن لا توجد تعيينات بريطانية في الأردن خاضعة للتقاعد، وأن أفضل ما تستطيع الحكومة البريطانية أن تفعله هو أن تعييني بمنصب (مساعد مفوض منطقة) في حكومة في فلسطين من الدرجة الثامنة.

لم تكن لديّ أية فكرة عن الواجبات التي يؤديها (مساعد مفوض منطقة) من الدرجة الثامنة. ولكن يبدو بأن هذه الدرجة كانت تمثل في الأحرى طريقًا طويلاً من الهبوط في سلم الحروف الأبجدية. وكان المرتب المقرر لها يساوي ثلثمائة باون في السنة، ويرتفع بعلاوات سنوية مقدارها خمسة وعشرون باون إلى ثمانمائة باون كل سنة، وتلك عملية تتطلب الخدمة لمدة عشرين سنة،وإضافة إلى ذلك تعطي مخصصات غلاء معيشة بنسبة ثلاثين باونًا في كل سنة.

ومع كل ذلك فلم يكن المرتب ذو أهمية، لأنني ما أن انتدبت إلى حكومة فلسطين حتى عينت على الفور لأداء واجبي في شرقي الأردن. وتحدد العبارة الأخيرة من كتاب تعييني بأن خدمتي سوف تكون خاضعة للتقاعد طبقًا لمرسوم التقاعد الفلسطيني الصدر في سنة 1925، وكان هذا بالطبع يؤلف الهدف من كل هذه المناورة. وكان كتاب التعيين قد وقعه السكرتير العام لحكومة فلسطين بتاريخ الثامن والعشرين من شهر نيسان سنة 1934.

بهذه الوسائل وعلى الرغم من عدم وجود علاقة لي بفلسطين، استطعت بالتدريج أن أصبح مستحقًا للتقاعد بصفة مساعد مفوض منطقة من الدرجة الثامنة،وقد تقبلت هذا العرض بكل سرور ولغرض المساهمة في الحوادث بقيت استحق هذا التقاعد حتى سنة 1948، حين لم يعد لحكومة فلسطين من وجود، ولقد بلغت خدمتي تحت هذا الاسم مدة أربع عشرة سنة، وما أزال أتقاضى هذا التقاعد، وهو التقاعد الوحيد، الذي حصلت عليه من لدن الحكومة البريطانية أو أية حكومة أخرى.

حاول عرب فلسطين في سنة 1936 القيام بثورة ضد هجرة اليهود الأوروبيين الذين استولوا على الأراضي العربية في فلسطين.

كانت كل من فلسطين ولبنان معًا من ضمن الإمبراطورية العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى، وكانت كثير من العوائل الغنية تملك أراضي لها في فلسطين لكنها كانت في الوقت ذاته تعيش في بيروت. ولقد أصبحت فلسطين ولبنان بعد الحرب بلدين منفصلين، ولذلك وجد أصحاب الأراضي من البيروتيين أن من العسير عليهم أن يتعاملوا مع الحكومتين اللبنانية والفلسطينية. ولقد كان أصحاب الأراضي هؤلاء متغيبين عن أراضيهم في فلسطين قبلاً،ولذلك فرحوا بأن يبيعوا أراضيهم تلك في فلسطين إلى الصهاينة الذين طردوا المزارعين العرب منها، واستبدلوهم باليهود فيما بعد.

كان الفلسطينيون من دون تنظيم ولذلك تلاشت محاولاتهم للقيام بالثورة في سنة 1938، لأن قادتهم والمزارعين الذين طردوا من أراضيهم قد أصبحوا لاجئين في سوريا. ومع أنهم كانوا لاجئين في سوريا، إلا أنهم كانوا يضعون الخطط في دمشق للقيام بثورة في شرقي الأردن، على أمل أن يتم إرسال القوات

البريطانية الموجودة في فلسطين، لإخماد تلك الثورة ومن ثم مساعدة الثورة في غربي الأردن على الانتعاش، وعلى هذا الأساس كانت العصابات الفلسطينية والسورية تحاول الدخول إلى شرقي الأردن، لإشعال نيران الثورة فيها.

ونظرًا لهذا التهديد، فقد تمت زيادة قوة الفيلق العربي في شرقي الأردن، وذلك بإضافة فوجين من الخيالة، وتجنيد ثلثمائة وخمسين بدويًا في السيارات المجهزة بالرشاشات، حيث أطلق على هذه الوحدة عنوان (قوة الصحراء الآلية).

وفي سنة 1939 تحركت (عصابات الأنصار) إلى داخل جبال (عجلون) في شرقي الأردن. كان نجاح هذه العصابات يعتمد بنطاق واسع على العطف والمساعدة اللتين كانت تتلقاهما من الأناس المدنيين. ومع أن الأردنيين كانوا يعطفون على الفلسطينيين الذين طردوا من أراضيهم في فلسطين، إلا أنهم، أي الأردنيون، كانوا راضين بحكومتهم بشكل بارز، ويرفضون أن يثوروا عليها. ولقد قاومنا عددًا من المناوشات التي جرت مع العصابات الفلسطينية، إلا أنه تم إجلاء تلك العصابات في شهر نيسان سنة 1939، ولذلك تخلّت تلك العصابات عن محاولاتها لإيقاد نيران الثورة في شرقي الأردن.

اكتشف الفيلق العربي أن طريقة التعامل مع قوات الأنصار، هو إرغامها على التنقل أثناء الليل والنهار. كان الأنصار قد أعدوا العدة للقيام بمناوشات أثناء النهار، بأن يعمدوا إلى قطع أسلاك الهاتف أو أن يسدوا الطرق، لكنهم كانوا في الوقت ذاته يتسللون أثناء الليل إلى إحدى القرى ويطالبون سكانها بأن يقدموا الطعام لهم، ويضيفونهم. ومع ذلك استطاع الفيلق العربي أن يشتت أولئك الأنصار، عن طريق تعقبهم أثناء الليل والنهار، وحرمانهم من الراحة والنوم! .

وعلى خلاف ذلك كانت القوات البريطانية في فلسطين تلتحم مع إحدى فرق الأنصار أثناء النهار، لكنها تعود إلى معسكراتها لتنام وتأكل، في ذات

الوقت الذي كانت فيه قوات الأنصار هي الأخرى تقوم بذات العمل في إحدى القرى العربية. ومع ذلك فإن الفارق الرئيس يتمثل في أن القرويين في فلسطين كانوا يساندون قوات الأنصار، في حين كان القرويون في شرقي الأردن يقفون إلى جانب حكومتهم!

وفي الوقت الذي كانت تقع فيه هذه المتاعب كان العقيد (بيك) آمر الفيلق العربي، قد تقاعد من خدمة الحكومة الأردنية، وغادر إلى إنكلترا، ولذلك حللت أنا محله في اليوم الحادي والعشرين من شهر آذار سنة 1939، آمرًا للقوات الأردنية المسلحة التي كانت تضم الشرطة بين صفوفها.

كان العقيد (بيك) هو الذي أنشأ الفيلق العربي أصلاً في سنة 1921، وبقي آمرًا له طيلة سبع عشرة سنة. وحين تسلمت أنا آمرية ذلك الفيلق كان (هتلر) قد سبق له أن هدد (بولندا) باجتياحها. ولذلك شرعنا نحن في عمان نطبق الاحتياطات العملية للوقاية من الغارات الجوية!!

حين نشبت الحرب العالمية الثانية في شهر آب سنة 1939، اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا حول استراتيجيتهما في الشرق الوسط.

كان ينبغي على بريطانيا بأن تحتفظ لها بحامية في مصر، في الوقت الذي تحتفظ فيه فرنسا بجيش كبير لها في سوريا،وإذ ذاك أبرق الأمير عبدالله إلى الحكومة البريطانية يعرض عليها بأن يضع كل موارد بلاده تحت تصرف الحلفاء!! ومع ذلك فقد شكرت السلطات البريطانية سموّه على ذلك، لكنها أجابته بأن مساعدته لن تتم الحاجة إليها ما دامت الحرب سوف تقع في أوروبا!... وذلك مثال ملموس على مدى تبصر الحكومة البريطانية بالعواقب غير أنه لم يمنع شرقي الأردن من أن يعلن الحرب على ألمانيا!!

كان يستحيل الحصول على وسائط نقل إضافية أو أسلحة من بريطانيا، لكنني أبرقت مباشرة إلى شركة (فورد) الأمريكية في (ديترويت)، بأن تشحن ثلثمائة سيارة من طراز (فورد) والتي وصلت سالمة. كانت قلة من هذه السيارات قد تم استعمالها لتحسين السيارات المصفحة لدينا. لم تكن صفائح من الفولاذ التي يستعمل للتصفيح، متوفرة لدينا. غير أننا استعملنا صفائح من الفولاذ المطروق مع صفائح من رقائق مطلية بالغراء لذلك الغرض.

في اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الأول سنة 1939 رزقنا بابننا الأول الذي ولد في عمان (فارس، الذي يرأس الجمعية الإنكليزية العربية في لندن، والتي تقوم بنشاط ملموس ضد الصهيونية، وقد أصدر (فارس) في سنة 1985 كتابًا عن الأسس المشتركة بين النازية والصهيونية ترجمت مجلة (الدستور) التي تصدر في لندن بعض فصوله). ومن ثم جاءت كوارث سنة 1940، حيث سقطت كل من النرويج وهولندا وبلجيكا، وفرنسا بأيدي الألمان.

والشيء المؤكد أنه في قمة هذه الكوارث كان سقوط روزميري مريضة يائسة في مستشفى البعثة الإيطالية في عمان، وكان ذلك وقتًا يتسم حقًا بالقلق،نتيجة مرض القلب وتدخله في الشؤون الشخصية والعامة معًا.

وبسقوط فرنسا وصلت بعثة إيطالية ألمانية للاستيلاء على سوريا ولبنان وهكذا وفي عشية وضحاها، تحوّل الجيش الفرنسي الكبير الموجود في سوريا إلى عدو، (امتدت يد حكومة فيشي التي أنشأها الألمان بعد احتلالهم فرنسا بمعاونة بعض المتعاطفين معهم من الفرنسيين إلى سوريا ولبنان، ولذلك أقدمت بريطانيا في صيف 1941 وبعد القضاء على ثورة أيار الوطنية في العراق 1941 مباشرة على احتلال سوريا ولبنان وتسليمها إلى قوات فرنسا الحرة التي كان يتزعمها

الجنرال ديغول والتي اتخذت مقرها في المغرب والجزائر وتونس). وفي صباح أحد الأيام هبط كل من المستر أنطوني إيدن (السير أنطوني إيدن فيما بعد) والجنرال (ويفل) القائد العام للشرق الوسط في عمان، وقد التقيا بالأمير عبدالله، وقالا لنا بأن الإيطاليين يتقدمون نحو مصر من الغرب، وأن العدو قد سيطر على جيش كبير في سوريا. لقد أصبح الجيش البريطاني في هذه الحالة مغلوبًا بكثرة العدد تمامًا فهل في مستطاعنا أن نجد المزيد من الرجال؟

قمت باستعراض قوة الصحراء الآلية المؤلفة من ثلثمائة وخمسين رتلاً أمام (ويفل) و(إيدن) كما يشاهدانها، وقد طلبا إليّ على الفور وجوب مضاعفة أعداد تلك القوة وتشكيل كتيبة صحراء آلية.

كما طلبا أيضًا تهيئة سرية ثابتة في فلسطين. فلقد كانت بريطانيا تبدو بعيدة بالنسب إلى إيطاليا وألمانيا اللتين تقعان بيننا وبينها.

ومن ثم حدث في شهر نيسان سنة 1941 انقلاب عسكري في بغداد،إذ استولى أربعة من القادة العراقيين على السلطة، وأعلنوا الحرب على بريطانيا، وحاصروا قاعدة القوة الجوية البريطانية في الحبانية التي تقع على نهر الفرات، وآنذاك وصل الملك الصغير (فيصل الثاني) والوصي على العرش (الأمير عبدالإله) لاجئين إلى (عمان). (لم يلجأ الملك فيصل الثاني إلى الأردن كما ذكر المؤلف ذلك خطأ وإنما نقل هو وأمه إلى أربيل في بيت (ملا أفندي) أحد الأشراف هناك. أما عبدالإله فإنه التجأ إلى القوات الإنكليزية التي احتلت البصرة ومن ثم نقله إلى الحبانية ففلسطين حيث لحق به كل من نوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي).

كان رشيد عالي، ذلك السياسي الذي عرفته وزيرًا للداخلية، حين كنت في العراق، قد أصبح رئيسًا للوزراء في بغداد. كان يتوقع وصول الألمان إلى

العراق في أية لحظة، ولذلك طلب إليّ بأن أواجه القائد العام في القدس الجنرال السير (هنري ولسون) الذي عرف عمومًا بلقب (جمبو).

ما إن دخلت مكتبة حتى سمعته يقول وهو يبتسم بملء شدقيه (إنني أخشى المزيد من المتاعب). لقد تحطم أحد الأرتال في فلسطين حين كان يحاول أن يعبر الصحراء إلى بغداد. تم إنزال فرقة هندية في البصرة تحت إمرة الجنرال (سلم).

كنت آنذاك أتولى إمرة كل القوات المسلحة في الأردن، سواء كانت من الشرطة أم من الجيش، ولذلك فإن مكاني قد يكون في مقري بعمان. ولكن حين يكون أي جزء من الفيلق العربي في مهمة فعالة، فلست أستطيع أن أقاوم الإغراء بأن أصحب ذلك الجزء، وأترك مساعدي في المكتب.

كان الرتل يتألف من الكتيبة الآلية للفيلق العربي، ومن الخيالة التي تنقلها السيارات المحسنة (حيث تركوا خيولهم السود في فلسطين) ومن مدفعية بطرية ميدان، وسرية حملة البنادق مؤلفة من مائتي سيارة من حمولة عشرة أطنان محملة بالماء والنفط والأرزاق، ليس لفيلقنا حسب، بل وللحامية المحصورة في الحبانية.

أطلق على الفيلق اسم (قوة حبانية) وكان يقوده الجنرال (كلارك مارك)، كذلك تم إرسال رتل سريع من الرطبة رأسًا، كان يقوده اللواء (كنسنغتون) مؤلف من كتيبة خيالة وسريتين من كتيبة (سكس) وبطرية مدافع ميدان، والكتيبة الآلية للفيلق العربي. كان اللواء كنسنغتون ينظر إلى هؤلاء الجنود العرب، ذوي المظهر الغريب بشيء من الريبة، ولذلك رحب باقتراحي القائل بأننا يجب أن نتقدم رتله. وفي مساء اليوم الثالث عشر من شهر أيار (1941) دعا اللواء كنسنغتون إلى عقد مؤتمر. كنا على أميال قليلة من الرطبة التي اقترح

البريطانيون نجدتها في اليوم التالي. ولذلك اقترح اللواء كنسنغتون بأن يقوم الفيلق العربي بعملية استطلاع ليس إلا. وواضح من هذا أنه، أي اللواء كنسنغتون، لم يرد هنا أن نربط عملياته. وطبقًا لذلك انتقلنا إلى بعض الآبار الواقعة نحو الجنوب لكي نخرج من الطريق الذي سيسير فيه اللواء كنسنغتون.

وفي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، عدنا وكنا نتصور بأن الرتل لابد وأن يكون الآن قد دخل الحبانية فعلاً، غير أننا اكتشفنا بأن الرتل بأكمله قد عاد إلى معسكر مؤقت ليمضي الليل فيه، وهو في حالة من الرعب والذهول. ذلك لأن كل سيارات الرتل قد غطست في الرمال، وسرت إشاعات مخيفة بأن ما لديهم من الماء سوف ينفد!

يختلف سطح الصحراء اختلافًا في تركيبه، ويكون مهلكًا لمن يحاول أن يسافر فيه، في خط مستقيم حسب البوصلة التي يحملها معه، مثلما يكون الجنود النظاميون عرضة لذلك. لقد عرضنا بأن نقود الرتل إلى الحبانية وذلك أمر نجحنا فيه، في اليوم التالي، ولذلك فلم تبق أية سيارات غاطسة في الرمال. هوجمنا أثناء النهار من قبل ثلاث طائرات ألمانية من طراز (مسر شمت) كانت قد قدمت من سوريا، وقد قتل اثنان من عرب الفيلق العربي، ودمرت سيارتهما. تم إنقاذ الحبانية، وتحرك البريطانيون إلى (الفلوجة)، للتقدم نحو بغداد، غير أن العراقيين نسفوا ضفاف نهر الفرات، وأغرقوا المنطقة كلها بالماء.

كانت المقاتلات الألمانية من طراز (مسرشمت) والقاذفات من طراز (هاينكل) تعمل من الموصل. وكان الألمان في سوريا يبعثون عبر القطار حمولات من الذخيرة من (حلب) إلى الموصل ومنها إلى بغداد.

كما كان يوجد لواء من المشاة العراقيين في الموصل أيضًا.

ولقد ظهر بأن الشيء الضروري الأول، هو قطع الطريق وسكة الحديد، بين الموصل وبغداد. ووفقًا لذلك نقلنا الفيلق العربي بالمعابر عبر نهر الفرات، وتقدمنا خلال الصحراء إلى نهر دجلة جنوبي سامراء، وفي أعقابنا بعض الخيالة الذين استداروا فيما بعد، وهاجموا الكاظمية، الضاحية الشمالية لبغداد. استولينا على محطة القطار في (المشاهدة) بعد قتال قصير، وبهذه الوسيلة قطعنا النجدات والذخيرة المرسلة من الموصل. غير أن عدد الطائرات الألمانية في الموصل قد ازداد، كما تعاظم نشاطها أيضًا.

وفي (المشاهدة) القينا القبض مصادفة على متصرف بغداد (جلال بك خالد) الذين كان يقوم بزيارة إلى سامراء. لم أكن أفكر في أن هذه الاضطرابات كانت بمثابة حرب. لقد أمضيت عشر سنوات سعيدة في العراق، وكنت أحبه.

لقد كنت أحس بأن هذه الحوادث مجرد انقلاب عسكري ليس إلا. عثرت على زورق في بساتين النخيل القائمة على ضفاف نهر دجلة فبعثت بالمتصرف (جلال بك) بواسطة النهر إلى دائرته في بغداد.

في الحرب ينبغي دومًا أن تؤخذ مخاوف العدو وقلقه بنظر الاعتبار. إن قطع سكة حديد الموصل لم يثر أعصاب حكومة رشيد عالي. كانت الفرقة التي قدمت من الهند قد استولت على البصرة، ولذلك فقد رشيد عالي أعصابه وهرب إلى إيران.

اقتربت بعثة عراقية تحمل العلم العراقي بقصد تحقيق الهدنة من خط الجبهة البريطاني غربي بغداد، وتم تقديم الطلب بوقف القتال. صحبت الفريق (كلارك) وفيلدمار شال الجو (دالبياك) للالتقاء بوفد الهدنة العراقي (تألف وفد الهدنة العراقي من كل من إرشد العمري رئيس لجنة الأمن الداخلي وكان يتولى

في الأصل أمانة العاصمة، ومن نور الدين محمود مدير الحركات في وزارة الدافع. فقد قابل الاثنان السفير البريطاني في السفارة البريطانية مساء اليوم الحادي والثلاثين من شهر أيار 1941، وبحثا معه موضوع الهدنة حيث تم الاتفاق على شروط الهدنة التي كانت تنص على وقف الحركات والسماح للجيش العراقي الاحتفاظ بكافة أسلحته وإطلاق سراح الأسرى البريطانيين واعتقال كل الرعايا الألمان والإيطاليين وانسحاب الجيش العراقي من الرمادي وما جاورها ومنح التسهيلات للقوات البريطانية في مختلف طرق المواصلات وتسليم الأسرى العراقيين إلى الوصي عبدالإله). في الفجر الأغبش لليوم الحادي والثلاثين من شهر أيار سنة 1941.

في صباح اليوم التالي أخذت مراسلي (صفا) الذي يرتدي الآن بدلة الفيلق العربي الأسطوري، ودخلت السفارة البريطانية في بغداد، حيث كان ثلاثمائة وستون نفرًا من الرعايا البريطانيين قد احتجزوا فيها لمدة شهر، وقد قطع عنهم كل اتصال بالعالم الخارجي. لقد بدأ عليهم بأن وجوههم قد تغضنت وشحبت، ولكنهم احتشدوا حولنا مسرورين. في اليوم التالي استأذن الفيلق العربي آمرية الحبانية وعاد عبر الصحراء إلى عمان والأردن.

تم إنقاذ العراق آنئذ، غير أنه كان متوقعًا أن ينقل الألمان فرقة بالطائرات إلى سوريا قبل أن تصل القوات الألمانية إليها. وعلى هذا الأساس تحركت القوات البريطانية والأسترالية والهندية من فلسطين باتجاه بيروت ودمشق. كانت (قوة الحبانية) التي تضم رفاقنا البريطانيين الذين استولوا على بغداد، ما تزال موجودة في الحبانية، وإذ ذاك صدرت الأوامر لها للقيام بهجوم عبر الصحراء على مدينة (تدمر) وأن تتقدم من هناك إلى (حمص)، وتقطع المواصلات مع الفرنسيين التابعين لحكومة (فيشي)، والذين كانوا ما يزالون يحتفظون بمدينة دمشق.

عادت (قوة الحبانية) وقد التقينا بها وسط الصحراء بكتيبتنا الآلية، ومن ثم قدنا الرتل شمالاً باتجاه (تدمر). تقع هذه المدينة التاريخية القديمة من مدن الواحات في سهل مستو مكشوف، وقد عززها الفرنسيون بمعاقل صغيرة. لم تكن مدافع الميدان التي يملكها رتلنا قادرة على تخريبها. ولقد دافع (الفيلق الأجنبي الفرنسي) عن المدينة دفاعًا مجيدًا، واستطاع بذلك أن يبرهن بأنه كان كله تقريبًا مؤلفًا من الألمان.

استقر الفيلق البريطاني هناك لكي يقوم بمهاجمة المعاقل الصغيرة، لكنه هوجم في ذات الوقت بموجة تلو الأخرى من الطائرات المعادية. لم تكن توجد مقاتلات بريطانية متوفرة في حين كان للطائرات الفرنسية التابعة لحكومة فيشي وللطائرات الألمانية كل ما تحتاج إليه من أشياء تحت متناولها.

إن تعرضك لهجمات متواصلة من الجو، في الوقت الذي لا تتوفر فيه لديك طائرات خاصة بك، ولا دفاع ضد الطائرات، يعتبر حتى في تلك الأيام تجربة غير سارة، وفي الوقت ذاته كان الفرنسيون التابعون لحكومة فيشي ما يزالون يسيطرون على نهر الفرات شمالي (البوكمال)، ولديهم حامية في (دير الزور).

كانت مواصلاتنا تمتد حوالي مائة ميل إلى محطة (H-3) (هي المحطة الثالثة من محطات الضخ على الأنبوب الذي كان ينقل النفط العراقي إلى ميناء حيفا وتقع هذه المحطة داخل الحدود العراقية. ولقد عطل العمل بهذا الخط نهائيًا بعد حرب سنة 1948 بين العرب واليهود والتي أدت إلى قيام دولة إسرائيل بتظافر كل قوى الاستعمار في العالم شرقية وغربية، وتخاذل الحكومات العربية وارتباطها الوثيق بالدول الاستعمارية وعلى الأخص بريطانيا وفرنسا وأمريكا). الواقع على خط أنابيب نفط العراق. ومن هذه المحطة تمتد مواصلاتنا

أيضًا لمسافة مائتي ميل غربًا نحو شرقي الأردن، وحوالي مائتي ميل شرقًا حتى (الحبانية). وكانت هناك سيارات، لم تشخص هويتها، تقوم بصفة متواصلة بقصف أرتال تموينا في هذه المنطقة. ولقد ذكر بعض الأعراب أن قوة من سيارات مصفحة كانت قادمة من حلب. وطبقًا لذلك قام الفيلق العربي في اليوم التاسع والعشرين من شهر حزيران 1941 باحتلال (سخنة) (تقع على مفرق الطرق الممتدة من تدمر إلى دير الزور وإلى الرطبة). لتغطية (قوة الحبانية) ضد الفرنسيين من حلب حتى دير الزور، غير أنه لم تتم رؤية أي شيء!

وفي حدود السابعة والنصف من صباح اليوم الأول من شهر تموز سنة 1941. شوهد رتل من السيارات كان يقترب من ناحية الشرق، وكنت أقف في موضعنا على نشز حصوي مع ثلاثين من رجالنا وسياراتنا المصفحة (التي كانت من صنع الأردن). أما بقية رجالنا فقد تحركوا إلى الوادي الصغيرة الذي يقع وراء يميننا، حيث أوقدت النار من الحطب لإعداد الشاي وطعام الفطور.

وعلى بعد حوالي خمسمائة يارد توقف ذلك الرتل وهبط مشاة العدو من سياراتهم،واضطجعوا على الأرض. لقد كانت تلك غلطة مهلكة. فقد كنا على الدوام نقاتل من سياراتنا، ذلك لأن كل رجل يمشي على قدميه ويحمل بندقية، في صحراء مكشوفة لا مجال إلى مساعدته.

أنبأت سياراتنا المصحفة والثلاثين من رجالنا، بأن يتمسكوا بالنشز الذي كنا فيه، ومن ثم اندفعت أنا نفسي لكي أجمع سياراتنا التي تحمل الرشاشات، وكنت أقصد من وراء ذلك، بأن أجعلها حول جناح العدو والإحاطة به. ومع ذلك فإن رجال مشاتنا الثلاثين وسياراتنا المصفحة الثلاث، قد نفد صبرهم فلم ينتظروا، وإنما اندفعوا إلى أمام وأطبقوا على مشاة العدو. وحين ظهرتُ

بالسيارات خلف جناح العدو، كانت سيارات العدو قد أسرعت كلها بالهرب. وفي صولة بسرعة ستين ميلاً في الساعة اقتحمنا مواقع العدو، وأحطنا بكل سياراته. كانت تلك الوحدة العسكرية تؤلف السرية الخفيفة الثانية من الحامية الفرنسية في دير الزور.

ألقينا القبض على ثلاثين من الضباط الفرنسيين وثمانين من السوريين والصنوف الأخرى، واستولينا على ثلاث سيارات مصفحة، واثنتي عشر رشاشة، وبذلك لم يقع المزيد من الغارات على مواصلاتنا.

وبعد ذلك الحادث بيومين استسلمت مدينة تدمر. وفي اليوم الحادي عشر من شهور تموز سنة 1941 استسلمت حكومة فيشي الفرنسية في سوريا، وهرب الألمان عائدين إلى أوروبا. وفي الوقت الذي كانت فيه حكومة فيشي الفرنسية تقاتل ضدنا. كانت هناك قوة فرنسا الديغولية (أي من قوات فرنسا الحرة التي كان يقودها الجنرال ديغول الذي تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية في أواخر الخمسينيات (29 أيار 1958) وطبق سياسة الجلاء عن المستعمرات الفرنسية وفي مقدمتها الجزائر وتونس والمغرب)، تقاتل من دمشق مع البريطانيين. وحين استسلمت حكومة فيشي تولى الفرنسيون الديغوليون السيطرة على سوريا وقد انضم معظم الفرنسيين الفيشيين إلى الديغوليين، غير أن قلة منهم عادت إلى فرنسا.

في مجرى هذه العمليات نمت روحية غير اعتيادية بين رجال الجيش البريطاني وأفراد الفيلق العربي. ففي المراحل الأولى من الاستيلاء على تدمر،تم أسر وحدة استطلاع صغيرة تتألف من ستة رجال من أفراد الفيلق العربي على أيدي الفرنسيين، وتم إرسالهم إلى المؤخرة باعتبارهم أسرى حرب.

كان لدى الفرنسيين معتقلان لأسرى الحرب: أحدهما للأسرى من الأردنيين، والآخر للأسرى من العرب. ومع ذلك فحين اكتشفت الصنوف الأخرى من الأسرى البريطانيين،أن بعض رجال من الفيلق العربي محتجزين في معتقل مختلف، فقد اضرب أولئك البريطانيون ورفضوا تناول الطعام إلا بعد أن يتم نقل رفاقهم من أفراد الفيلق العربي إلى ذات المعتقل الذي يقيم المعتقلون البريطانيون فيه.

وفي الوقت ذاته كان النازيون قد غزوا روسيا. كان الروس فقراء بالسلاح، ولذلك غدا من الأمور الضرورية مساعدتهم بالأسلحة والذخائر. كان الطريق الرئيس لإيصال هذه المساعدة يبدأ من ميناء حيفا إلى بغداد، ومن هنا يجتاز إيران إلى الحدود الروسية.

ولقد أصبح الفيلق العربي مسؤولاً عن سلامة خط المواصلات من حيفا إلى الحدود الفارسية، وهي مسافة تبلغ حوالي سبعمائة ميل،وبمقدار المسافة تقريبًا ما بين وارسو ولندن! .

قبل أشهر قلائل لم يكن الجيش البريطاني قد سمع بوجود الفيلق العربي أما الآن فإن القائد العام الجنرال ويفل، قد تساءل عما إذا يستطاع توسيع كتيبة الصحراء الآلية الأردنية إلى ست كتائب. وفي الوقت ذاته طلب (ويفل) إنشاء سرايا مشاة ثابتة جهد المستطاع، وكان على هذه السرايا أن تحرس ميناء حيفا، ومستودعات السلاح، والذخيرة الحليفة في فلسطين والعراق، وعددًا من المواقع على طريق الصحراء بين حيفا وبغداد.

لقد أشغلنا هذا التوسع المحموم في زمن الحرب إشغالاً تامًا، لأنه كان يندر توفير أي من الأسلحة والسيارات. لقد عرضنا كتيبة للعمل في الصحراء

والاستدارة حول جناح (رومل) في الصحراء الغربية، وأرسلنا جماعة متقدمة إلى هناك، كانت قد تقدمت للعمل فقتل أحد ضباطها واثنان من الصنوف الأخرى.

كسب الجنرال مونتغمري (معركة العلمين) وتقدمت الجبهة نحو تونس ومن ثم عبرت البحر إلى إيطاليا. تم تحذيرنا بأنه قد يطلب إلينا إرسال لواء إلى اليونان، غير أن الألمان ما لبثوا بعد ذلك أن انسحبوا من تلك البلاد.

طرت إلى مقر القيادة العامة في القاهرة، لكي أعرض عليه بأن يشارك الفيلق العربي القتال في إيطاليا. غير أنني أنبئت بأن أعظم قسم من المساعدة البريطانية والأمريكية إلى روسيا، كان يجري نقلها بطريق حيفا – بغداد. كذلك كانت سلامة خط أنابيب النفط إلى حيفا تعد من الأمور الحيوية. ولذلك كان من الضروري أن نحتفظ بعدد كاف من القوات في الشرق الوسط.

فلو ذهب الفيلق العربي إلى أوروبا، لتسلمت القوات البريطانية المسؤولية منه. ولذلك فإن من الأفضل أن نبعث بالقوات البريطانية إلى أوروبا، وأن يبقى الفيلق العربي في البر العربية. لقد كان هذا الأمر واضحًا كل الوضوح، ولقد أذعنت بحزن على أساس الحقيقة القائلة بان الفيلق العربي لن ينال أكاليل أخرى من الغار في أوروبا!

وفي الوقت ذاته تناثرت سرايا المشاة في الفيلق العربي في كل أنحاء الشرق الأوسط، لكي تحمي الخط الرئيس للمواصلات إلى روسيا، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من المخازن والمستودعات التي تضم مخازن الأسلحة التي تقدر أقيامها بملايين كثيرة من الباونات.

ولكن هذه المهمة لم تكن تتناسب مع المرتب الضئيل الذي يتم دفعه إلى القائمين بها. ففي كل أرجاء الشرق الأوسط كانت توجد عصابات من

اللصوص والإرهابيين مهيأة لسرقة الأسلحة. كان معظم الرجال يقومون بالحراسة ليلاً ولمدة سبع ليال في الأسبوع، ومع ذلك فإنهم كانوا أثناء النهار على الدوام عفيفين طاهرين، يعكفون على تلميع أحزمتهم وأبازيمها وتثقيبها، أشبه بما يفعله الحراس الذين يقذفون القنابل اليدوية.

وفي خلال الحرب كلها، وإذ كانت وحدات الفيلق العربي موزعة في كل أنحاء الشرق الأوسط، لم تظهر إلى النور حتى ولا حالة جدية واحدة من حالات سوء التصرف، ولم أسمع عن أي جيش آخر أنه كان بريئًا من حالات السكر الشديد، أو الاغتصاب والرشوة وسوء السلوك. ففي أثناء الحرب كلها لم يذكر واحد من أمثال هذه القضايا ضد حتى رجل واحد من رجال الفيلق العربي.

بهذه الوسائل تم تحويل الفيلق العربي إلى جيش مخلص بغض النظر عن العادات أو الطوائف. لقد كنت أشير دائمًا إلى واجبنا إزاء الله، في كل الخطب التي كنت أوجهها إلى المجندين، أو وحدات هذا الجيش. ولقد كانت هذه الطريقة أكثر نجاحًا من أية إثارة للروح العسكرية. وفي أي مستوى مع أمثال هؤلاء الرجال البسطاء من أمثال سكان القرى والبدو في الأردن، لم يظهر لي بأن أي دين بل أية طائفة تستطيع أن تزعم بأنها وحدها تحتكر رحمة الله، ذلك لأن أمثال هذه الادعاءات إنما تعود في الأصل إلى ضيق تفكير الإنسان.

في اليوم الأول من شهر حزيران سنة 1946 شارك فريق من الفيلق العربي مسيرة النصر، في شوارع لندن. وما أن هبط هذا الفريق إلى قاعدة التحية في ممر (مال) حتى ارتفعت عاصفة من الهتافات من لدن الحشود التي كانت تراقب العرض، حيث انطلقت الأصوات (حسنًا أيها الفيلق العربي! إنه عمل حسن أيها الفيلق العربي). وكانت هذه الأصوات قد انطلقت من قبل بعض

الجنود الإنكليز القدامى، الذين كانوا قد خدموا دون شك مع أفراد الفيلق في السهول العاصفة المتربة في الشرق الأوسط.

قليل من البريطانيين يمكن أن يتذكروا الآن باقي شرقي الأردن هي البلد الوحيد المستقل خارج نطاق (الكومنولث) (الكومنولث COMMONWEATH اصطلاح يعني (الثروة المشتركة) أطلق على المستعمرات السابقة لبريطانيا والتي بقيت حتى بعد استقلالها ترتبط بروابط كثيرة مع بريطانيا وعلى رأسها الهند واستراليا وكندا وغيرها). والذي وفر الجند الذين حاربوا إلى جانب الجيش البريطاني، منذ بداية الحرب العالمية الثانية حتى نهايتها.

وفي شهر شباط سنة 1946 قام الأمير عبدالله بزيارة إلى إنكلترا، وأجرى مفاوضات بشأن عقد معاهدة جديدة مع بريطانيا، تم بموجبها إلغاء الانتداب، فأصبح شرقي الأردن دولة مستقلة. وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر أيار سنة 1946 أجازت الجمعية التشريعية في شرقي الأردن، قانونًا عدّلت فيه الدستور من إمارة إلى مملكة. وعند ظهر ذلك اليوم استعرض الملك عبدالله، الفيلق العربي في عرض احتفالي عند مطار عمان.

كان ذلك اليوم بالغ الحماسة والسعادة، ولم نكن نعرف سوى الشيء الضئيل مما يخبئه القدر لنا. ومع ذلك، وفي الوقت ذاته فلم نستطع، أنا وروزميري، أن نتفادى إحدى المآسي إلا من مخرج ضيق. لقد كانت روزميري ترقد في سريرها بعد إصابتها بهجمة من (الانفونزا)، وفي الساعة الحادية عشر قبل الظهر انفجرت قنبلة موقوتة تحت نافذة مخزن المؤونة في جارنا، والذي يقع في الطابق الأرضي.

حطَّم الانفجار زجاج النافذة وغطى الجدار المقابل لها بشظاياه. وكان من حسن الحظ أن كانت (روزميري) مستلقية على سريرها وظهرها إلى النافذة وقد

امتلأ شعرها برذاذ من الزجاج، ولو كانت ترقد على جانبها الآخر لتلقت الشظايا في وجهها، ولربما أصيبت بالعمى لقاء ذلك.

أفادت الشرطة بأن القنبلة الموقوتة كانت قد زرعت أثناء الليل من قبل شاب من دمشق كان يستهدف المعاهدة البريطانية الأردنية الجديدة وفي الوقت الذي انفجرت فيه القنبلة كان ذلك الشاب قد عبر الحدود إلى داخل الأراضي السورية.

ومع أنه لم يكن لدينا ارتباط رسمي بحكومة فلسطين، إلا أننا كنا غالبًا نزور القدس خلال سني الانتداب. كان هناك إحساس روحي مفرح يتعلق بالمدينة المقدسة، ذلك أنه تحت سيطرة دولة خارجية، يمكن للأديان أن تختلط معًا ويتم احترام أماكن العبادة، وأن يستمتع كل واحد بالجو الروحي الذي كان يغمر المنطقة كلها.

وما أن انتهى الانتداب حتى غدت المدينة المقدسة مرة أخرى مدينة ممزقة نتيجة التطرف وإراقة الدماء. ومع كل ذلك فما زالت سنوات السلام في القدس تؤلف في مخيلتي ذكرى عطرة. إن أنا نسيتك يا قدس فلتنسى ذراعي اليمنى براعتها!

- 12 -

تيودور هرتزل وقطاف (بلفورد)

في حدود سنة 1250 قبل الميلاد، قامت قبيلة بدوية عرفت باسم (بني إسرائيل) أو (أطفال إسرائيل) بغزو (بلاد كنعان) أي فلسطين الحديثة. كانت بلاد كنعان ذات حضارة واستقرار لعدة آلاف من السنين، في الوقت الذي كان فيه الإسرائيليون من أفراد القبائل الساذجة الجاهلة الذين كانوا يرعون الماشية في دلتا النيل.

وإذا قدم الإسرائيليون والغزاة على ذبح سكان (أريحا) والمدن الأخرى، فقد دانت لهم المدن والقرى القائمة على امتداد سلسلة الجبال الممتدة من مدينة الخليل إلى الجليل. وفي الوقت ذاته كان الفلسطينيون، وهم أناس من بحر (إيجة) قد هبطوا إلى السهل الساحلي وافتتحوه، وحاصروا الإسرائيليين في الجبال.

ولما كان الإسرائيليون من البدو سكنة الخيام فإنهم لم يألفوا السكن في المدن، ولا ألفوا الزراعة أيضًا، وإنما أصبحوا مجرد إقطاعيين كانوا يجمعون الجزية من أصحاب الأرض.

وإذ لم يكن هناك في ذلك الوقت جيش إمبراطوري منظم، فقد كانت المدن والقرى عديمة الجدوى، ذلك لأن أية قبيلة بدوية تستطيع أن تتحرك في

وحدة منفردة، بخيامها وقطعانها، وأن تستولي على المدن والقرى، الواحدة تلو الأخرى، وأن تذبح سكانها. وتلك عملية كانت تتكرر دومًا في المناطق التي كانت تقع على حدود الصحراء، في فلسطين، وفي سوريا أو العراق.

إن الاعتقاد بأن شعب كنعان، بعد عصر (يوشع) (يوشع Joshwa أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو الذي ورد اسمه في القرآن الكريم باسم (اليسع) وهو الذي تزعم البدو اليهود الذين اقتحموا بلاد كنعان واستولوا عليها)، كان كله من الإسرائيليين، اعتقاد ينطوي على خطأ جسيم. ذلك لأن الإسرائيليين كانوا من البدو الغزاة الذين فرضوا أنفسهم على شعب متحضر نسبيًا، وأجبروه على أن يدفع الجزية لهم. ولذلك فإن الإسرائيليين قد وزعوا البلاد فيما بين قبائلهم ليس بصفة مالكين للأرض، وإنما محض إقطاعيين ليس إلا. كان عدد الإسرائيليين الذين غزوا بلاد كنعان، يبلغ حوالي خمسة عشر ألف نفر، وكانوا يستقون الماء من بئر واحدة. إنني أعرف هذه البئر معرفة جيدة، وقد بنيت حصنًا عندها. إن خمسة عشر ألف نفر، يفوق العدد الذي يمكن أن يرتوي من تلك البئر.

ولقد ألفت أنا بصفة مماثلة تلك الظاهرة تمامًا في العراق. ذلك لأنه في بداية القرن السابع عشر الميلادي. استطاعت إحدى القبائل البدوية القادمة من الصحراء، وأعني بها قبيلة (المنتفق) أن تفتتح كل أقاليم القسم الأدنى من العراق.

ولقد بقي البدو لمدة أربعمائة سنة، يعيشون في خيامهم الواسعة، ولا يساهمون أبدًا لا في حياة المدن أو العمل فيها، ولا يمارسون الزراعة، وإنما كانوا يؤلفون طبقة من الشيوخ المحاربين الذين يعيشون على الجزية التي يدفعها المواطنون المحليون لهم، وكانوا يمارسون ذات العملية حين وصلت إلى تلك المنطقة في سنة 1923.

وبذات الطريقة كان الإسرائيليون الذين غزوا بلاد كنعان وسكنوها، يمثلون الإقطاعيين المحاربين، في الوقت الذي كان فيه سكان البلاد الأصليون يواصلون أعمالهم المعتادة مثلما اعتادوا أن يفعوا ذلك طيلة سبعة آلاف سنة.

لست أعتقد إطلاقًا بأن الإسرائيليين كانوا يؤلفون السكان الوحيدين في فلسطين، أو أنهم كانوا يؤلفون الأكثرية بين أولئك السكان. فهناك مقطع في (سفر صمويل) يجسد الروحية البدوية المتغطرسة لدى الإسرائيليين. ففي ذلك المقطع يقول إلههم (يهوه) متسائلاً: أأنت الذي سوف تبني بيتًا أسكن فيه؟ إنني لم أمكث في بيت منذ اليوم الذي جلبت فيه الإسرائيليين من مصر حتى هذا اليوم، وإنما كنت أحيا حياة التشرد في خيمة!

ولقد أخطأ الذين أقدموا على ترجمة (التوراة) حين ترجموا كلمة (يهوه) بأنه يقصد به الإله الحاكم، وبذلك أعطوا انطباعًا بأن (يهوه) هو الذي خلق الكون. والحقيقة أن (يهوه) كان إلها للإسرائيليين الذين كانوا يعتقدون بأن لكل قبيلة إله خاص بها، مثل استارتي وهي المعروفة باسم (عشتار) و(عشتروت). إلهة الصيدناويين، و(تشيموس) إله (الموابيين)، و(مكوم) إله (العمونيين).

وعلى هذا فلم يكن خالق الكون هو الذي اختار بني إسرائيل. ذلك لأن ما اتصف به الإسرائيليون من وحشية، وأن أخلاقهم البدائية القائمة على ارتكاب المذابح، والرشوة، والقتل، وإراقة الدماء، والكذب، حتى في أيام النبي داود، إن هذه الصفات والأخلاق لم تكن من صفات خالق الكون، ولا علاقة له بها أبدًا، ذلك لأن إله الكون هو المعروف لدينا بأنه إله المحبة!..

في سنة 724 قبل الميلاد، غزا الآشوريون، البلاد التي احتلها الإسرائيليون، فنقلوا القبائل العشر التي تملكت تلك البلاد، أسرى، وأسكنوهم

في القسم الشمالي من العراق، حيث لم يعودوا إلى فلسطين أبدًا (هذا السبي الأول الذي قام به سرجون الثاني ملك آشور (722 - 795) ق.م حيث نقل 27290 شخصًا من سكان (السامرة) إلى المناطق الجبلية في آشور، وأعقب ذلك قيام سنحاريب بغزو ما عُرفت باسم مملكة يهوذا في فلسطين. وقد شتت أولئك اليهود الذين سباهم الآموريون في شمالي العراق، وتركيا وإيران. ويرى كثير من الباحثين أن هؤلاء اليهود المسببين اعتنقوا الديانة المسيحية. (وكانت حملات السبي الآشورية الثلاث حصلت على يد (تغلات بلصر) الثالث (732 ق.م) وسرجون الثاني (722ق.م) وسنحاريب (701 ق.م) أما الذين سبوا إلى إيران فقد أسكنوا في همذان وما جاورها وقيل نهاوند وما جاورها، وقد اشتهرت المنطقة التي تركز فيها اليهود المسبيون في شمالي العراق باسم (إمارة حدياب) التي كانت تمتد من أربيل إلى نصيبين والخابور وبحيرة أورميا، وكانت إربيل قاعدتها). ولم يتم ترحيل الكنعانيين عن بلدانهم، وإنما تمت إزاحة الطبقة الحاكمة المؤلفة من الإقطاعيين البدو الذين عرفوا باسم (بني إسرائيل).

وفي سنة 587 قبل الميلاد، اجتاح البابليون مملكة يهودا وجاءوا بالطبقة البدوية الحاكمة من بني إسرائيل، أسرى إلى بابل (هذا هو السبي الثاني الذي حدث في عهد بختنصر ملك بابل العظيم من الأسرة البابلية الجديدة الحاكمة. فقد قام نبوخذ نصر الثاني (بختصر) في سنة 597 ق.م بغزو مملكة يهوذا وحاصر أورشليم القدس وأسقطها وسبي سكان القدس، وكل الصناع وأصحاب الحرف وجاء بهم إلى بابل. ثم كرر نبوخذ نصر حملته في سنة 587 ق.م فجاء بالسبي الجديد إلى بابل وفيه بعض حكماء اليهود وأنبياؤهم ومن بابل زحف اليهود المسبيون إلى الأنحاء الجنوبية والوسطى من العراق). ولم يكن قصد الآشوريين والبابليين من تلك الفتوحات تحويل السكان إلى أرقاء، وإنما تم نقلهم

للحيلولة دون نشوء قوميات عنصرية محلية، ولهذا فإن الآشوريين والبابليين قد نقلوا الطبقة المحاربة للسلطة وليس سكان البلاد الاعتياديين. تم توطين اليهود الذين سبوا من فلسطين في القسم الأدنى من العراق، وسرعان ما أصبحوا من الأثرياء القانعين بالبقاء في البلاد (اندفع اليهود بعد حلولهم في العراق إلى ممارسة أعمال الزراعة، على خلاف ما كانوا عليه حين غزوا بلاد كنعان، وزادوا على ذلك بالتسلط على مقومات التجارة، وتطبيق الربا لكسب أرباح الحرام الطائلة، من أمثال بيت (موراشيو) في أريدو، وغيره من البيوتات الأخرى في مملكة بابل).

بعد فتح دولة بابل، للملكة يهوذا بأربعين سنة، استولى (كورش) الفارسي، على بابل، وسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين (سمح كورش لليهود، وفيهم حكماؤهم وأنبياؤهم بالعودة إلى فلسطين مكافأة لهم على تعاونهم معه في اقتحام بابل وتدميرها). غير أنه لم تعد إلى فلسطين سوى أقلية ضئيلة من أولئك اليهود، أما الأكثرية فإنها بقيت في بابل حتى أيامنا الأخيرة.

كانت قد مضت سبعمائة سنة على الغزو الذي قام به (يوشع). كما كان من نتائج الغزو البابلي لفلسطين، أن تفرّق سكان منطقة اليهودية في البلاد المجاورة، من أمثال مصر وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى (منطقة اليهودية Judea هي التي عرفت باسم اليهودية، أو مملكة يهوذا وإليها ينسب اليهوذيون أو اليهود. وكان الذين وصلوا إلى آسيا الصغرى من اليهود قد استقروا عند بحر (الخزر) في إقليم (إبيحان) وما زال خلفاؤهم يعيشون هناك حتى الآن، ويتزعمون حملة هجرة اليهود إلى فلسطين المحتلة)، وفي خلال الخمسمائة وثمانين سنة من الغزو البابلي حتى ظهور المسيح، أجرى اليهوذيون عددًا من التغييرات في مصر، وفي شمالي أفريقيا، وآسيا الصغرى، وأوروبا. فقد كتب الجغرافي

اليوناني الروماني (سترابو) (الذي ولد سنة 63 ق.م) يقول في السنة السابعة والثمانين قبل الميلاد (كان يصعب وجود مكان في العالم لا يضم طائفة كبيرة وذات نفوذ من اليهوذيين).

وفي الوقت الذي كانت فيه الديانة اليهودية قد انتشرت في كل أنحاء عالم البحر المتوسط، فإن (نحميا) الذي كان يحمل كأس أردشير الأول ملك فارس قد تم تعيينه من قبل سيده أردشير هذا، ملكًا على منطقة اليهودية ذاتها، في حدود سنة أربعمائة وأربعين قبل الميلاد.

كذلك عين ملك فارس في سنة 397ق.م (عزرا) حاكمًا، فدشن هذا عمله بأن فصل اليهود عن بقية أصناف العنصر البشري. وتلا ذلك، أن حكام (اليهودية) قد اتخذوا لهم منذ حوالي سنة 397 ق.م وما بعدها، نهجًا جديدًا وذلك بإقامة طائفة متطرفة ضيقة التفكير.

ولقد ذكر بأنه حين حدوث حرب التحرير الإسلامي لفلسطين في السنوات 633-638 م، كان يوجد في فلسطين حوالي مائتي ألف شخص يطبقون تعاليم (يهوذا). وقد تناقض هذا العدد، بعد ذلك بسنوات قليلة، إلى حوالي مائة ألف شخص ليس إلا. ولم يقض المسلمون على الأديان أبدًا، وكان كل من ينطق بالشهادة، ويعلن (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله) يتم قبوله بصفة تلقائية، وكأنه واحد من المسلمين.

بعد مرور ثمانمائة سنة على ظهور المسيح، كانت الدول المتنافسة على السيادة، تتمثل في الإمبراطورية البيزنطية، وعاصمتها إسطنبول، والخلافة الإسلامية في بغداد. وكان الاتصال بين الدولتين، يتم عن طريق مملكة (الخزر) القوية التي كانت تقوم على نهر (الفولغا) شمالي البحر الأسود، والقفقاس.

كان سكان الخزر من أصل تركي، وكان البيزنطيون والمسلمون معًا، يتطلعون إلى التحالف معهم. وفي الوقت ذاته كان الخزريون يدينون بدين (سمعان) (Shaman) نسبة إلى شمعون أو سمعان أحد أسباط إسرائيل الإثني عشر. وكان سمعان هذا ابن يعقوب، ابن إسحق، يسكن في جنوبي فلسطين وواضح أن وجود الطائفة اليهودية الكبيرة في مملكة الخزر هي التي أقنعت (خان) الخزر باعتناق اليهودية بدلاً من المسيحية أو الإسلام. وقد أطلقت كلمة (الأسباط) على العشائر الإسرائيلية التي تاهت بعد خروجها من مصر بقيادة النبي موسى وأخيه هارون) الذي كانوا يخجلون منه. وكانوا يخشون أن هم أصبحوا مسيحيين فلسوف يصبحون أتباعًا للقسطنطينية، وإن هم اعتنقوا الإسلام، أن يصبحوا تابعين لبغداد، ولذلك قرر (الخان) الأكبر للخزر أن يعتنق اليهودية.

غير أن مملكة الخزر ما لبثت أن تعرضت، في القرن العاشر الميلادي، لأعظم غزو بربري جاءها من ناحية الشرق، ولذلك تفرق سكان الخزر في هنغاريا، وبولندا، حاملين معهم العقيدة اليهودية، وعلى هذا الأساس امتلأت أوروبا الشرقية بأعداد كبيرة من اليهود، من أصل تركي، وسلافي، مع أن هؤلاء اليهود لم يكونوا منحدرين من بني إسرائيل القدامى.

أطلق على اليهود الذين سكنوا غربي آسيا وشمالي أفريقيا اسم (السفرديين) في حين سمي المنحدرون من الخزريين باسم (الإشقنازيين) أو الاشكناز.

ظهرت الصهيونية أصلاً في روسيا، وكانت تطالب بالعودة إلى جبل صهيون.ومع أن يهود روسيا كانوا من الأشقنازيين، ومن يهود شرقي أوروبا. فإنهم لم يكونوا يعرفون فلسطين لأنهم كانوا منحدرين من الخزريين الأتراك.

عقد أول مؤتمر للصهيونية في سنة 1897 في مدينة (بازل) بسويسرا، بتوجيه من (تيودور هرتزل)، وأعلن أن هدفه هو إيجاد وطن لليهود في فلسطين. ولسوف يتبين، فيما بعد أن ما أطلق عليه اسم (الشعب اليهودي) لم يكن في الواقع قد تحدّر من طوائف أو فروع عرقية حتى وإن كانت متعددة،ذلك لأن التأثير الذي يوحد بين اليهود هو تأثير ديني مفرد ليس إلا.

استفادت الصهيونية من الحرب العالمية الأولى، حيث حصلت من بريطانيا على بيان مبهم، عرف باسم (وعد بلفور) كان ينص على رأي الحكومة البريطانية في تأييد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وذلك لأن اليهود الغربيين كانوا قد نزحوا من مصر، ومن شمالي أفريقيا،ومن أوروبا الغربية. أما يهود أوروبا الشرقية فليست لهم أية علاقة بفلسطين.

كان الاضطهاد الذي مارسه (هتلر) هو الذي دفع بأعداد كبيرة من اليهود إلى الهرب إلى فلسطين، حيث شرعوا يشقون طريقهم هناك، بطرد أكبر عدد ممكن من السكان العرب في فلسطين. (كان هتلر في الواقع، ورغم تظاهره بالعداء ضد اليهود، واضطهادهم، أداة خطيرة بيد الحركتين اليهوديتين أصلاً وهما الماسونية والصهيونية. فقد كانت اضطهادات هتلر لليهود في أوروبا، هي التي جعلت الصهاينة والماسونيين وكل اتباعهما من الفصائل الأخرى، يستميتون في التخطيط لغزو فلسطين وتحويلها إلى موطن ومقر للصهيونية العالمية).

إن من المستحيل في الوقت الحاضر أن نأخذ بالشعارات التي تقول بأن (العربي) و(اليهودي) منحدران من شعب واحد!، كان يحمل هذين الاسمين قبل ألف أو ألفي سنة خلت.

بعد الحرب العالمية الثانية التحم المهاجرون اليهود في فلسطين، في حملة من الإرهاب ضد الجنود والموظفين البريطانيين، وأن كثيرون منهم قد قتلوا (كان

كل ذلك بمثابة تدبير مع السلطات البريطانية، لكي تتخذ بريطانيا من هذا الإرهاب المفتعل حجة للانسحاب من فلسطين والتخلي عن كل مؤسساتها فيها إلى المنظمات اليهودية الإرهابية والتعجيل في إقامة دولة إسرائيل). ومع أن بريطانيا هي التي أصدرت وعد بلفور ويسرت هجرة اليهود إلى فلسطين، فإن الإرهابيين اليهود كانوا يتهمون بريطانيا بأنها دولة استعمارية تحتل (أرض إسرائيل)!!

لم تكن الدول العربية، مصر وسوريا، والعراق، جادة في الموضوع تمامًا (كانت كل الحكومات العربية في ذلك الوقت خاضعة خضوعًا شنيعًا للاستعمارين الإنكليزي والفرنسي، بصفة خاصة، وتجهل كل الوسائل التي كانت الصهيونية العالمية تستخدمها لاحتلال فلسطين وطرد سكانها العرب منها، وإحلال اليهود فيها، ولهذا فحين أعلنت الجامعة العربية عن إرسال جيوشها إلى فلسطين، لم تكن تلك الجيوش كبيرة ولا منظمة وغير مزودة بالأسلحة، وغير متحمسة لقتال اليهود). فقد كانت سوريا قد أعلنت استقلالها في ذلك الوقت، قبل أن يتوفر لديها الوقت لإقامة حكومة أو جيش لها، كما أن أيًا من تلك الدول لم يكن لديها أي مفهوم (مثلما كان لدينا نحن في شرقي الأردن) عن القوة والتنظيم اللذين أصابهما اليهود في فلسطين. كذلك كان معظم العرب، يتصورون اليهود متكسبين أو أصحاب حوانيت.

وفي مثل هذه الأوضاع كان كل واحد يطالب بجلاء بريطانيا عن فلسطين. فقد طالب يهود الولايات المتحدة الأمريكية بذلك الجلاء وبدعم واضح من لدن الحكومة الأمريكية، كذلك طالب العرب بالجلاء البريطاني لأنهم لا يريدون أن يشيع الاضطراب في الموضوع. وكانت بريطانيا التي أنهكتها الحرب العالمية الثانية، قد جوبهت بطلب جماعي للجلاء عن فلسطين، ولأول مرة كانت

كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي تتحدثان عن اتفاق وبصوت واحد.

لقد فعلت الدولتان الأمريكية والسوفيتية ذلك لأسباب مختلفة. لقد كان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (هاري. س. ترومان) يتلهف إلى أن يضمن الدعم اليهودي لإعادة انتخابه، في حين فعل الروس ذلك، لأن الشرق الأوسط كان منذ زمن بعيد، منطقة نفوذ غربية. وليس هناك أدنى شك في أن السوفييت كانوا يرون بأن جلاء بريطانيا عن فلسطين سوف يؤدي إلى الفوضى والحرب الأهلية، التي قد يحصد الروس منها بعض المنافع، كما أنهم في الوقت ذاته لن يفقدوا أي شيء في أية حال من الأحوال.

وطبقًا لذلك أنبأت بريطانيا، منظمة الأمم المتحدة بإنهاء انتدابها على فلسطين، وأن ذلك سوف يتم في اليوم الخامس عشر من شهر أيار سنة 1948. وبعد تأليف لجان كثيرة، ومرور فترة من التآمر الشديد في نيويورك، أقرت منظمة الأمم المتحدة خطة لتقسيم فلسطين. كانت الخطة التي تعطي أقاليم لليهود، وأخرى للعرب في مناطق متشابكة، نقول كانت هذه الخطة غير قابلة للتطبيق بصفة عملية. فقد تقرر أن تكون منطقة (القدس) منطقة دولية تديرها منظمة الأمم المتحدة، تلك المنظمة التي لم تعهد إلى تعيين موظفين أو شرطة للسيطرة على المنطقة.

قبل أن ينتهي الانتداب على فلسطين بشهرين كان (توفيق باشا) رئيس وزراء الأردن، قد ذهب إلى لندن واصطحبني معه. أجرينا حديثًا مع وزير الخارجية (أرنست بيفن) كنت أنا الذي أقوم بترجمته. لقد قال توفيق أن الانتداب البريطاني على فلسطين يوشك أن ينتهي، وقد أصبح لليهود حكومة وجيش على أتم الاستعداد. أما عرب فلسطين فليس لديهم أي شيء من هذا

القبيل، وإنما يتطلعون إلى شرق الأردن على أن تساعدهم. ما هو رأي الحكومة البريطانية يا ترى إذا ما عبر الفيلق العربي إلى المناطق التي خصصت للعرب في فلسطين بقصد مساعدتهم؟

هنا أجاب (بيفن) يقول (يبدو أن من الواضح أن تفعلوا ذلك، لكن على شرط أن لا تدخلوا إلى أية منطقة خصصت للدولة اليهودية) ثم أضاف (بيفن) إلى ذلك قوله (إننا نستطيع أن نساعد في تطبيق خطة الأمم المتحدة، ولكن ليس في أحوال نصبح فيها ضد تلك الخطة. ففي الوقت الحاضر لا توجد لدينا أية فكرة بأن أي بلد عربي آخر سوف يتدخل في الموضوع).

وطبقًا لذلك وبمصادقة من الحكومة البريطانية، صممت حكومة شرقي الأردن على أن تساعد عرب فلسطين في الدفاع عن المناطق التي خصصت لهم في الضفة الغربية، والسامرة شمالي مدينة القدس، حالما ينتهي الانتداب لم يكن من المتوقع حصول أي اصطدام مع اليهود الذين قبلوا بمشروع التقسيم الذي أقرته منظمة الأمم المتحدة، وكان الملك (عبدالله) مستعدًا للتوصل إلى اتفاق مع اليهود على الأسس التي قام عليها مشروع الأمم المتحدة.

لم تكن حكومة شرقي الأردن، تدرك بأن (الوكالة اليهودية) إنما قبلت بمشروع التقسيم، لكي تحقق بذلك إنهاء الانتداب وجلاء بريطانيا عن فلسطين، وما أن غادر البريطانيون فلسطين، حتى أعدت الوكالة اليهودية، الخطة للاستيلاء على فلسطين برمتها.

ومع ذلك كان الجنرال (دارسي) آمر القوات البريطانية في فلسطين، مطلعًا تمام الإطلاع على هذه الخطة اليهودية، وكان يرى أن القوات اليهودية سوف تجتاح كل المناطق التي خصصت للعرب، والوصول إلى حدود الأردن خلال أسبوع واحد ليس إلا.

لقد كانت الحكومة الأردنية جد ساذجة في تفكيرها، وقد قبلت بالقيمة الظاهرية لموافقة اليهود على مشروع التقسيم، وطبقًا لذلك لم تكن حكومة شرقي الأردن تتوقع أية تعقيدات في الموضوع.

في اليوم الثالث عشر من شهر أيار سنة 1948، وقبل يومين من موعد إنهاء الانتداب على فلسطين، وصل عبدالرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى عمان، وقد أنبأنا بأن جامعة الدول العربية قررت أن تقاتل، وأن الجيش المصري سوف يغزو فلسطين. قضى هذا الإعلان على مشروع الملك عبدالله القاضي بالتوصل إلى اتفاق مع الدول اليهودية على أسس مشروع التقسيم (ومع ذلك فقد كنا في الواقع نعرف بأن هذا المشروع لابد وأن يتحقق، لأن اليهود سبق لهم وأن خططوا في أذهانهم، احتلال فلسطين كلها بقوة السلاح).

سأل عبدالرحمن عزام عن عدد القوات المتوفرة لدينا، فأنبأته بأن لدينا ما عدا قوات الشرطة حوالي أربعة آلاف وخمسمائة نفر ما بين ضابط وجندي. وقد علق على ذلك قائلاً (كنت أعتقد بأن لديكم أكثر من هذا العدد بكثير!!) (بهذه العقليات تفكر الحكومات العربية!! أمين عام جامعة الدول العربية لا يعرف أي شيء دقيق عن جيوش الدول العربية في ذلك الوقت ليس هذا حسب، بل لم تكن لدى أي جيش من الجيوش العربية آنذاك، حتى ولا خريطة عسكرية واحدة عن فلسطين، في الوقت الذي كان فيه اليهود يمتلكون معلومات دقيقة جدًا عن كل جيش من الجيوش العربية ومقدار ما تملكه من سلاح وذخيرة ورجال).

ومن ثم سألني عزام باشا عن عدد اليهود فأجبته أقول (ربما ستين ألف نفر، ولكن من مستويات مختلفة). ولقد أصابته الدهشة لدى سماعه ذلك فقال (لم أكن أعرف بأن اليهود لديهم مثل هذا العدد الكبير!).

لقد تأثرت كثيرًا بالحقيقة الواقعة وهي: أن الجامعة العربية قررت أن تخوض القتال، حتى من دون أن تسأل عن عدد الرجال لديها، أو عن العدد الذي يؤلفه رجال العدو!. كان تدخل الجامعة العربية قد قلب كل خطط الملك عبدالله، رأسًا على عقب، ومع كل ذلك قررت الحكومة الأردنية بأن تنفذ ما اعتزمته من إرسال قواتها إلى المناطق التي خصصت للعرب حسب مشروع التقسيم، وأن لا تدخل إلى أية بقعة خصصت للدولة اليهودية، كما حظر على الفيلق العربي حظرًا شديدًا دخول مدينة القدس، التي أعلنتها منظمة الأمم المتحدة منطقة دولية؟

أنبأني توفيق أبو الهدى بأننا إذا ما اشتركنا في المعركة أم لم نشترك فيها، فإننا لا نتوقع أن نحصل على الأموال،ولذلك فإن علينا أن نقاتل من دون أن نتجاوز في الصرف حدود ميزانيتنا التي أعدت زمن السلم.

كان مجموع القوات التي هيأتها جامعة الدول العربية يتألف كما يلي:

- عشرة آلاف نفر من مصر
- أربعة آلاف وخمسمائة نفر الفيلق العربي
- ثلاثة آلاف نفر من العراق
- ثلاثة آلاف نفر من سوريا

وحتى إذا ما اعتبرنا أن مجموع هذه القوات يبلغ عشرين ألف وخمسمائة نفر، فإن عدد القوات الإسرائيلية قد يقفز إلى حوالي ستين ألف نفر، وإن هذا العدد يشمل كل صنف من الرجال الذين يحملون السلاح!.

كانت القوة الرئيسة الضاربة لدى اليهود تتمثل في (البالماخ) (البالماخ Palmach تنظيم فصائل هذا الجيش الصهيوني على أساس فصائل الجيش

الحضاري). التي تساوي عدد أفراد الفيلق العربي تقريبًا. وكان هناك لواء يهودي تدرب على القتال مع القوات البريطانية في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، غير أن هذا اللواء لم يكن قد اشترك بعد في الواقع في أي قتال في فلسطين. وإلى جانب (البالماخ) تأتي (الهاغانا) وهي عبارة عن (ميليشيات) كانت تتدرب جزئيًا بصفة سرية. وأخيرًا هناك الحاميات المدنية اليهودية في المستعمرات اليهودية، والتي تم تسليحها للدفاع عن تلك المستعمرات، وإضافة إلى ذلك أنفق اليهود مبالغ طائلة من الأموال. فكانت كل مستعمراتهم مزودة بالخنادق، والمراصد والأسلاك الشائكة، وحقول الألغام. وزيادة على ذلك فإنهم أنشأوا المعامل التي كانت تصنع الرشاشات وقنابل الرشاشات.

يجادل بعض الناس في القول بأنه لما كان عدد اليهود أكثر كفاءة من عدد العرب الفلسطينيين، فإن اليهود يستحقون أن يكون لهم وطن. ولكن أمثال هؤلاء الناس أنفسهم غالبًا ما كانوا يعارضون (البيض) بشدة في جنوبي أفريقيا، الذين لم تكن كفاءتهم المتفوقة قد منحتهم المبررات لأن يسيطروا على تلك البلاد. والحقيقة أن الاعتداءات اليهودية في فلسطين، كانت مثالاً نموذجيًا للغازي الأوروبي الذي استولي على البلاد التي يسكنها سكانها الوطنيون.

وفي الوقت ذاته كانت هناك باخرة محملة بالذخيرة، تعبر قناة السويس إلينا من قبل الجيش البريطاني، قد تم حجزها من قبل المصريين، وقد صودرت الذخيرة، وهكذا بقينا من دون أي احتياطي في السلاح لكي ندخل ولو في معركة واحدة ليس إلا، للإنصاف نقول لم يكن المصريون في ذلك الوقت هم المشرفون الحقيقيون على قناة السويس حتى يحجزوا السفن التي تمر فيها ويصادروا حمولاتها. ذلك لأن الأمر كله كان بأيدي الإنكليز الذين كانوا يسيطرون سيطرة تامة على شؤون القناة وهم الذين احتجزوا تلك السفينة.

كان الجيش البريطاني فيما سبق قد زودنا بالذخيرة، ولم يكن لدينا من المال ما نستطيع أن نبني به احتياطنا الخاص. وفي وسط هذه الانفعالات العنيفة، وانعدام الكفاءة الجماعية، وطغيان الحماقة، لم يكن أمامي إلا أن أركع وأروح أصلي لله طالبًا العون منه، لأنني كنت أحس بأنني غير قادر إطلاقًا على حلٍّ مثل هذه الفوضى.

أعتقد أن (د. رائيلي) هو الذي صرح ذات مرة يقول بأن اليهود، من أنشط الناس في العالم ولكنهم أقل حكمة. ذلك لأن تصرف اليهود في سنة 1948 كان عملاً في صميم الموضوع. فقد جاءت هجرة اليهود إلى فلسطين من ألمانيا، وبولندا، وروسيا، وكان كثيرون من بينهم من العلماء والأطباء، ورجال الأعمال، وأصحاب مستوى من الثقافة الأوروبية. كانت تقف خلفهم، الثروة والقوة الهائلة التي يمتلكها اليهود في العالم، وعلى الأخص يهود الولايات المتحدة الأمريكية.

فلو أن المهاجرين اليهود إلى فلسطين، قد أظهروا صداقتهم نحو العرب في فلسطين أولاً، ومن ثم في العراق والجزيرة العربية ثانيًا، لاستطاعوا أن يسيطروا على معظم الثروات، والأعمال، في الشرق الأوسط كله. فقبل أن يظهر (هتلر) كان اليهود يتمتعون بمركز بارز في ميدان الأعمال في ألمانيا، لأنهم كانوا من المبرزين في ميدان المال والتجارة، وفي السيطرة على الوسط العام في الولايات المتحدة الأمريكية. فإذا كانت فطنة اليهود في ميدان المال والتجارة قد بوأتهم مثل هذه القوة في ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، فكيف يستطيع العرب أن يقاوموها إذا كان اليهود يمارسون تلك الفطنة ببراعة؟

لقد كان في مستطاع اليهود أن يسمحوا للعرب أن يحتفظوا بالمراكز الظاهرة للسلطة، في الوقت الذي يسيطر فيه اليهود، باعتبارهم رعايا للعرب،

على الأمور المالية والتجارية. ومع أن اليهود كانوا أذكياء تمامًا، إلا أنهم كانت تنقصهم الحكمة، بل إنهم صمموا على امتلاك فلسطين بالقوة. فلقد أصر اليهود على أن يتصرفوا تصرف العناصر الفاتحة من الألمان والروس، الذين عانى اليهود الاضطهاد على أيديهم. وهكذا سيطر مركب النقص على اليهود المهاجرين إلى فلسطين فراح يدفع بهم إلى العنف.

في الوقت الذي أدون فيه هذه السطور، هناك رسالة ملقاة على منضدتي، كنت قد تلقيتها من سيدة إنكليزية تقول فيها (لكما يمضي الوقت يصبح الصهيونيون في فلسطين أكثر شدة وقسوة، فيروحون يعاملون الفلسطينيين في الأراضي المحتلة بذات الصفة التي كان النازيون يعاملون اليهود بها).

لست أعتقد بأنه حتى يهود العالم يعرفون الوحشية التي يمارسها الصهاينة في فلسطين، وأنهم يتغاضون عنها في الوقت الحاضر ولكن يهود العالم لم يتخذوا أي إجراء لمنع تلك الوحشية الصهيونية، في ذات الوقت الذي تنشط في العناصر الصهيونية المتطرفة التي تمسك بزمام الحكم إلى احتكار وسائل الدعاية، وتعمد إلى سحق من أصبحوا أتباع لهم بمنتهى العنف والقسوة.

إنني مقتنع أن الحب (هو الزيت) الذي يجعل الحياة تسير بنعومة وسعادة، ويبدو لي بأنني جربت ذلك خلال الثماني عشر سنة التي أمضيتها في الأردن.

إن اللغة الإنكليزية مفتقرة كثيرًا إلى الكلمات التي يكون للحب فيها معاني كثيرة ويبدو لي بأن الحب (تقليد شاحب) لموقف الله من الإنسان، وهو الموقف الجماعي إزاء المنفعة. ومع ذلك فإن الحب أكثر من أن يكون سياسة مهذبة، إنه عاطفة شخصية دافئة.

لقد وصلت وحيدًا إلى شرقي الأردن،ونجحت في إنهاء غارات الغزو في الصحراء (بل وحتى أعمال السرقة) من دون أن أطلق إطلاقة واحدة، أو أن

أبعث برجل واحد إلى السجن، فالقبائل التي كانت قبلاً من أشد أعداء الحكومة، قد غدت أكثر إخلاصًا. فحتى قبائل جبل الدروز، وهم من الرعايا الصوريين بصفة رسمية، كانوا يعبرون إلى شرق الأردن، ويروحون يتوسلون بأن يتم تجنيدهم في الفيلق العربي.

في اليوم الخامس عشر من شهر أيام سنة 1948، وهو اليوم الذي انتهى فيه الانتداب البريطاني على فلسطين، عبر الفيلق العربي نهر الأردن واندفعنا بسرعة نحو جبال فلسطين واتخذنا مواقعنا في (بيثل). لم تكن (القدس) مدينة مقدسة حسب، بل كانت المفتاح الاستراتيجي إلى كل فلسطين.، قمنا باحتلال قمة ممر واطئ حسب، عبر جبال فلسطين، بين الخليل وسهل (أسدراكلون) حيث يسير الطريق خلاله من تل أبيب، ثم يهبط مستقيمًا إلى أريحا. كان القوات اليهودية تتدفق على الطريق من تل أبيب إلى بيت المقدس، ومن هناك تستطيع أن تنحدر إلى نهر الأردن عند أريحا. ولذلك بدا لنا أن أول خطوة يجب القيام بها هي أن نغلق طريق تل أبيب - القدس، وقد تم ذلك بوضع واحدة من كتائبنا الثلاث في (اللطرون). (وفي الوقت ذاته كانت دولة إسرائيل قد أعلنت في اليوم الخامس عشر من شهر أيار، ولذلك ينبغي لنا من ذلك التاريخ فصاعدًا أن لا نشير إلى اليهود بل الإسرائيليين).

كانت مدينة اللطرون من ضمن المنطقة التي خصصت للعرب في مشروع التقسيم، ولذلك كان احتلال مدينة اللطرون عملاً مشروعًا بالمرة. ومع ذلك فإن كتيبتنا هناك، كانت تتلقى الهجمات ليلة بعد ليلة، على أيدي القوات الإسرائيلية ولكن من دون جدوى. ولم يكن في نيتنا أن نهاجم (القدس) التي أعلنت الأمم المتحدة بأنها تضعها تحت إدارتها الخاصة.

كانت سياسة الحكومة الأردنية في هذه المرحلة خاطئة في اتجاهها. لقد كانت الحكومة تعتقد بأن الأمم المتحدة تضم كل الأمم العظمى في العالم، وعلى هذا الأساس فإن سلطة منظمة الأمم المتحدة، سوف تكون عالية ومتفوقة!! لقد قيض لنا وبوقت قصير التحقق من أن منظمة الأمم المتحدة التي كانت تقع في (نيويورك) أعظم مركز لليهود في العالم. وكان الجو في نيويورك قد تم احتسابه بقدر كبير، ولقد اكتشفنا ببطء أن إسرائيل لم تكن تهتم بأي من أعضاء منظمة الأمم المتحدة.

لقد أدى دخول الجيش المصري إلى فلسطين إلى زيادة التعقيد والإرباك في الوضع المتوتر آنذاك. (فالجيش السوري لم يقم بأي عمل في مقاتلة الإسرائيليين. كما أن الجيش اللبناني هو الآخر لم يشترك في القتال). فلو لم يتدخل الجيش المصري لبقي الوضع أكثر وضوحًا. ذلك لأن الفيلق العربي كان يحاول أن يدافع عن المنطقة الرئيسة التي خصصت للعرب من فلسطين، لكنه كان في ذات الوقت يحترم الوضع الدولي للقدس، ولذلك فإننا لم نستطع أن ندافع عن الجليل التي أعطيت هي الأخرى للعرب، والتي كانت القوات الإسرائيلية قد سارعت إلى احتلالها وضمها إلى دولة إسرائيل.

وفي الوقت ذاته بدأت القوات الإسرائيلية الموجودة داخل مدينة القدس تعمل بكل قوة للاستيلاء على المدينة برمتها، بما في ذلك النصف الذي يسكنه العرب. طلب السكان العرب في القدس بعبارات متطرفة إلى الملك عبدالله،وحكومته بأن تبادر إلى إنقاذهم.

لم يكن لديّ سوى أربعة آلاف وخمسمائة نفر لمواجهة عدد أكبر من ذلك العدد من الإسرائيليين، وأن أدافع في ذات الوقت عن منطقة تبلغ مساحتها

ثلاثة آلاف ميل مربع. إنه لطلب واهٍ بأن أندفع إلى مدينة القدس، لأن أعدادنا القليلة سرعان ما يتم ابتلاعها. ذلك أن قتال الشوارع يكلف غاليًا من الرجال والجنود النظاميين المدربين.

سيطر الإسرائيليون على النصف العربي من مدينة القدس كله، شارعًا بعد شارع، في مدى خمسة أيام. في الوقت الذي كانت فيه حكومة الأردن تستعطف متحمسة قناصل الدول الغربية في القدس، بأن تعلم منظمة الأمم المتحدة التي قررت أن تضع القدس تحت سيطرتها، وكذلك إبلاغ الحكومة البريطانية بالموضوع.

لقد غدا واضحًا تماما، بأن الإسرائيليين سوف يحتلون مدينة القدس كلها في غضون ساعات، ويصبحون قادرين على أن ينحدروا منها إلى نهر الأردن في أريحا. ولذلك اضطررنا في فجر اليوم السابع عشر من شهر أيار أن نتوجه إلى مدينة القدس، كما أمرت الحكومة الأردنية بذلك.

تحركنا بامتداد الخط الغربي الذي يفصل بين المدن اليهودية والعربية، من دون أن نهاجم أي حي يهودي إلى أن تم اتصالنا بالقدس القديمة، وهكذا دخلت القدس بقوة لا يزيد عددها عن ثلثمائة رجل في الوقت الذي كانت فيه المدينة تضم آنذاك أكثر من مائة ألف يهودي فتدبر!!

كتب أحد المراسلين اليهود من القدس يقول: إن الفيلق العربي قد وجه هجومه بأربع بطاريات من المدافع الثقيلة، ووحدات من مدفعية أصغر، وكتيبتين من المشاة، ووحدات كبيرة من الدبابات والسيارات المصفحة. وبعد أن قامت هذه القوات بإقامة سد ناري من المدفعية بقوة كثيفة تتقدمها الدبابات في المقدمة، في حين أن القوة الأردنية الحقيقية التي دخلت مدينة القدس، كانت

مؤلفة من سرية مشاة واحدة، وأربعة أفواج من السيارات المدرعة ليس إلا. ومهما يكن الأمر فإن الإسرائيليين كانوا يمتلكون وسائل الدعاية العالمية، وسرعان ما كانت دعاواهم تذاع في كل أنحاء العالم.

بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ، وإذ كنت ألقي محاضرة في الولايات المتحدة الأمريكية، كانت الأسئلة تنهال علي في أكثر من مناسبة واحدة وهي تقول (كيف أقدمت على مهاجمة مدينة مقدسة مسالمة بكل ما لديك من مدافع دبابات؟؟).

- 13 -

حرب 1948 ودور الساسة العرب

وكما أوضحت من قبل، عبر الفيلق العربي في الأردن في اليوم الخامس عشر من شهر أيار سنة 1948، بموافقة من الحكومة البريطانية، لمساعدة العرب في الدفاع عن منطقة الضفة الغربية أي (اليهودية) و(السامرة) التي خصصت لهم. ولقد منعنا منعًا باتًا من الدخول إلى (القدس) التي أعلنتها منظمة الأمم المتحدة، مدينة دولية، أو أن ندخل أية منطقة خصصت للدولة اليهودية في مشروع التقسيم. وعلى هذا كانت خططنا تتماشى بدقة تامة مع أوامر الأمم المتحدة، ومصادقة الحكومة البريطانية.

أما حكومة شرقي الأردن، التي كانت، لسذاجة تفكيرها، تعتقد بأن الدولة اليهودية التي قبلت بمشروع التقسيم، سوف تلتزم، في حين أن مدينة (القدس) التي أعلنت منطقة دولية، كانت تمثل المفتاح الاستراتيجية لفلسطين كلها، لأنها كانت تؤلف مفترق الطرق من (تل أبيب) إلى (أريحا) ومن الخليل إلى نابلس. كانت دولة إسرائيل متأكدة من هذه الحقيقة، ولذلك قررت أن تستولي على مدينة القدس بكاملها حالما يغادرها البريطانيون.

ولمدة أربعة أيام من الآلام المبرحة، ونحن متمركزون بين الرملة وبيت القدس، آملين بمنتهى الحماسة بأن تبادر منظمة الأمم المتحدة، أو القوى الدبلوماسية الأخرى، إلى إيقاف الغزو الإسرائيلي للقدس، ما أرغمنا في النهاية

على أن ندخل المدينة، كان دخول الجيش المصري إلى فلسطين، قد أحدث انطباعًا بوجود هجوم مركز ضد دولة إسرائيل، التي أنشأها مشروع التقسيم، كنت أنا في الغالب هو الرجل الذي يتلقى الذم باعتباري كنت أقود جيشًا متحمسًا لمهاجمة دولة إسرائيل (البريئة)!! التي ولدت حديثًا. ولم أكن إزاء ذلك أستطيع أن أفعل شيئًا سوى أن أبين، في دفاعي ضد هذه التهمة، بأن القادة العسكريين ليسوا هم الذين يبدأون الحروب، بل أن الحكومات هي التي لها حق التصرف.

ومهما يكن الأمر فإنه لم تكن لدينا نوايا لأن نصطدم مع إسرائيل التي قبلت بمشروع منظمة الأمم المتحدة، والذي التزمنا نحن به أيضًا. وفي النهاية اضطررنا إلى أن ندفع نحو مدينة القدس بثلاثمائة رجل، وإن كانت المدينة تضم مائة ألف يهودي.

حين أرغمنا على أن نتدخل لوقف اندفاع الإسرائيليين إلى مدينة القدس، وجدنا أنفسنا نسيطر على أرض تقدر مساحتها بحوالي ألف ميل مربع، ولا نملك سوى أربع كتائب ليس إلا، كانت منها كتيبة ونصف كتيبة هي التي دخلت القدس. أما بالنسبة إلى الكتيبتين والنصف الباقية، فإن كتيبة واحدة بأكملها كانت تعسكر في (اللطرون)، لإغلاق الطريق من تل أبيب إلى القدس (كان أفراد كتائبنا يبلغ عددهم زهاء سبعمائة نفر تقريبًا).

وفي الوقت ذاته وصلت كتيبة سيارات مدرعة من العراق، وتسلمت قاطع نابلس من الفيلق العربي. وفي اليوم الثلاثين من شهر أيار سنة 1948، تلقينا أمرًا يستدعي كل الضباط البريطانيين النظاميين العاملين في الفيلق العربي، وذلك نتيجة قرار صادر من مجلس الأمن الدولي.

كنت قد استقلت من الجيش البريطاني في سنة 1926. ولكن حين تم سحب ضباطنا البريطانيين، أصابتنا الدهشة حين سمعنا بأن ضابطًا برتبة عقيد في الجيش الأمريكي، هو الذي كان يقود القوات الإسرائيلية التي هاجمت اللطرون.

في اليوم الأول من حزيران وصل (الكونت برنادوت) إلى عمان وسيطًا لمنظمة الأمم المتحدة. كان هذا الرجل من أفراد الأسر السويدية الملكية، وكان شخصية دولية كرس نفسه، أثناء الحرب العالمية الثانية لإنقاذ اللاجئين بما في ذلك اليهود منهم. لقد استطاع هذا الرجل على الفور أن يؤثر في نفسي وتفكيري، وإنه هو الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه اعتمادًا كليًا، لأنه هو الإنسان الذي كرس حياته للواجب وللخدمة. وإذ كان (برنادوت) يتحرك أشبه بالمكوك إلى أمام وإلى خلف، فقد كان يركز عمله، من دون كلل، لإحلال هدنة، استطاع أن ينجح في ترتيبها في اليوم الحادي عشر من شهر حزيران، والتي استمرت مدة شهر كامل.

ذهبت لمواجهة رئيس وزراء الأردن توفيق باشا وأوضحت له بأنه تتوفر لدينا فرصة شهر واحد (لالتقاط الأنفاس) لتعزيز قواتنا، وتعويض الخسائر التي عانيناها، وطلبت مصداقته على ما أردت. ولكنه رد علي بقوله أن ذلك لن يكون ضروريًا تمامًا، نظرًا لأنه لن يقع هناك المزيد من القتال. ولقد رددت على قوله بأن الإسرائيليين منهمكون، بصفة محمومة، في زيادة قوتهم، وأنهم على النقيض من شروط الهدنة كانوا يتلقون الأسلحة والتعزيزات من جيكوسلوفاكيا، لأن مساندة الاتحاد السوفياتي لإسرائيل في هذه المرحلة كانت نسبية. وعلى الرغم من الحظر الذي أصدره رئيس وزراء الأردن، فإنني بذلك عملت كل ما أستطيعه لتجنيد المزيد من الرجال وتدريبهم.

لم يعد مستطاعًا أن نحصل على الأسلحة والذخيرة،لأن بريطانيا كان هي المصدر الذي كان يموننا بذلك، وإن كان بريطانيا تطبق بقوة قرار مجلس الأمن الدولي الداعي إلى عدم تزويد المتحاربين بالذخائر الحربية. وفي الوقت ذاته تعهد (الكونت برنادوت) بأن يضع بنفسه مشروع تقسيم معدل، يتخذه أساسًا لتسوية دائمة.

كان الحي اليهودي في القدس القديمة مأهولاً بطراز قديم من اليهود المستعربين تمامًا. وكان معظمهم من المؤمنين بالدين بشدة، ولا يشعرون بأي عطف على الصهاينة من اليهود والألمان والروس. ومع ذلك. وقبل أن ندخل نحن إلى القدس، بعث الإسرائيليون بكتيبة من قوات (البالماخ) التي تمثل الجزء المختار من جيشهم، إلى الحي اليهودي في القدس. وعلى هذا فحين دخل الفيلق العربي إلى القدس، أقدمت قوات (البالماخ) وحدها على إطلاق النار ضده، وحدثت بعض الالتحامات في بيوت الطبقة الفقيرة الممزقة التي تشبه أوجار الأرانب، ولكن اليهود استسلموا في النهاية.

قمت بزيارة اليهود على الفور، فوجدت أنهم كانوا من الفقراء الورعين، وكانت اللغة الرئيسة التي يتحدثون بها هي اللغة العربية،وعدا ذاك اتصلنا بالصليب الأحمر الدولي لكي نخرج الشيوخ والنساء والأطفال، وغير المحاربين عبر خطوط النار إلى الجانب الإسرائيلي. وكانت تلك القافلة الصغيرة الحزينة، تتعثر في الشوارع الضيقة في القدس القديمة. وكان جنود الفيلق العربي يساندون المرضى والشيوخ، ويحملون صررهم الصغيرة من مقتنيات اليهود، وإذ ذاك هتف مراسل إحدى الصحف الأوروبية يقول (حسنا ذلك ما أدعوه بالفروسية!).

كان مقررًا أن تنتهي الهدنة في اليوم الحادي عشر من شهر حزيران. ولم تكن الجيوش العربية في وضع تستطيع معه أن تجدد حركاتها العسكرية. وكانت

القوات المصرية والأردنية هي الوحيدة التي كان لها تماس مع الإسرائيليين، ولكن أيا منها لم تكن لديه الذخيرة الاحتياطية، أو أي مصدر خارجي للحصول منه على السلاح، إذ كان الجيشان المصري والأردني يزودان في الأصل، بالسلاح وبالذخيرة من لدن بريطانيا، التي كانت تطبق بدقة قاعدة مجلس الأمن الدولي، وترفض أن تزود الجيشين المذكورين بأية تجهيزات شبه حربية.

قبل أن تنتهي مدة الهدنة اجتمعت الحكومات العربية في القاهرة، وقد طلبت أنا والملك عبدالله، إلى رئيس الوزراء الأردنية، أن يعمل على تمديد الهدنة، الأمر الذي وعد بتنفيذه. لم تصل إلينا أية أنباء على المداولات التي جرت في القاهرة، إلى أن عاد (توفيق باشا)، وأفاد بأن محمود النقراشي (رئيس وزراء مصر)، قد أصر على إنهاء الهدنة. حينذاك سألت رئيس الوزراء توفيق باشا قائلاً ولكن كيف نواصل القتال من دون ذخيرة؟ فرد علي يقول (لا نطلق النار إلا إذا أطلق اليهود النار أولاً!).

لقد كنت أعجب عما إذا كان هناك آمر للجيش قد جابه مثل هذا الوضع. لقد وافق الإسرائيليون على تمديد أمد الهدنة. أما العرب فإنهم، بتحريض من مصر، قد رفضوا ذلك. أما بالنسبة إلى الأمر الواقع، فإنه لم يكن لدينا سوى النزر اليسير من الذخيرة، وقد طلب إلينا بأن لا نطلق النار، إذا كنا نستطيع أن نتجنب ذلك. وفضلاً عن هذا فقد كرر توفيق باشا أوامره، بأن لا ننفق أية نقود، وكان الملك عبدالله مبتسمًا مثلما كنت أنا كذلك!

أعددت في يومياتي مذكرة، عن الأوامر التي أصدرها رئيس الوزراء والقاضية بأن نستعد للحرب، ولكن من دون أن نطلق النار، أو ننفق النقود!! تلقى الفيلق العبي أوامر مشددة بأن يعمل المستحيل. ولكن قبل كل شيء، كان

قد سبق لنابليون أن قال بأن كلمة مستحيل ليست كلمة فرنسية لم أستطع أن أتجنب بعض الدهشة بشأن الحقيقة القائمة وهي: أنه في الوقت الذي طرد فيه مئات الألوف من اللاجئين من مساكنهم في فلسطين وكانوا لا يملكون شروى نقير، كان مجلس العموم البريطاني، يناقش بحرارة، قانونًا يمنع صيد الثعالب. لم أستطع أن استنكر عواطف البريطانيين تجاه الحيوانات في الوقت الذي لم تكن فيه تلك العواطف تأبه بآلام الألوف من رفاقهم من المخلوقات البشرية. صحيح أن الولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، والعرب، واليهود، كانوا يطالبون بأصوات عالية، بضرورة جلاء البريطانيين عن فلسطين، وأن البريطانيين أنفسهم مرضى من الحرب، ومتعبون بسببها، لكنني لا أستطيع أن أحس إن كانت بريطانيا على الأقل، قد حذرت منظمة الأمم المتحدة، بالفوضى التي قد تعقب ذلك أو أنها قد وضعت فرقة تابعة لها في مدينة القدس لمنع الحرب فيها، إلا أن تستطيع الدول العربية وإسرائيل أن ترتب أمورها.

أصبحنا الآن ندرك بأننا قد اشتبكنا في حرب من طراز جديد، حرب يحارب فيه شعب برمته، لكي يفني شعبًا آخر برمته. إنه صراع أشد شراسة ووحشية من أية حرب أخرى بين الأباطرة والملوك القدماء. لقد كانت هذه حربًا جماعية، يتطلع فيها شعب واحد إلى أن يطرد شعبًا آخر، ويدمره ويستولي على بلاده.

كانت المرحلة الأولى من القتال، قد انشغلت على انفراد، بموضوع مدينة القدس، وبمنع اليهود من الاستيلاء عليها بكاملها، وسد الطريق بين تل أبيب واللطرون، لمنع مرور المزيد من الإسرائيليين إلى مدينة القدس.

ومع ذلك فقد استغل الإسرائيليون، الهدنة الأولى في سبيل استكمال نقل قواتهم إلى القدس وتعزيزها هناك، ولذلك فإنهم قرروا في الفترة الثانية من

القتال، بأن يستولوا على (اللد) و(الرملة) المدينتين اللتين يسكنهما العرب وحدهم، واللتين ضمتا إلى المنطقة العربية وفق مشروع التقسيم. غير أن هاتين المدينتين تقعان في السهل الساحلي، وعلى بعد بضعة أميال ليس إلا عن تل أبيب، ولم يكن لدينا رجل واحد لكي يدافع عنها.

كان الإسرائيليون يحتفظون قبالة الفيلق العربي بجيش البالماخ الذي كان يضمُّ حوالي ستة آلاف وخمسمائة رجل، وقد تم تنظيمه في صفة فرقة مؤلفة من ثلاثة ألوية، وتم تجهيزه بسيارات الجيب، وناقلات الجنود المدرعة، والسيارات المصفحة، ومدفعية الميدان.

كانت الخطة الإسرائيلية تنطوي على الاستيلاء على كل من اللد والرملة، ومن ثم اقتحام مدينة اللطرون، وذلك عن طريق الاستيلاء على بيت سيرا ورام الله من بعدها، وقطع الاتصال بين الجيش العراقي والفيلق العربي، ومن ثمَّ تطويقهما معًا.

بدأ جيش البالماخ تنفيذ خطته هذه، بأن دفع بلوائين من قواته إلى ما حول مدينتي (اللد) والرملة، فبدأ بالهجوم عليهما من ناحية الشرق، كذلك أحاطت حركة التطويق الإسرائيلية هذه بسرية مؤلفة من مائة رجل من قوات الفيلق العربي، الذي حارب في سبيل التخلص من التطويق.

أقرت الحكومة الأردنية استحالة الاحتفاظ بمدينتين (اللد) و(الرملة) وكانت هناك من ورائهما، مدينتان أخريان تقعان على بعد ثغرة تبلغ خمسة عشر ميلاً، بين إحدى سرايانا في (بيت سيرا) وإلى اليسار من الجيش العراقي في (مجدل يابا). ولقد عهد إلى كتيبتنا الأولى بأن تدافع عن هذا القطاع الذي يبلغ مداه خمسة عشرة ميلاً. وحين دخل الإسرائيليون مدينتي (اللد) و(الرملة)

احتجزوا كل الرجال المدنيين فيهما، واعتبروهم أسرى حرب، ومن ثم عاملوا النساء الأطفال بمنتهى القسوة والوحشية لإرغامهم على الهرب من هذه المدن فورًا، وهكذا هرب حوالي ثلاثين ألف امرأة وطفل، عبر الميادين المفتوحة إلى موقعنا في (بيت سيرا) ولم يكتف الإسرائيليون بذلك، بل تعقبوا هؤلاء الهاربين بتوجيه نيران قنابل (المورتر) ضدهم، حيث استطاع أولئك النساء والأطفال الهاربون أن يصلوا سيرًا على الأقدام وببطء شديد إلى تلال (رام الله) ولم يكن أحد ليعرف قط عدد الأطفال الذين قتلوا، أو الذين تخلت عنهم أمهاتهم أثناء الهرب! ولقد استطاع الصليب الأحمر الدولي، أن يلتقط عددًا من أولئك الأطفال الذين تخلت عنهم أمهاتهم وهربن بجلودهن.

انفجرت عاصفة من الحنق والغضب ضد الفيلق العربي الذي اتهم بالخيانة لتخليه عن اللد والرملة، ولقد قذفت أنا نفسي بالحجارة حين كنت في سيارتي. أما رجال الفيلق العربي الذين قاتلوا في ظروف عسيرة فقد اتهموا بالخيانة، وحملوا بالشتائم،لأنهم لم يدافعوا عن مدينتي اللد والرملة. ومع أن الحكومة الأردنية قد وافقت بأن لا تحاول الاستيلاء على اللد والرملة، إلا أن هذه الحكومة نفسها أخذت تشارك الآن في إطلاق حملة الشتائم والعويل!

أعلن الساسة أن بريطانيا كانت راغبة في مساعدة إسرائيل، وأنني قد تلقيت أوامر سرية من (أطرنست بيفن) وزير الخارجية البريطانية للانسحاب من اللد والرملة. وقد استدعيت لحضور اجتماع كامل عقده الملك والوزارة واتهمت فيه بالخيانة!

وفي الوقت ذاته فإن جيش البالماخ اليهودي، ما أن أتم احتلال اللد والرملة حتى أعاد تنظيم أرتاله استعدادًا للقيام بهجوم كبير على مدينتي (بيت

سيرا) و(اللطرون). وفي صباح اليوم الخامس عشر من شهر تموز سنة 1948، تقدمت الأرتال الإسرائيلية ضد (البرج) و(بير معين) و(بيت سيرا) في الوقت الذي جددت فيه أرتال أخرى هجماتها المتوالية على (اللطرون).

قامت ثلاث سرايا من قواتنا بإعاقة الطريق أمام قوات (البالماخ) في (بيت سيرا) ولقد جرى قتال كثيف تمثل في هجمات وهجمات مضادة، استمرت طيلة اليوم السادس عشر من تموز، ومع ذلك أمكننا الاحتفاظ بخط القتال. وقد حصل هدوء في اليوم السابع عشر من شهر تموز حيث كان الفريقان المتحاربان يعيدان تنظيم قواتهما، وفي أثناء النهار أنبئنا بأن كل الأطراف قد وافقت على وقف إطلاق النار الذي سوف يبدأ في الساعة الخامسة من مساء اليوم الثامن عشر من تموز.

كان الإسرائيليون قد هيأوا كل ما توفر لديهم من قوة بقصد الاستيلاء على اللطرون وبيت سيرا، وقد انطلقوا إلى (رام الله) خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة من القتال. فقد تقدم لواءان من جيش البالماخ ضد جبهة (اللطرون - بيت سيرا)، وبالإضافة إلى ذلك جلب الإسرائيليون قوة مدرعة تتألف من خمس دبابات، وعشر سيارات مزودة برشاشات من طراز (برين)، وعددًا من السيارات نصف المجنزرة، فتقدمت هذه القوة بأكملها نحو مدينة اللطرون.

كانت الكتيبة الثانية من الفيلق العربي تمسك بمدينة اللطرون، ولم يكن لديها سوى مدفع واحد لمقاومة الدبابات، من عيار ستة باونات، مثبت على سطح محطة قديمة للشركة. قتل كل الرجال الذين كانوا يعملون في تشغيل المدفع. في حين أن كل رجل كان يحس بأنه قد استبدل برجل آخر. تقدم لواء آخر من جيش البالماخ نحو مدينة (بيت سيرا) لكنه جوبه بهجوم مضاد من ناحية

الشمال قامت به سرية من الكتيبة الأولى، فأعادت اللواء الإسرائيلي إلى الوراء. وأخيرا حلت الساعة الخامسة بعد الظهر، فتوقف القتال. ولقد استطعنا أن نتمسك بجبهتنا الضعيفة.

قبل أن يبدأ القتال في اليوم الخامس من عشر من شهر أيار سنة 1948، كان (عبدالرحمن عزام) الأمين العام لجامعة الدول العربية، قد جاء إلى عمان، ووعد الحكومة الأردنية بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه من الجامعة العربية في صفة نفقات للحرب، وقد دفعت مقدمة من ذلك المبلغ مقدارها ربع مليون جنيه. وينبغي علي أن أعترف بأنني لم أتوقف خلال أسابيع القتال، لكي أدقق الحسابات. وحين توقف القتال، وجدنا بأننا قد تجاوزنا صرف مبلغ الربع مليون جنيه،ولذلك طلبنا إلى (عبدالرحمن عزام) بأن يمدنا بالمزيد من المال، لكنه رفض.

ذهبت بصحبة وزير الدفاع لمواجهة توفيق أبو الهدى رئيس الوزراء، الذي كان شديد السخط والغضب، وقد خاطبنا قائلاً (احذركم من أن تسيروا في ميزانيتكم قدمًا؟ فمن أين أستطيع أن أحصل على النقود؟) تضايقت من هذا القول، ذلك لأن هناك حربًا قائمة، ولأننا كنا ناجحين من الناحية العسكرية نجاحًا غير اعتيادي، ولهذا قلت لرئيس الوزراء متهكمًا (من الأفضل لك أن تقتطع هذه النقود من مرتبي!) لقد كنت مخطئا إذ أبديت سخطي، ولكننا جميعًا لم نعد نستطيع أن نضبط أعصابنا!

توجه توفيق أبو الهدى إلى القصر وعرض تقديم استقالته. كان الملك عبدالله آنذاك في وضع حرج. ومهما يكن فقد عاد السلام وإذ ذاك منحت إجازة أمدها شهر واحد للذهاب إلى إنكلترا بقصد الاستراحة هناك. وما أن وصلت إلى مطار لندن، حتى انتحى بي أحد رجال الشرطة السرية جانبًا،

وطلب إليّ أن أسجل اسمي في أحد فنادق لندن باسم (المستر سمث) ثم أردف يقول (لقد وصلت إلينا أبناء بأن الإرهابيين اليهود يبحثون عنك!).

حين كنت في إنكلترا، كان (الكونت برنادرت) قد عاد إلى فلسطين، وكان خلال شهري حزيران وتموز من سنة 1948، في نشاط مكوكي لا ينقطع، وبصفة خاصة بين القاهرة، وإسرائيل، وشرقي الأردن، وعبر المحيط الأطلسي إلى نيويورك، والحقيقة أن مهمة (برنادوت) كانت بلا أمل. ذلك لأن إسرائيل لم تكن ترغب في أية تسوية كانت، لأنها كانت تأمل أن تتوسع شيئًا فشيئًا أكثر فأكثر. ولقد وقف الأردن والعراق نوعًا ما سوية، ولكن مصر كانت تغار من البلدين،ولم تلعب سوريًا سوى دور ضئيل جدًا في العمليات العسكرية، ومع ذلك فإنها لم تكن راغبة في التعاون مع البلدان العربية الأخرى.

من بين الخطط الكثيرة التي بحثها الكونت برنادوت، وفرقته الدولية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، ضم القسم الأكبر الذي بقي من المناطق العربية في فلسطين المركزية إلى شرقي الأردن، والاعتراف العالمي الواسع بقيام دولة إسرائيل. أما الملك عبدالله فإنه كان يأمل في التوصل إلى تسوية حول هذه الشروط مع إسرائيل.

بقيت هناك مشكلتان. إحداهما أنه كانت توجد منطقة واسعة، جنوبي فلسطين تحت احتلال الجيش المصري، لكنها قد ضمت إلى إسرائيل، وكان الجزء الأعظم من هذه المنطقة مأهولاً بالعرب وحدهم، وينبغي، وفقًا لقاعدة السكان، أن لا يضم إلى إسرائيل التي كانت ترغب في ضم تلك المنطقة إليها بقصد الحصول على ميناء لها في خليج العقبة. (وقد أقامت إسرائيل في خليج العقبة أعظم ميناء لها هو ميناء إيلات قبالة ميناء العقبة تمامًا).

أما المشكلة الثانية فهي تتمثل في وضع مدينة القدس التي كانت مقدسة، على حد سواء، لدى اليهود والمسلمين والمسيحيين. ففي مشروع قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين والذي أعلن في سنة 1947، كان قد أعلن بحق أن (القدس) تكون تحت إدارة منظمة الأمم المتحدة. غير أن الأمم المتحدة ما لبثت بعد ذلك أن رفضت صرف أية نقود لإنشاء إدارتها في مدينة القدس، وكان (برنادوت) نفسه يحبذ أن تكون القدس مدينة دولية.

أعطيت المنطقة القريبة من الجليل إلى العرب، لكن الإسرائيليين ما لبثوا أن استولوا عليها. أما منطقة (النقب) أو (بئر السبع) فإنها قد أعطيت إلى الإسرائيليين، ولكن الجيش المصري ما لبث أن اقتحم هذه المنطقة واستولى عليها. قدم برنادوت اقتراحًا معقولاً، بأن يسمح للإسرائيليين الاحتفاظ بمنطقة الجليل التي كانت أرضًا صالحة للزراعة بصفة جيدة، في حين تعطى منطقة (بئر السبع) تلك الأرض الفقيرة والمأهولة بالعرب وحدهم، إلى العرب تعويضًا عن منطقة الجليل. (كان لهذا الاقتراح تأثير بالغ الأهمية في تشجيع إسرائيل على التهام الأراضي التي خصصت للعرب في فلسطين، وكان برنادوت متحيزًا إلى إسرائيل كل التحيز في طرح مثل هذا الاقتراح. وإن كان التخطيط الصهيوني في أمريكا والأمم المتحدة قد وضع من الأساس وقبل إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، كل هذه المشاريع التي نفذت فيما بعد لصالح إقامة الدولة اليهودية).

كان من شأن مثل هذا الحل، أن يثبت الدولتين العربية واليهودية ويستأصل التضارب الذي لا يمكن حله، بشأن المناطق الواقعة جنوبي (السامرة) وجنوبي (الرملة). ولكن ضرر هذه المقترحات يتمثل في أن الدولة العربية لن يكون لها أي منفذ على البحر المتوسط، إلا إذا استعادت منطقة (غزة) التي كانت في ذلك الوقت تحت احتلال الجيش المصري.

اقترح برنادوت أن تكون حيفا ميناء واحدًا لإسرائيل وللدولة العربية. غير أن الخطة التي تشمل التعاون، كانت محفوفة بمخاطر الاحتكاك بين العرب والإسرائيليين. يبدو أن مقترحات برنادوت كانت معقولة تمامًا، ولا تنطوي على أية علائم لوجود الميكافيلية الاستعمارية التي نسبت إليها. ولكن الخطأ الوحيد الذي وقع برنادوت فيه، كان قد حدث حين سمح لنفسه بأن تقنعه لجنته التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، بأن يوصي بأن تكون القدس مدينة عربية، ولكن لم يتأكد في الأخير ما إذا ظل يحتفظ بفكرته عن القدس العربية.

وفي حديث مع (موشي شرتوك) وزير خارجية إسرائيل جرى في اليوم العاشر من شهر آب سنة 1948، صرح (برنادوت) أن الإسرائيليين لم يظهروا شيئًا ما سوى التصلب والقسوة ضد اللاجئين العرب. فلو أن اليهود الذين عانوا الكثير من الاضطهاد قد أعلنوا بدلاً من ذلك، بأنهم يفهمون أحاسيس اللاجئين العرب، وأنهم لا يودون أن يعاملوهم بذات الطريقة التي عومل بها اليهود أنفسهم، فإن اعتبار إسرائيل في العالم، سوف يتعاظم إلى مدى غير محدود. وفي التوصيات النهائية التي قدمها برنادوت، أورد عبارة تؤكد وجوب السماح للاجئين العرب بالعودة إلى بيوتهم.

ومهما يكن الأمر فإن هذا الاقتراح لم يكن مقبولاً إطلاقًا من لدن الإسرائيليين الذين طردوا العرب من ديارهم بصفة متعمدة. لقد كان الفكرة الصهيونية تنطوي على إنشاء دولة يهودية يقطنها اليهود وحدهم بصفة قطعية. لقد كرس برنادوت الذي كان يتحسس آلام اللاجئين خلال الحرب العالمية الثانية، نفسه لإنقاذ مثل هؤلاء التعساء. ففي شهر آب 1948، كان يوجد حوالي ثلمثائة ألف لاجئ عربي فلسطيني.

في صباح يوم الجمعة السابع عشر من شهر أيلول سنة 1948، أقلع الكونت برنادوت بطائرته من دمشق، وهبط في قطاع جوي يصلح لهبوط الطائرات عند (قلنديا) شمالي مدينة القدس، ومن ثم دعي إلى مقر فرقة الفيلق الجيش العربي في الرملة حيث استمع إلى أنباء عن ازدياد أعمال القناصة الإسرائيليين في مدينة القدس، ولكن أحد موظفيه اقترح عليه بأن يؤجل الزيارة، لكن برنادوت هتف يقول (لا! نحن لا نستطيع أن نسمح لنفسنا بالخوف من إنجاز عملنا!) صحبت برنادوت سيارة مدرعة من الفيلق العربي إلى أن عبر إلى الجانب الإسرائيلي من مدينة القدس.

كانت ثلة برنادوت مؤلفة من ثلاث سيارات تحمله هو وموظفيه من منظمة الأمم المتحدة، وضابط ارتباط إسرائيلي. وما أن ساروا بسياراتهم خلال حي (قطمون) حتى أوقفوا من قبل سيارة (جيب) كانت تقف عبر الطريق. قفز ثلاثة رجال يرتدون البدلات العسكرية الإسرائيلية من سيارة الجيب، واتجهوا نحو سيارة برنادوت. وجه أحدهم مسدسًا أوتوماتيكيًا عبر نافذة السيارة التي يجلس فيها برنادوت وأطلق النار داخل السيارة فقتل الكونت برنادوت، والعقيد الفرنسي (سيرو) الذي كان أحد أعضاء موظفي منظمة الأمم المتحدة.

صرح أحد قادة منظمة (ليهي) الإسرائيلية الإرهابية، في حديث أجري معه فيما بعد، بقوله (أن اللجنة المركزية لمنظمة (ليهى) هي التي أقرت قتله، أي برنادوت، ولا مجال للنقاش حول ذلك الموضوع!) وقال أحدهم (إنني فخور بقتل برنادوت!) وصرح آخر (ليست لدي أية أفكار عن مقتل برنادوت!...) غير أننا (أنقذنا القدس)!

لقد نمت صداقة تامة مع الكونت برنادوت، باعتباره رجلاً، لقد كان من أعضاء الأسرة السويدية المالكة، وكان يستحق المركز الذي أعطي له. ولم يكن

يناضل باستمرار في سبيل المال، أو السلطة، أو الشهرة، مثلما كان يفعل ذلك رجال السياسة، وإنما كرس حياته على نطاق واسع، لأعمال الخير، عن طريق الصليب الأحمر الدولي، وكان مسيحيًا مخلصًا، ونبيلاً جدًا، وفارسًا كاملاً.

ارتكبنا في عمان أخطاء أساسية بالغة في تقييمنا للوضع الراهن الذي كانت عليه منظمة الأمم المتحدة. فلقد كنا نظن بأننا لن نخطأ إن نحن كنا على الدوام نطيع أوامر تلك الحكومات التي اشتملت عليها منظمة الأمم المتحدة، وكانت من أقوى الدول في العالم. أما الآن فإن ممثل الأمم المتحدة قد تم اغتياله حيث أرسل للتوسط في فلسطين. لقد انتظرنا أن تنزل منظمة الأمم المتحدة عقابها، غير أن شيئًا من ذلك لم يحدث، بل لم تظهر من المنظمة حتى ولا كلمة احتجاج أو شكوى. كما أن الحكومة الإسرائيلية لم تقم باعتقال القتلة. وعلى حين غرة سقط الحجاب عن عيوننا، فأصبح واضحًا تمامًا بأن منظمة الأمم المتحدة لا يمكن أن تحسب لشيء ما حسابًا على الإطلاق.

ومع أن وجود دولة إسرائيل كان من عمل منظمة الأمم المتحدة وقراراتها إلا أنها، أي إسرائيل، كانت تقابل الممثلين المحليين لمنظمة الأمم المتحدة، بعداء مكشوف حقًا، إن لم نقل بازدراء. لقد تأكد لدينا بأن منظمة الأمم المتحدة، لم تكن لديها، منذ ذلك الوقت لا سلطة ولا اعتبار مهما كان نوعه. لقد اختار الإسرائيليون أسلوب (العمل الكامل). فإذا ما أرادوا أن يفعلوا شيئًا ما، فإنهم يقدمون على فعله، وإذا أرادوا قطعة من الأرض، فإنهم يستولون عليها، وإذا أمرهم مراقبو منظمة الأمم المتحدة، بأن يعيدوا تلك الأرض إلى أصحابها، فإنهم لا يبالون بذلك.

كان مجلس الأمن الدولي التابع لمنظمة الأمم المتحدة هو الذي يقرر القرارات التي تصدرها المنظمة، غير أن شيئًا من ذلك لم يتم تنفيذه، وبقى

الإسرائيليون يمتلكون تلك الأراضي لأنهم كانوا متأكدين أن أيًا من الدول المشاركة في مجلس الأمن الدولي، لن ترسل جيشًا لتنفيذ قرارات مجلس الأمن الدولي تلك.

لقد بقيت الدول المشتركة في عضوية مجلس الأمن الدولي، تتمسك بتلك السياسة طيلة السنوات الاثنتين والثلاثين التي أعقبت ذلك. غير أن أعضاء مجلس الأمن الدولي في إحباطهم قرارات الأمم المتحدة، كانوا يعتمدون على يهود الولايات المتحدة الأمريكية. لقد كان مقر منظمة الأمم المتحدة في مدينة نيويورك، التي تمثل أعظم تجمع يهودي في العالم، وأكثر من هذا أن القوة اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية كانت تعتقد بأنها تتحكم في مصير انتخابات الرئاسة الأمريكية، ذلك لأن المرشحين للرئاسة كانوا يتبارون فيما بينهم فيما يقطعونه من وعود لمد إسرائيل بالمال وبالسلاح.

لقد تجاوزت قوة إسرائيل قوى كل جيرانها العرب سوية. وهي مدينة بتفوقها هذا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بمفردها ومع ذلك فإن الدعم الأمريكي غير المشروط لإسرائيل، يعزى إلى الإمبريالية الأمريكية، وكل ذلك يعود إلى خصائص السياسات الداخلية في الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى مثل هذه الصورة كانت تظهر، في بعض الأحيان، النتائج غير المنظورة للديمقراطية!!

خلال المراحل الأولى للنزاع على فلسطين، كان الاتحاد السوفياتي يعتبر العرب مرتبطين بالغرب. ونتيجة لهذا الاعتقاد، منح الاتحاد السوفياتي، إسرائيل مساعدات ذات طاقة كبيرة. ففي شهر تشرين الثاني سنة 1948، ذكرت صحيفة (الديلي تلغراف) بأن جيكوسلوفاكيا قد زودت إسرائيل بمائة طائرة

مقاتلة من طراز (مسر شمت)، وكانت هناك أربع طائرات للنقل، تغادر جيكوسلوفاكيا كل يوم وهي تحمل مواد حربية إلى إسرائيل.

كانت كل الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة قد تعهدت بأن لا تمد أيًا من الأطراف الملتحمة في نزاع فلسطين، بأية مادة حربية. ولقد راحت بريطانيا تراقب بدقة تنفيذ هذا التعهد. وكان من نتائج ذلك أن كلاً من الأردن، ومصر، اللتين كانتا تستعملان الأسلحة البريطانية، لم تستطيعا أن تحصلا على أي شيء من الأسلحة. أما الروس فإنهم، على الرغم من تعهداتهم راحوا يصبّون الأسلحة والطائرات في خزانة الحرب الإسرائيلية.

وفي الوقت الذي كان فيه الإسرائيليون يعدون قواتهم لشن هجوم جديد، فإنهم أي الإسرائيليين، لم يبدوا أيّة رغبة في إقامة الصلح مع العرب، وكان من نتيجة ذلك أن أبقوا الوضع متحركًا وذلك عن طريق الاستمرار في إطلاق نيران الرشاشات، أو مدافع (المورتر) أو أعمال القناصة وعلى الأخص في مدينة القدس.

ولقد بقي الإسرائيليون عدة أيام قبل حلول اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الأول سنة 1948، يرفضون السماح لمراقبي منظمة الأمم المتحدة، أن يكونوا على مقربة من الجبهة الإسرائيلية مع القوات المصرية. كذلك استطاع الإسرائيليون خلال هذه الفترة أن ينشئوا قوة مؤلفة من حوالي خمسة عشر ألف رجل. وفي الأخير شنوا، في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الأول، هجومًا مكثفًا على المصريين، وكانت تدعمهم في هجومهم ذاك، قوة جوية كبيرة كانوا قد هربوها من شيكوسلوفاكيا.

بقي المصريون يقاومون طيلة خمسة أيام، غير أن جبهتهم ما لبثت أن انهارت، وإذ ذاك اندفع الإسرائيليون عبر منطقة (بئر السبع) و(غزة). كان

المصريون قبلاً يسيطرون على كل من (بيت لحم) و(الخليل). غير أن القوات المصرية التي كانت تحتفظ بهاتين المدينتين قد أبيدت برمتها، وبهذا غدت بيت لحم والخليل، خالية من القوات التي تصد الهجوم الإسرائيلي عليها.

لم تكن لدى الفيلق العربي أية قوات احتياطية متوفرة. وأننا استطعنا أن نجمع بقايا فوج من السيارات المصحفة، وسريتين من المشاة، في صفة رتل، اتجه في اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول، إلى شرقي (القدس) ومن هناك انحدر إلى (بيت لحم) ومن ثم إلى (الخليل).

وفي الوقت الذي كان فيه كل فريق من المصريين والإسرائيليين، قد استخدم حوالي خمسة عشر ألف مقاتل في المعركة التي نشبت في السهل الساحلي، فإن رتل الفيلق العربي لم يزد تعداده عن ثلثمائة وخمسين رجلاً ليس إلا: وفي ذلك اليوم بالذات، أي الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول، وافق الإسرائيليون والمصريون معًا، على تجديد قرار منظمة الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار، الذي أصدرته المنظمة.

ومع ذلك كان يتوقع تقديم مساعدة ضئيلة من منظمة الأمم المتحدة في هذا الشأن، ذلك لأن انتخابات الرئاسة الأمريكية كان مقررًا لها أن تعقد خلال شهر واحد، وكان كل المشتركين فيها، يتطلعون إلى الحصول على الدعم اليهودي لهم في تلك الانتخابات.

كان يندر على قوتنا الأردنية المؤلفة من ثلثمائة وخمسين رجلاً، أن تلتحم مع القوات الإسرائيلية التي تعد خمسة عشر ألف مقاتل في سهول (بئر السبع)، ولكن كانت سلسلة جبال فلسطين تستمر في امتدادها نحو الجنوب إلى ما وراء (الظاهرية) لتسير عبر سهل (بئر السبع) وما أن استطاع الفيلق العربي أن يحتل

مدينة الخليل، حتى تركت قوة منه، مؤلفة من سبع عربات مصفحة عبر (التركمية)، وذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الأول، لكي تستكشف (بيت جبرين) حيث تبدأ الجبال بالاختفاء عند السهول.

لم يدرك الإسرائيليون بأن رتلنا الصغير، كان قد تحرك إلى جنوبي القدس، متجهًا نحو الخليل، ولذلك فإنهم دفعوا في اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول برتل من قواتهم، من (بيت جبرين) لكي يتوجه صاعدًا نحو (التركمية) ويحتل مدينة الخليل. كانت قوة الرتل الإسرائيلي تبلغ خمسة أضعاف رتل الفيلق العربي، الذي التقى به بين (التركمية) و(بيت جبرين) فرده إلى الوراء نحو بيت جبرين.

ومع ذلك فإن السيارات المصحفة التابعة للفيلق العربي لم تستطع أن تخرج إلى السهل المكشوف، وإنما عادت إلى سفوح الجبال بين (بيت جبرين) ومدينة الخليل، حيث أقامت موقعًا لها هناك. ولقد استطعنا أن ننشئ موقعًا آخر على بعد عشرة أميال عن بئر السبع. وبهذه العمليات الحيّة استطاع رتل الفيلق العربي، الذي يضم ثلثمائة وخمسين رجلاً، أن ينقذ ستمائة ميل مربع من الأراضي العربية ويبقيها لسكانها العرب. ولم يكن في مستطاعنا أن نفعل ذلك لو لم يكن الريف تكتنفه الجبال.

لقد وجدنا أنفسنا أننا كنا نمسك بالجبال، غير أننا لم نستطع في الواقع أن نحتفظ بالسهل الساحلي، الذي كان في الأصل مُلكًا للفلسطينيين، ومن ثم استولى عليه الإغريق، والرومان من بعدهم. لقد أصبحت دولة إسرائيل في الوقت الحاضر تحتفظ بهذا السهل الساحلي الذي سبق للإغريق أن استولوا عليه، في حين بقينا نحن نحتفظ بجبال فلسطين.

ومع ذلك وفي الوقت ذاته، أخذت موجات متعاقبة من اللاجئين العرب، تتدفق على خطوطنا. ذلك لأن السياسة المعتادة التي أخذت إسرائيل تطبقها الآن، تتمثل في إقدامها فورًا. بعد احتلال أية مدينة أو قرية، على طرد كل سكانها العرب منها، وهم لا يحملون معهم شيئًا سوى ملابسهم التي كانوا يرتدونها. ذلك لأن كلَّ شيء كان يملكه هؤلاء السكان العرب في العالم، قد استولى اليهود عليه، وأن أي عربي قد يتأخر عن الهرب يعتقله اليهود بمنتهى القسوة، كل ذلك لكي يسرع العرب في هربهم، أو أن يذبحوا في أيدي اليهود في بعض الحالات.

خلال الحرب العالمية الثانية كانت الليدي غراهام فوربس، والدة زوجتي (روزميري) تقوم بإدارة بين (الليدي ماك ميشيل) بمثابة مصح للناقهين من الضباط في مدينة القدس. وقد انتقلت بعد الحرب إلى بيت صغير في عمان، غير أن تدفق اللاجئين العرب من فلسطين في سنة 1948، قد دعاها مرة أخرى إلى الخدمة، ولذلك استطاعت أن تهيئ في عمان، مركزًا لتوزيع اللبن على أطفال العوائل اللاجئة من فلسطين، في ذات الوقت الذي أعدت فيه زوجتي (روزميري) نظامًا، يتم بموجبه شراء بعض المواد ودفع أجور إلى النساء اللاجئات، لخياطة تلك المواد في صفة ملابس يتم توزيعها على لاجئين آخرين.

ولقد نالت الليدي فوربس في الأخير وسامًا من جمعية الصليب الأحمر الدولي، يمثل الكونت برنادوت، وقد نقشت عليه عبارة (موربيل فوربس، ذكرى نشاط جمعيات الصليب الأحمر الدولي في سبيل اللاجئين الفلسطينيين لسنة 1949 - 1950).

راح الشعب العربي يتطلع بمنتهى الحماسة نحو التعليم الذي كان يعتقد بأنه هو مفتاح التفوق الغربي. وما زلنا نتذكر حتى الآن، كيف كان أطفال

القرية في العراق، في سني العشرينات، يتراكضون ورائي وهم يخاطبونني قائلين (من فضلك أريد أن أذهب إلى المدرسة).

أما في الغرب فإن الأولاد هناك لا يتطلعون إلى الذهاب إلى المدرسة بصفة خاصة، ولا أن يحصلوا على المعرفة حين يكونون في المدرسة. إننا لا نثمن هذه الامتيازات التي كنا نتمتع بها زمنًا طويلا. أما أولئك الذين لم يحصلوا على منافعنا، فقد كانت هذه المنافع تشملهم بحماسة. وهكذا فما أن ينجح الأولاد من بلدان الشرق الأوسط، في الدخول إلى المدارس أو الجامعات الغربية، حتى تكون لديهم رغبة وحماسة في التعليم.

وتنطبق ذات الاعتبارات على العمل أيضًا، فأولئك الذين كانوا يهاجرون إلى الغرب. كانوا على استعداد لأن يشتغلوا مدة اثنتي عشرة أو أربع عشر ساعة في اليوم،وإن كان رعايا الأمم الغربية يطالبون على الدوام بساعات أقصر، وأجور أكبر ونتيجة لذلك كان المهاجرون إلى بريطانيا وأمريكا غالبًا ما يصادفون النجاح، والثراء السريعين.

في سنواتي الأخيرة، وحين كنت أحاضر في الولايات المتحدة الأمريكية، التقيت عدة مرات، بكثير من الأثرياء الأردنيين. كان البعض منهم في الأصل جنودًا، أو نواب ضباط في الفيلق العربي، غير أنهم أصبحوا من أصحاب الحوانيت، ومن رجال الأعمال الذين يتمتعون بالرخاء، فما أن وصل هؤلاء إلى أمريكا حتى راحوا يعملون ليل نهار، إلى أن غدوا من الأثرياء.

يحدث التعاقب الطبيعي ويأخذ مجراه. فأولئك الذين اعتادوا الثراء والمعرفة، يزدادون كسلاً وخمولاً، في الوقت الذي يروح فيه المحرومون يكدّون ليل نهار لكسب الثروة والمعرفة. وفي بعض الأوقات يكون هذا التعطش العربي

إلى المعرفة مثيرًا للإرباك، إنني ما أزال أتذكر كيف أن وزير الدفاع الأردني قد قال لي في نهاية حرب فلسطين في سنة 1949 أن الجيش المصري جيش عظيم حقًا! ذلك لأن كل ضابط فيه يحمل شهادة جامعية! وإنني أود لو نستطيع نحن في الأردن، أن نحقق ولو النصف من مستواهم الرفيع!. ولقد رددت عليه أقول (هذا جيد تمامًا، ولكننا استطعنا قبل كل شيء، أن نحتفظ بجزء كبير من فلسطين لسكانه العرب، ولكن الجيش المصري لم ينقذ أي شيء!).

غير أن الوزير سارع إلى التخلص من تعليقي ذاك بأن قال (أجل! أجل! ولكن ألست تعتقد بأننا نهدف إلى أن نحقق التكافؤ مع الجيش المصري؟).

- 14 -

الفيلق العربي والهدنة الكاذبة

في شهر كانون الثاني سنة 1949، رتب الدكتور رالف بنش الأمريكي الذي خلف الكونت برنادوت، عقد اجتماع بين ممثلي مصر وإسرائيل في جزيرة (رودس)، وقد وقع الطرفان على عقد هدنة في اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط 1949. وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر آذار الذي تلاه، وقع لبنان هو الآخر على هدنة، وإن لم يكن له في الواقع أي جيش، ولم يشترك في القتال إلا قليلاً.

وفي نهاية شهر آذار ذاته أنبأت حكومة العراق حكومة (عمان) بأنها سوف تسحب قواتها التي بقيت لمدة عشر اشهر تمسك بستين ميلاً من خط القتال. وفي ذات الوقت كان الإسرائيليون قد احتلوا منطقة (النقب) ووصلوا إلى جنوبي خليج العقبة. وعلى هذه الشاكلة أصبح الفيلق العربي وحده يواجه الإسرائيليين في جبهة تمتد زهاء ثلثمائة ميل.

أصبح الآن لدينا حوالي عشرة آلاف رجل مقابل عدد أعظم بكثير من الإسرائيليين. وفي شهر شباط سنة 1949 كانت حكومة شرقي الأردن قد تلقت دعوة من الدكتور (رالف بنش) لإرسال مندوب عنها إلى جزيرة (رودس)، للتفاوض على عقد هدنة مع إسرائيل تحت إشراف منظمة الأمم المتحدة. وفي اليوم الحادي عشر من شهر آذار من ذات السنة وقع شرقي الأردن على هدنة مع إسرائيل في جزيرة رودس.

وفي الوقت ذاته أفصح العراق عن نيته في سحب قواته من دون أن يتفاوض مع إسرائيل، كما أن إسرائيل قد أعلنت من جانبها بأن الهدنة التي وقعتها مع شرقي الأردن لا يمكن أن تطبق على الجبهة العراقية، وإنه إذا ما انسحبت القوات العراقية، فإن الجيش الإسرائيلي سوف يحتل المنطقة التي كان الجيش العراقي يحتلها، وذلك بقصد الحفاظ على السلام!

وفي اليوم الثالث عشر من شهر آذار، أبرقت حكومة إسرائيل إلى الدكتور رالف بنش، تعلمه بأنه إذا ما تسلم الفيلق العربي المناطق التي كان الجيش العراقي يحتلها (كان الجيش العراقي بعد الهدنة الأولى في فلسطين قد استقر في المناطق التالية:

1- المنطقة الكائنة بين (إربد) والحدود وكان هدفه التقدم على محور إربد - جسر المجامع واحتلال جسر له عبر الأردن في جسر المجامع.
2- وضع سرب من القوة الجوية العراقية في مطار المفرق.
3- تحركت القوات العراقية لمهاجمة حصن كيش ومرتفع كوكب الهوى.
4- انتقلت القوات العراقية إلى منطقة السامرة - نابلس وتوابعها وكانت تتحرك على محور نابس - طول كرم حيث احتلت مستعمرة كولم ودخلت مدينة جنين فأصبح خطها يمتد من جنين - طولكرم وقلقيلية راس العين). فإنها أي إسرائيل، تعتبر هذا الإجراء بمثابة خرق للهدنة.

ليس مستطاعًا وصف القلق والتوتر الذين حدثا في تلك الأيام بالكلمات، ذلك لأن إسرائيل كانت هي المنتصرة في كل مكان، وعلى هذا الأساس تم قبولها عضوًا في منظمة الأمم المتحدة في اليوم الحادي عشر من آذار 1949.

ومع أن إسرائيل كانت في كل مكان ترفض أوامر منظمة الأمم المتحدة، وقد اغتالت الكونت برنادوت الممثل الخاص للأمم المتحدة، إلا أنها قد حظيت

بترحاب حماسي من منظمة الأمم المتحدة. أما قبول شرقي الأردن في منظمة الأمم المتحدة فإن روسيا قد استخدمت ضده حق النقض (الفيتو) بحجة أن حكومة شرقي الأردن حليفة بريطانيا!!

وفي النهاية طالبت إسرائيل بضم أربعمائة كيلومتر متر على امتداد الجبهة العراقية، ووعدت (بأنها إذا ما أعطيت لها تلك المساحة) فلسوف توقع على هدنة مع شرقي الأردن. كانت إسرائيل ما تزال آنذاك الملتزمة بالهدنة التي أقرها مجلس الأمن الدولي في اليوم الثامن عشر من شهر تموز سنة 1948. وعلى هذا فإن إسرائيل، إذا ما استأنفت القتال مع شرقي الأردن (كما هددت بذلك)، فإنها تكون بهذا العمل قد خرقت نظام منظمة الأمم المتحدة بصفة مفضوحة، في حين أن المنظمة قد رحبت بقبول إسرائيل عضوًا فيها.

أبرقت حكومة شرقي الأردن إلى حكومتي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا حول الموضوع. وقد ردت الحكومة الأمريكية على ذاك بأنها ترفض أن تتدخل في الأمر! وأخيرًا تم التوقيع في اليوم الثالث من شهر نيسان سنة 1949 على الهدنة الأردنية الإسرائيلية. وكانت هذه الهدنة تشمل الجبهة العراقية أيضًا، وقد تسلمنا نحن تلك الجبهة بأن أرسلنا إليها بألفين من قواتنا الأردنية، واستبدلنا بها تسعة عشر ألف من القوات العراقية.

يقول العرب أنفسهم أن لديهم مثلاً يقول (اتفق العرب على أن لا يتفقوا).

لقد تم إنقاذ منطقة كبيرة من فلسطين لأصحابها المحليين بفضل الفيلق العربي وحده،والذي لم يهاجم أية منطقة خصصت لإسرائيل طبقًا لمشروع التقسيم الذي أقرته منظمة الأمم المتحدة!

أما مصر وسوريا فإنهما لم تنقذا أية قطعة من أرض فلسطين، ومع ذلك فقد قُلبت الحقائق خلال السنتين أو الثلاث سنوات التي أعقبت ذلك رأسًا على عقب في أي مكان، وذلك بفعل الدعاية السياسية.

لقد كانت تلك الدعاية تزعم بأن مصر وسوريا هما أبطال القضية العربية، لكن تمت خيانتهما من قبل الأردن، وأن هذه الخيانة التي أتت من الأردن، يقع اللوم عنها بالطبع على القائد البريطاني الذي يقود الفيلق العربي، والذي قيل عنه بأنه تلقى أوامر سرية من الحكومة البريطانية لمعاونة إسرائيل، أو أنه بدلاً عن ذلك قد تسلم رشوة من إسرائيل تقدر بكميات كبيرة من النقود!!

لقد كنت ابتداءًا من سنة 1948 حتى سنة 1956 المسؤول عن ثلاثمائة ميل من الحدود بين الأردن وإسرائيل. وكان الهدف الصهيوني يقوم على أساس إنشاء دولة لا يسكنها سوى اليهود وحدهم. ولذلك شرع الصهاينة، منذ انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، يعملون بصفة منظمة على طرد كل الفلسطينيين المحليين من المنطقة التي كانوا يسكنون فيها،والتي احتلها اليهود بمنتهى العنف، بحيث اضطر السكان الفلسطينيون إلى الهرب من ديارهم مخلفين وراءهم كل ممتلكاتهم التي استولى اليهود عليها.

لقد هدمت كلُّ القرى العربية التي طُرد سكانها العرب منها، ومن ثم جرى حرقها، كل ذلك كيلا تبقى للاجئين العرب، أية مساكن يمكن أن يعودوا إليها.

لقد حاول بعض هؤلاء اللاجئين العرب، بعد عقد الهدنة، أن يعودوا إلى ديارهم ليلاً لكي يروا ما إذا كان مستطاعًا إنقاذ شيء من أموالهم التي تركوها عند هربهم. ولكن أمثال هؤلاء اللاجئين قد تم القبض عليهم من قبل الحراس اليهود وأطلقت النار عليهم وقتلوا في ذات المواقع التي ألقي القبض عليهم فيها،

وذلك من دون اعتقال أو محاكمة. وكانت نتيجة ذلك أن المتسللين من العرب المطرودين قد بدأوا يحملون السلاح أثناء تسللهم حيث تطورت عن ذلك حرب أنصار مصغرة ما كان لها أن تحدث.

أمرتني حكومة شرقي الأردن بأن أمنع اللاجئين من عبور خط التقسيم، ليس خارج نطاق الاهتمام بإسرائيل، وإنما لأن أكثرية هؤلاء الذين كانوا يحاولون عبور خط التقسيم سوف يتم قتلهم من قبل اليهود، ولا يمكن الحصول على شيء من وراء ذلك. لقد كنت أبذل كل جهد مستحيل لكي أتعاون مع الإسرائيليين أن تظل الحدود هادئة، غير أن جهودي هذه كانت كلها غير مجدية.

كان هناك شك ضئيل في أن الإسرائيليين لم يكونوا مكتفين بخطة تحديد الحدود، وأنهم ما يزالون يتطلعون إلى امتلاك فلسطين كلها حتى حدود الأردن، ما دام قد تم الاعتراف بهم دولة، من قبل منظمة الأمم المتحدة والدول الأخرى. فإذا لم يكن الوضع الدولي في تلك اللحظة مناسبًا لتجديد الحرب على الفور، فإن الإسرائيليين سوف يرغبون في أن يظل الوضع مترجرجًا، وبذلك يمكن استئناف الحرب حين تحين الفرصة المناسبة!

كانت تلك هي القاعدة الأولى التي قامت عليها سياسة إسرائيل. أما القاعدة الثانية فهي الانتقام من العرب بعشرة أمثال. فإذا ما قتل يهودي على يد أحد اللاجئين المتسللين، يكون الانتقام لذلك بقتل عشرة من العرب، انتقامًا لذلك القتيل اليهودي. ولهذا السبب كان يتم إرسال فصيل من الجنود الإسرائيليين عبر خط التقسيم، لقتل عشرة أفراد من القرية العربية التي تقع على الحدود!

وطبقًا لذلك أقمنا سياجًا من الأسلاك الشائكة حول قرانا الواقعة على الحدود، وزودنا كل قرية بعشرة بنادق، وعيّنا هناك جنديًا من الفيلق العربي

لكي يقوم بتنظيم الدفاع عن القرية. ولقد زعم المتحدثون باسم إسرائيل بأن الحكومة الأردنية هي وحدها المسؤولة عن إطلاق النار عبر الحدود، لأنها لم تمنع رعاياها من عبور خط التقسيم إلى داخل المنطقة التي تحتلها إسرائيل.

لم يسمع أحد بمبدأ مثل هذا المبدأ في العلاقات الدولية. فلو أن إنسانًا غير مرغوب فيه كان قد دخل فرنسا من بريطانيا، فإن الحكومة الفرنسية لا يمكن لها أن تحتج بأنه كان ينبغي للحكومة البريطانية أن تحول دون مغادرة ذلك الإنسان لأراضيها.

وفضلاً عن ذلك فإن المتسللين لم يكونوا من الرعايا الأردنيين إطلاقًا، ولا كانوا من سكان قرى الحدود الذين يقع الانتقام مهم، وإنما كان جميع المتسللين من اللاجئين الفلسطينيين المعدمين، وكانوا في كثير من الحالات من مخيمات اللاجئين التي أقيمت خلف الحدود بأميال عديدة، أو من أولئك الذين ما زالوا يعيشون في كهوف قائمة في التلال.

غير أن ما هو أكثر أهمية، هو حقيقة أنني كنت قد عملت المستحيل لكي أتعاون مع الإسرائيليين لتجنب الحوادث. فلقد عرضت نصب هواتف عند الحدود بين نقاط الشرطة الإسرائيلية والشرطة الأردنية، أو تأليف حراسات يقوم بها جنود إسرائيليون وأردنيون، غير أن الإسرائيليين لم يقبلوا بأيٍّ عرض تقدمت به إطلاقًا.

وقع حادث مهم على الخط الذي يقع غربي بلدة جنين مباشرة، حيث لم تقع هناك أية حوادث مهمة لفترة طويلة. غير أننا اكتشفنا مؤخرًا أن ضابط شرطة إسرائيلي كان موجودًا في هذا القطاع، وكان هذا الضابط الإسرائيلي من منتسبي الشرطة الفلسطينية أيام الانتداب البريطاني، ومن الذين أقاموا هم

علاقات مع العرب. ومع ذلك فقد تأكدت السلطات الإسرائيلية مما كان يحدث في المنطقة، فأسرعت بنقل ذلك الضابط الإسرائيلي إلى مكان ما، وإذ ذاك بدأت الحوادث تقع على الفور في قطاع جنين.

هناك نصف مليون من اللاجئين العرب المعدمين، كان معظمهم في شرقي الأردن، قد تم طردهم من ديارهم في فلسطين من دون أن يحملوا معهم شروى نفير. كانت حدودنا مع إسرائيل تمتد إلى أكثر من ثلاثمائة ميل طولاً. ولذلك كان يستحيل علينا أن نمنع واحدًا أو اثنين من الرجال الذين كانوا يزحفون ليلاً خلال خط التقسيم. وكان أمثال هؤلاء المتسللين يبتغون زيارة منازلهم القديمة،ولكن كل واحد يتم إلقاء القبض عليه وهو يفعل ذلك، تطلق عليه النار فورًا من قبل الحراس الإسرائيليين.

وفي مناسبات أخرى كان الجنود الإسرائيليون يقتحمون قرى الحدود، وهم يحملون معهم عبوات ناسفة صغيرة يضعونها قبالة أبواب المنازل، لا تلبث هذه العبوات فيما بعد، أن تنفجر داخل المنزل، وعندها يخترق الجندي الإسرائيلي ستار الظلام إلى داخل المنزل وهو يحمل رشاشته في الوقت الذي يكون فيه الرجال والنساء والأطفال نيامًا فيقوم بفتح النار على الفلسطينيين المرعوبين من الانفجار وقتلهم!

إن ذكر العديد من هذه الأمثلة يكون مؤلمًا، ولنكتفي بأن نقول بأن الإسرائيليين كانوا يتحركون بفعل اعتبارين: الأول أنهم كانوا غير راضين عن خط التقسيم وأنهم كانوا يهدفون إلى احتلال فلسطين كلها برمتها حتى حدود شرقي الأردن. ولذلك كانوا يرغبون في أن تبقى العمليات العسكرية حية إلى أن تحين الفرصة التي يتجدد فيها القتال. (يذكر (إيغال ألون) رئيس أركان الجيش

الإسرائيلي في كتابه الذي أصدره بعنوان (إنشاء وتكوين الجيش الإسرائيلي) ما يلي: ولم تساعد حملات الهجوم الإسرائيلية التي أعقبت الهدنة في اليوم العاشر من شهر تشرين الأول سنة 1948، وبصفة خاصة تلك التي تمت في (النقب) و(الجليل) الأوسط، على تحقيق وتثبيت مكاسب إقليمية وإضعاف العدو حسب، بل إنها أدت إلى اطراد التحسن في شكل استراتيجية إسرائيل وتنظيمها العسكري).

الثاني: أن إسرائيل كانت تعتمد على القوة وحدها ليس إلا، وتريد أن تحمي مواطنيها اليهود بتطبيق قاعدة العشرة أمثال. فكل إسرائيلي يقتل يجب أن يقابله موت عشرة من الفلسطينيين، بغض النظر عما إذا كان أولئك الفلسطينيون العشرة الذين تم قتلهم، كانت لهم أدنى علاقة بالقاتل!

أود أن أؤكد حقيقة واقعة هي أن هذه الوسائل كانت وسائل سياسية خالصة. ذلك لأن اليهود - كما رأينا - لم يكونوا لا عنصرًا ولا شعبًا، وإنما مجرد اتباع للدين اليهودي الذي تفرع منه الدين المسيحي. ذلك أن زعماء إسرائيل خلال حقبتي الأربعينات والخمسينات لم يكونوا بصفة عامة منحدرين من (بني إسرائيل) أصحاب التوراة، وإنما كانوا من يهود أوروبا الشرقية ليس إلا، أولئك الذين تعرضوا للاضطهاد في ألمانيا وبولندا وروسيا، وعلى هذا فإنهم لم يكونوا نتاج اليهودية بل نتاج الطرق الأوتوقراطية النازية أو الروسية التي عانوا منها.

لقد سمعت بعض اليهود يقولون أن المسيحية من أكثر الأديان قسوة ووحشية، وهم يبنون اتهامهم هذا على الاضطهاد والمظالم التي عاناها اليهود في أوروبا المسيحية. ومع ذلك فإني لا أشك في أن دولة إسرائيل كانت قد قامت

على أساس الاعتماد على القوة والازدراء بالإنسانية والعدالة. إن تجربتي في الحياة التي امتدت أربعًا وثمانين سنة قد أقنعتني بأن مثل هذا الأمر خط مغلوط للتصرف حتى من وجهة النظر العالمية الخالصة، وإن الشفقة الكرم والتفاهم المتبادل، كانت على الدوام، تنتج نتائج أفضل بصفة أوسع مما ينتجه العنف. فنحن نضطر إلى أن نقاوم ذلك العنف، ولكن نقوم بالدفاع عن الأشخاص الذين يكونون تحت حمايتنا. أما بالنسبة إلى الذين يهاجموننا فيجب أن نعرفهم وأن نتحدث إليهم، لأنه ينبغي لنا أن نسعى للتوصل إلى تفاهم معهم.

في إحدى أيام الجمع، من شهر تموز سنة 1951 كنت أتمشى مع عائلتي في مركز للتسوق في عمان لأن عطلة الجمعة كانت تعوضنا عن عطلتنا يوم الأحد. كان الأطفال في حانوت يبيع لعب الأطفال حين اندفع إلى الحانوت أحد رجال الشرطة قال لي همسًا (إن رئيس الوزراء يريدك في داره حالاً). قدت سيارتي إلى منزل (سمير باشا الرفاعي) الذي كان يتولى آنذاك رئاسة الوزارة. كان أعضاء الوزارة قد اجتمعوا هناك، وهم يبكون من دون خجل والدموع تسيح على خدودهم! وحينذاك قال لي (سمير باشا) بين النحيب والآهات (إن سيدنا قد مات! ادع الجيش لأن يكون في حالة طوارئ).

كان الملك عبدالله قد ذهب لأداء الصلاة في مسجد (بيت المقدس) أي المسجد الأقصى. كان هناك رجل قد اختفى وراء الباب وأطلق النار على رأس الملك حين عبر عتبة المسجد (ذكر الملك حسين في كتابه (مهنتي كملك) أنه كان قد صحب جده الملك عبدالله في يوم مصرعه إلى بيت القدس وأن الملك عبدالله ما كاد يخطو بعض خطوات حتى ظهر رجل وراء الباب الكبير إلى اليمين لم يكن في حالة طبيعية وكان يمسك بسلاح وقبل أن يستطيع أحد أن يبدي أية مقاومة أطلق النار. لم يره جدي أبدًا وكان على بعد مترين من القاتل فأصيب

برأسه فانهار وقد انتشرت عمامته على الأرض ولم أتبين فورًا ما قد حدث. خلال لحظة كانت تبدو دهرًا كاملاً. بقي القاتل جامدًا غير قادر على الحركة. إلى جانب قدمي كان شكل أبيض مسجى على الأرض وبقيت لا أفهم، وفجأة استدار الرجل وفر هاربًا فانطلقت في إثره داخل المسجد. وفي الوقت الذي انطلق مسرعًا، رأيت من طرف عيني كل أصدقاء جدي يهربون في كل اتجاه. إنني ما زلت أراهم هؤلاء الكبار وأعيان الدولة وهم يخفون وجوههم ويفرون كأنهم العجائز المذعورات).

كانت في القدس أثناء العهد التركي أسرتان هما أسرة آل الحسيني وأسرة (آل النشاشيبي) ولقد عين البريطانيون أثناء انتدابهم على فلسطين (الحاج أمين الحسيني) مفتيًا للدين الإسلامي في القدس، ولكن خلال الحرب العالمية الثانية كان أمين الحسيني قد ذهب إلى النازيين، ولم يستطع العودة إلى القدس بعد تلك الحرب.

لقد دخل الفيلق العربي فلسطين لكي يدافع عن المنطقة الرئيسة التي خصصت للعرب، وكانت تلك المنطقة كما سبق أن أوضحت قد ضمت إلى الأردن لقد وجد المفتي الذي كان يتطلع إلى أن يصبح هو زعيم فلسطين أن الملك عبدالله قد أصبح يتوسل به ويتضرع إليه. تم اعتقال عضو آخر من الأسرة الحسينية بتهمة قتل الملك عبدالله وحكم عليه بالإعداد ونفذ الحكم فيه.

كان الولد الأكبر للملك عبدالله، هو الأمير طلال، الذي كان يعيش في مستشفى للأمراض العقلية في سويسرا لأنه كان يعاني من مرض (الشزفرنيا) كان فتى ظريفًا محبًا لعائلته وإن كانت علاقاته مع أبيه غير حسنة. عاد (طلال) إلى عمان في اليوم الخامس من شهر أيلول سنة 1951 لكي يعتلي العرش.

كانت الشوارع قد زينت بفخامة، وقد تلقى الترحاب الحماسي، وكان كثير من الناس يبكون من شدة الفرح والعاطفة.

وفي الوقت ذاته استمرت الحرب الفرعية على خط التقسيم الإسرائيلي، ذلك أن اللاجئين الفلسطينيين، واصلوا التسلل عبر خط التقسيم ليلاً لكي يزوروا مساكنهم القديمة. وكانت القوات الإسرائيلية تعبر خط التقسيم باستمرار لتطلق النار على العرب، بحجة أنها تريد أن تمنع تسلل اللاجئين. ولم تسجل سوى حالة واحدة كان فيها رجال الفيلق العربي قد عبروا خط التقسيم. ذلك لأن هيئة مراقبي منظمة الأمم المتحدة والضابط الذين اختيروا من دول محايدة، كانوا قد تخلوا تمامًا عن أي أمل للسيطرة على الوضع. فإذا ما بعثوا بتقارير عن الحوادث إلى مقر منظمة الأمم المتحدة في نيويورك، فإن تلك التقارير لن ينجم عنها اتخاذ أي عمل لقاء ذلك، (منذ أن أنشئت منظمة الأمم المتحدة وحتى الآن كان أهم موظفيها في مقرها بنيويورك من كبار الصهاينة والاستعمار ومن الذين كانوا يخفون عن المنظمة كل الحقائق التي لا تروق لليهود). ولما كنت أنا نفسي والفيلق العربي نمثل القوة التي تحافظ على خط التقسيم، فقد كنا ضحايا دائمين للقدح والذم. أما البلدان العربية الأخرى (من أمثال سوريا، ومصر والمملكة السعودية) فإن أيًا منهما لم تستطع أن تنقذ حتى ولا (ياردًا) واحدًا مربعًا من أراضي فلسطين العربية، بل إن هذه البلدان لم تتوقف عن اتهام الأردن بالخيانة، إلى درجة أن إحدى الصحف المصرية قد ذكرت أن إسرائيل قد دفعت إليَّ الأموال، والصحيفة زعمت بأنها تملك صورة أبدوا فيها نفسي جالسًا في مؤتمر مع القادة العسكريين في تل أبيب، وأنني كنت أتآمر معهم لطرد العرب. ولقد أعلنت تلك الصحيفة بأنها سوف تنشر تلك الصورة في عدد قادم لكن الصورة لم تنشر أبدًا!!

كان الملك طلال رجلاً حسن الخلق والخلقة ومن اليسير العمل معه. كان في أوائل الأربعينات من عمره، وذلك هو العمر النموذجي لملك جديد. لقد كان له من العمر ما يكفيه للتجربة، ومن الشباب ما يكفيه لأن يظل نشطًا قويًا. في خلال سنة من حكمه من شهر تموز سنة 1951، إلى شهر تموز سنة 1952، بدا على الأردن بأنه سيكون بلدًا مستقرًا تمامًا.

كان الجيش الإسرائيلي يغير باستمرار عبر الحدود. وقد حدث انقلاب عسكري في سوريا (انقلاب أديب الشيشكلي الذي حدث في اليوم التاسع عشر من كانون الأول 1949)، وشغب في بغداد (انتفاضة تشرين الثاني سنة 1952 في اليوم الثاني من الشهر المذكور). وأعلنت الأحكام العرفية في طهران (انقلاب الجنرال زاهدي في طهران في اليوم التاسع عشر من شهر آب سنة 1953 والذي أدى إلى سقوط حكومة الدكتور محمد مصدق، وعودة الشاة محمد رضا إلى عرشه وسيطرة الاحتكارات الأمريكية على نقط الأحواز تمهيدًا لتحويل إيران إلى مستعمرة أمريكية خالصة). وأحرق النصف من مدينة القاهرة نتيجة الشغب (أحرقت القاهرة في 26 كانون الثاني 1952 وقد وجه الاتهام بذلك إلى القصر لإسقاط الحكومة الوفدية). وقد حدث قتال في شوارع بيروت. كما أن الشرطة الإسرائيلية كانت قد أطلقت النار على الحشود العربية المتظاهرة في الأراضي المحتلة.

أما في الأردن فإن الانتخابات العامة قد أجريت فيه من دون أن يتم اعتقال فرد واحد، أو إطلاقة واحدة لا من قبل الشرطة أو الجيش، ضد المواطنين الأردنيين.. وللمرة الثانية ظهر بأن المحبة كانت أقوى من الإكراه والقسر. كان الملك طلال محبوبًا وكان ذا وعي عميق، وكانت أخلاقه الخاصة خالية من الأغلاط في الوقت الذي كانت فيه شخصية ظريفة.

غير أنه خلال شهري نيسان وأيار من سنة 1952 تفاقم مرضه العقلي. كان طلال يعيش في قصره، ولم يكن يمارس حقوقه الملكية التي كان يديرها مجلس للوصاية. وفي اليوم الحادي عشر من شهر آب سنة 1952 تم استدعاء البرلمان إلى عقد جلسة سرية وعرضت عليه فيها المستندات الطبية التي تخص الملك. وبعد انقضاء جملة ساعات في النقاش قرر البرلمان تنحية الملك طلال عن العرش، وإن يخلفه فيه ابنه الأكبر الأمير حسين.

ذهب الملك طلال أول الأمر إلى مصر ومن ثم غادر إلى تركيا، حيث كان يعيش حزينًا وحيدًا في فيلا (على ضفاف مضيق البسفور) إلى أن توفي بعد ذاك بسنوات قليلة. وفي الوقت ذاته كان الأمير حسين يدرس في كلية (هارو) في إنكلترا وقد عاد إلى عمان في اليوم الخامس والعشرين من شهر آب سنة 1952، فاستقبل ترحاب شعبي حماسي. غير أنه لم يكن من الناحية القانونية قادرًا على ممارسة واجباته الملكية، لأنه كان آنذاك في السنة السابعة عشرة من عمره. وعلى هذا فإن عمره لن يكتمل حتى يبلغ السنة الثامنة عشرة بعد ميلاده. وطبقًا لذلك عاد إلى إنكلترا حيث أمضى دورة مختصرة مدتها ستة أشهر في الكلية العسكرية في (ساندهرست).

لقد استطعنا خلال هذه السنين المليئة بالقلق المتزايد، أن نحقق نجاحًا مثيرًا كسبنا به الولاء الجماعي تقريبًا من لدن القرويين الفلسطينيين. لقد أدت الغارات الانتقامية التي كان الجيش الإسرائيلي يقوم بها على حدود القرى العربية، أن نبادر نحن إلى تأليف الحرس الوطني. وكان هذا الحرس يتضمن تجنيد الشباب الفلسطيني في القرى العربية، وتدريبهم للدفاع في ديارهم على أيدي نواب ضباط وجنود من أفراد الفيلق العربي الذين عينوا في تلك القرى. كما أننا استطعنا أن نحصل على كميات محدودة من الأسلاك الشائكة (لأنه ليس

لدينا المال الذي نستطيع أن نشتري به المزيد من هذه الأسلاك) وذلك لإحاطة حدود القرى بها.

وفي عدة مرات كانت الهجمات التي تشنها سرايا الجيش الإسرائيلي على القرى العربية قد تم صدها. ويبدو أن هذا الفشل قد زاد من حنق الإسرائيليين الذين واصلوا اقتراف الاعتداءات ونشر الدعاية. ففي شهر أيار سنة 1953 حصلت أربع عشرة حادثة اعتداء إسرائيلية في مدى أربعة أيام. كما أن الحكومة الأردنية قد ادعت في بيان رسمي أن مائتي هجوم قامت بها القوات الإسرائيلية، في الفترة الواقعة ما بين اليوم الأول من شهر كانون الثاني سنة 1953 حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر أيار من تلك السنة. وقد نجم عن تلك الهجمات وفاة مائة وستة وخمسين شخصًا من العرب معظمهم من النساء والأطفال.

رحنا نتضرع من دون جدوى إلى لجنة المراقبة التابعة لمنظمة الأمم المتحدة بأن تقنع الإسرائيليين بالتوصل إلى عقد اتفاق للتعاون بين الشرطة الإسرائيلية والشرطة الأردنية.

حين كنت شابًا كنا قد اعتدنا إذا أردنا أن نتباهى بأي شيء عملناه، أن نتلقى السؤال عما إذا كان (بوقينا) قد مات؟! لقد نفخت بوقي عدة مرات في هذه الصفحات حين دونت الشواهد والبيانات التي تلقيتها. (يقصد المؤلف بعبارة (نفخت بوقي) تفاخرت وتباهيت). لقد وقع حادث من هذا القبيل في هذا الوقت. كانت زوجة رئيس الجمهورية اللبنانية قد قامت بزيارة إلى الأردن لمشاهدة أطلال مدينة (البتراء) (تقع في الجنوب من الأردن وقد سميت بهذا الاسم لأنها كانت منحوتة في الصخر وإذ لم يعرف الإغريق أو الرومان اسم تلك المدينة فقد سميت PETRA أي الصخر والمعتقد أنها هي المدينة التي ورد

ذكرها في القرآن المجيد باسم (إرم)) كان هناك حصن للشرطة قد أنشئ في مدخل الموقع الأثري، وكان السواح المشهودون يرتاحون لفترة قصيرة في مركز الشرطة ذاك، ويتحدثون إلى أحد العرفاء المسؤولين عنه. فاجأت زوجة الرئيس اللبناني ذلك العريف بقولها (كيف تشعر وأنت تعمل تحت إمرة ضابط بريطاني؟). نظر إليها العريف متحيرًا وسألها (ماذا تقصدين؟) ردت عليه (أعني غلوب باشا) فأجابها العريف يقول (إنه ليس إنكليزيًا بل هو واحد منا!).

- 15 -

وداعاً أيها الشرق

في شهر نيسان سنة 1953 بلغ الملك حسين سن الثامنة عشرة من حياته، وهي السنة التي تعتبر العمر الملكي المحدد بالدستور. لقد عاد إلى عمان حيث استقبل بالترحيب الحماسي في كل مكان. كان شبابه، وكياسته وسوء الحظ الذي أصاب العائلة الملكية، كل ذلك قد أكسبه الإخلاص العميق من لدن الجميع.

بقي الأردن طيلة ثلاثين سنة من أسعد الأقطار العربية، وأكثرها استقرارًا،وإن كان من أصغرها. ويبدو لي أن الكثير من هذا الاستقرار يعود إلى إخلاص الجيش للعرش، ولذلك بذلت كل جهد مستطاع لتعزيز هذا الإخلاص. فقد شجعت الملك على أن يقوم بزيارة وحدات الجيش، وأن يتعرف إلى الضباط.

وسرعان ما أصبح واضحًا بأن الملك الشاب كانت له رغبته الخاصة به. لقد كان يتشوق إلى أبعد حد، لأن يتعلم الطيران، وكان يذهب كل يوم يتلقى فيه دروس الطيران، إلى المطار. وكانت نتيجة ذلك، أن الوزارة التي اشتد الإلحاح عليها بسبب قلق الملكة الوالدة، قد أصدرت قرارًا ينص على أنه ينبغي للملك أن لا يقدم على القيام بالطيران.. غير أن الملك حسين لم يأبه بهذا القرار، وواصل طيرانه إلى أن أصبح طيارا ممتازًا. ومن ثم أخذ ثأره من الوزارة،

بأن دعا كل أعضائها إلى أن يطيروا معه في الطائرة التي كان يقودها بنفسه. ولقد انضممت أنا إلى الفريق، فأقلعنا من مطار عمان في طائرة ذات محركين، أعتقد أنها كانت تدعى (إنسون)، لكنني لا أستطيع أن أؤكد ذلك.

وما أن ارتفعنا عاليًا حتى هبط الملك بالطائرة مندفعًا بسرعة إلى وسط مدينة عمان، ثم ما لبثت الطائرة أن انقلبت في آخر لحظة، معاودًا الارتفاع بها بسرعة. كان رئيس الوزراء يجلس أمامي. وقد حكمت من شحوب وجهه، وارتباكه، والطريقة المتشنجة التي كان يمسك بها مقعده، أنه لم يستمتع بتلك الرحلة، وعلى إثر ذلك لم تُصدر الوزارة أية أحكام أخرى تنظم فعاليات الملك.

كان صيف سنة 1953 عسوفًا في شدته. لقد آن وقت تتويج الملك، (الملوك العرب ليسوا متوجين)، وإقامة العرض الاحتفالي بهذه المناسبة. كان شرقي الأردن، قد أصيب فجأة آنذاك، بآفة الجراد التي تمثل كارثة عظمى للبلد الزراعي. وقد استدعي الجيش ليقوم بمكافحة الجراد.

ضاعفنا من جهودنا على الحدود الإسرائيلية للحيلولة دون التسلل. وفي خلال أشهر نيسان، وأيار، وحزيران من هذه السنة، حدث نقص ملموس في حوادث الحدود. وحينذاك، وعلى حين غرة، قام الجيش الإسرائيلي ليلة الحادي عشر من شهر آب سنة 1953، بهجمات متواصلة على القرى العربية في (وادي فوكين)، و(الصريف) و(أدنة)، لم نستطع أن نفهم سبب تلك الهجمات لأنه لم تقع حوادث تستوجب الثأر عنها.

وفي اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الأول سنة 1953، زعمت إسرائيل أن ثلاثة من العرب قد تسللوا إلى داخل الحدود، وألقوا بقنبلة يدوية على نافذة مضاءة في مستعمرة (تيرات يهوذا) وقتلوا امرأة وطفلين، نهضنا على

الفور، واتخذنا كل خطوة لتعقب آثار المعتدين، كما عرضنا مساعدتنا على الإسرائيليين، بأن دعونا شرطتهم لكي تأتي وتعمل معنا.

وفي الساعة التاسعة والنصف بعد ظهر اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الأول، أي بعد الحادث المذكور بأربع وعشرين ساعة، اندفعت قوة إسرائيلية مجهزة بكل الأسلحة إلى قرية (قبية) التي تقع على بعد ميل وربع الميل داخل الأراضي الأردنية. كانت العملية الإسرائيلية قد أعدت أعدادًا جيدًا. ففي أول الأول تم إمطار القرية بإطلاقات من مدافع (المورتر)، ومن ثم تقدمت قوة من المشاة إلى الداخل، وراحت تطلق النار عمدًا في كل الممرات والأزقة، من المدافع الرشاشة، وفي ذات الوقت تم قصف قريتي (شقبة)، و(بردوس) المجاورتين.

ومن ثم جاء في أعقاب المشاة رجال الهندسة الذين كان كل واحد منهم، يحمل على ظهره، حزمة من المتفجرات، كان يضعها قبالة أحد الدور في القرية. كان القرويون قد تكوروا داخل بيوتهم بعد أن أفزعتهم النيران التي كانت تنطلق. وإذ ذاك اقدم المهندسون الإسرائيليون على إشعال تلك المتفجرات، فتحولت القرية برمتها إلى أنقاض، بسكانها الذين دفنوا تحت الأنقاض.

كانت القوات الإسرائيلية التي اقترفت هذه الجريمة، تتألف من فوج كامل، إضافة إلى رجال الهندسة والمدفعية. وسواء كان قد وقع الحادث ما قبل ليلة في مستعمرة (تيرت يهوذا) أم لم يقع، فإن الأمر لم تتم تسويته. ولكن الشيء المحقق هو أن فشل هذه العملية المعقدة لم يكن مستطاعًا تسويتها في مدى أربع وعشرين ساعة، وإنما كان ينبغي تسويتها بعناية!

قتل ستة وستون شخصًا من سكان قرية (قبية)، وتحولت القرية بكاملها إلى أكوام من الأنقاض. وقد أعقب حدوث تلك الكارثة، نشوب أعمال العنف

والتظاهرات، في المدن الفلسطينية، وفي (عمان) ذاتها، كانت تصحبها هتافات تهتف (ليسقط الفيلق العربي). وفي عمان تجمعت تظاهرة خارج دائرتي وهي تصرخ (ليسقط غلوب باشا).

إن الفلسطينيين شعب يصعب عليه أن يطيع أحدًا ! إن كل بوصة من فلسطين التي تم إنقاذها وتوفيرها للسكان، كان الفيلق العربي هو الذي دافع عنها، ومع ذلك فإن أبسط طعنة كان تبرز دومًا بتنظيم التظاهرات في الشوارع، ليس ضد إسرائيل، بل ضد الفيلق العربي. فهذا الاستعداد الطبيعي لإغراء البواعث الميكافيلية إلى الحكام، يبدو عليه بأنه كان من المميزات الخاصة بالفلسطينيين.

ذلك أن أي تصرف يتصرفه شخص ما، كان يتم تحليله عن طريق اكتشاف الدافع الملتوي الذي يبتغيه ذلك الشخص. ولست أدري إذا كانت هذه الصفة تُعزى إلى مقدار كمية (الدم الإغريقي) الذي يجري في (عروق) الفلسطينيين، ويمنحهم حدة الذهن هذه.

إن الكثير من أسباب هذه الحالة، يعود إلى عدم قابلية الأقطار العربية إلى الاتفاق، أو إلى الحسد الذي يبديه الواحد منهم تجاه الآخر.

لقد كان الفيلق العربي، على وجه خاص، ضحية لهذا الحسد، نتيجة حقيقة قائمة ليس إلا، وهي أنه استطاع أن ينقذ أكثرية فلسطين. أما مصر وسوريا فإن جيوشهما لم تنفذ شيئًا، وفي الوقت ذاته لم تكف عن مواصلة اتهام الفيلق العربي بالخيانة

إن حدة الذهن الثقافية هذه، التي تعزو لكل تصرف باعثًا ملتويًا بعيدًا، لا وجود لها بين السكان الأصليين لأواسط الجزيرة العربية، الذين يبدو عليهم بأن

عقولهم تتحرك علانية، وبطريقة مستقيمة. ذلك أن ميلهم هو أن يقولوا الصدق، وأن يتقبلوا كل ما يقال بقيمته الظاهرة!

كان السكان الأردنيون من أصول مختلطة. فالمدن العشر (المدن العشرة ديكابولس DECAPOLIS) هي مدن شيدها الإغريق والرومان على شواطئ نهر الأردن أثناء استيطانهم فيها وهي دمشق، وفلادلفيا (عمان) رافانا، سكيتابولس (بيسان) غادارا، هبوس ديون بللا، غيراسا، و(ناثا). وقد ظهرت هذه المدن في السنة 63-64 ق.م). كانت قد شيدت في التلال الشمالية الغربية من نهر الأردن، منذ أيام الإسكندر الكبير، على أكثر احتمال. (وكانت إحدى تلك المدن هي مدينة (بيسان) التي تقع إلى الغرب من نهر الأردن). وكانت نتيجة ذلك أن سكان الأردن الشماليين ما يزالون يحتفظون بحدة ذكائهم حتى هذا اليوم. أما بقية أنحاء الأردن، فإنها كانت مع ذلك، قد سكنتها أعداد كبيرة من أبناء الجزيرة العربية، الذين كانت أفكارهم أكثر صراحة واستقامة.

لقد كان الفيلق العربي النظامي يتلقى منحة من بريطانيا في صفة مساعدة للحكومة الأردنية. ولولا وجود الفيلق العربي لكان الإسرائيليون قد وصلوا إلى شواطئ نهر الأردن منذ سنة 1948.

استمرت الحوادث على الحدود مع إسرائيل في سنة 1954. ففي الساعة الثامنة بعد ظهر اليوم الثلاثين من شهر حزيران سنة 1954 مثلاً، فتح الإسرائيليون النار فجأة، وبكل ما لديهم من الأسلحة على مدينة (القدس). كان الآمر (هتشسون) من البحرية الأمريكية، هو الرئيس الحالي للجنة الهدنة. كان ضابطًا هادئًا وشجاعًا، ويعيش في ذات الوقت مع زوجته في دار تقع في أرض خالية من السكن تقريبًا بين الجيشين.

قام (هتشسون) باستدعاء كلا الطرفين عن طريق الهاتف، واستطاع أن ينال اتفاقهما على وقف إطلاق النار. ولكن بعد ساعات قلائل، عاد الإسرائيليون ففتحوا النار مرة أخرى، ومن ثم تمَّ التوصل إلى اتفاق جديد لوقف إطلاق النار، استمر ساعات قلائل، ومن ثم تجدد إطلاق النار!.

لقد بدا بأن التهم التي وجهت إلى الأردن، باعتبارها أنها كانت هي المعتدية، لم تكن مقنعة. ذلك لأن الجيش الإسرائيلي كان يؤلف عشرة أمثال القوة التي كانت لدينا. كما أن ميزانية الجيش الإسرائيلي، كانت تبلغ عشرة أضعاف ميزانيتنا نحن.

غير أن الخطر الأعظم كان يتمثل في إنشاء القوة الجوية الإسرائيلية. كان الأردن قد حصل على طائرة واحدة أو طائرتين لأغراض السفر والمواصلات. أما إنشاء قوة جوية، فإنه كان خارج نطاق البحث. ومع ذلك كان ما يزال هناك سرب من طائرات القوة الجوية البريطانية موجودًا في مطار عمان.

كان الفارق بين قوة الأردن وقوة إسرائيل كبيرًا جدًا. ذلك أن الأمل الرئيس لبقاء الأردن في الوجود، كان يكمن في معاهدتها الدفاعية مع بريطانيا. وبالطبع فإنه لم يرد أي ذكر (لعدو محتمل) في تلك المعاهدة. ولكن المعاهدة كانت تصرِّح بأنه إذا ما هوجم البريطانيون أو الأردنيون فإن الطرف الثاني ملزم بأن يهب لمساعدة الطرف الذي هوجم بكل ما يتوفر لديه من وسائل.

كانت بريطانيا طبعًا، هي التي تدفع نفقات الفيلق العربي النظامي، طبقًا لتلك المعاهدة. وطالما بقيت المعاهدة قائمة فقد كان المؤمل أن لا تقوم إسرائيل بمهاجمة الأردن!

لقد عقدت بريطانيا هذه المعاهدة مع الأردن آخذة بنظر الاعتبار احتمال قيام حرب عظمى أخرى وقد برهنت الأردن، خلال الحرب العالمية الثانية، على

أنها كانت حليفًا مخلصًا له قيمته. ولذلك كانت المعاهدة، بالنسبة إلى الأردن، تمثل الضمانة الأساسية ضد أي هجوم يقع عليها من جانب إسرائيل. غير أن المعاهدة لم تكن مقتصرة على اعتبارات السياسة العليا وعلى الاستراتيجية. ذلك لأن الصداقة الأصلية، بل الألفة التي كانت بين الطرفين، قد امتدت من ناحية إلى الجنود، والموظفين والقرويين، وأفراد القبائل في الأردن، ومن ناحية أخرى من وزارة الخارجية البريطانية إلى الجنود والطيارين البريطانيين الذين خدموا في الأردن، وإلى أسرهم أيضًا.

وفي الوقت ذاته كانت الحوادث في الشرق الأوسط تنحو منحى جديدًا معقدًا. ذلك أن الاندحارات التي لحقت بالمصريين في فلسطين، قد أدت إلى بروز الحركات الثورية داخل مصر. ففي اليوم الثالث والعشرين من شهر تموز سنة 1952، وقع انقلاب في القاهرة قام به من عرفوا باسم (الضباط الأحرار) الذين كان يتزعمهم جمال عبدالناصر، حيث غادر الملك فاروق البلاد، وسيطر (مجلس الثورة)، الذي يتزعمه جمال عبدالناصر، على الحكومة.

ولكي يحتسب جمال عبدالناصر أسباب فشل مصر إزاء إسرائيل، فإنه ألقى اللوم على بريطانيا، لأنها هي التي كانت تمول مصر بالسلاح قبلاً (واضح تمامًا أن فشل الجيش المصري في فلسطين، ومحاصرة أحسن قطاعاته في الفالوجة من قبل اليهود، والأسلحة الفاسدة التي ظهرت في حرب فلسطين، وأسباب أخرى غيرها كانت من العوامل الرئيسة التي دفعت ببعض الضباط الوطنيين في مصر إلى تنظيم حركة الضباط الأحرار، التي أطاحت بالنظام الملكي في مصر. كما أن التطورات العالمية من جهة، واشتداد أمريكا في محاولاتها للحلول محل الدول الاستعمارية الأخرى، وخاصة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، لأي من البلاد العربية، كان من العوامل التي ساعدت على التطورات التي شهدها الشرق الأوسط

بصفة خاصة في أعقاب حرب فلسطين). ففي أثناء القتال الذي نشب سنة 1948 في فلسطين، كانت منظمة الأمم المتحدة قد دعت الدول الأعضاء فيها إلى الامتناع عن تزويد الأسلحة إلى الأطراف المتحاربة. وقد طبقت بريطانيا هذا القرار، فرفضت أن تزود ليس مصر حسب بل وحتى الأردن بالسلاح والذخيرة، في الوقت الذي أقدم فيه الاتحاد السوفيتي على مساندة إسرائيل في ذلك، بأن راح يمدها بآلة الحرب التي كانت تتدفق عليها من شيكوسلوفاكيا حتى في أثناء الهدنة التي توصل إليها الكونت برنادوت (لقد أغمضت منظمة الأمم المتحدة عينيها عن خرق قرار منع تزويد العرب واليهود بالسلاح، وذلك لأن كل أعضاء الأمم المتحدة من الدول الغربية والكتلة الشرقية كانت ممعنة في معاونة اليهود وتشجيعهم على احتلال فلسطين كلها وطرد سكانها العرب بالقوة. وقد وجدت بريطانيا عذرًا لها في ذلك القرار كي تتخلص من تعهداتها لتزويد الدول العربية بالسلاح والذخيرة حسب المعاهدات التي كبلتها بها قبلاً،وبهذه الصورة كملت مؤامرة ابتلاع الصهاينة لفلسطين).

وما أن أمسك جمال عبد الناصر بالسلطة حتى راح يلقي اللوم على بريطانيا في اندحار المصريين، لأنها رفضت تقديم الذخيرة لهم، وأصدر أوامره باستيراد السلاح والذخائر من الكتلة الشيوعية. ولقد قوبل هذا الإجراء بدعاية موسعة في الشرق الأوسط، باعتباره أنه يمثل الحل لمشكلة العرب في فلسطين.

في سنة 1954 عقدت بريطانيا اتفاقًا عسكريًا مع مصر، بدأت بموجبه القوات البريطانية بالجلاء تدريجيًا عن منطقة القناة، مخلفة وراءها كميات هائلة من المواد الحربية، على أساس أن الأفراد الذين جلوا عن مصر، قد يستطيعون أن يعودوا إليها جوًا، في حالة حدوث أمر طارئ. ولذلك أصبح التعاون العسكري المقبل بين بريطانيا ومصر من الأمور المنظورة.

وفي الوقت ذاته وعدت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، حكومة مصر بتقديم قرض لمعاونتها على بناء السد العالي في أسوان (بقصد توسيع الري في دلتا النيل)، غير أن وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية (جون فوستر دلس) ما لبث على حين غرة أن أعلن في شهر تموز سنة 1956، أن الحكومة الأمريكية قد ألغت تعهدها بمساعدة مصر في بناء سد أسوان.

يندر أن يكون الفرض الأمريكي أكثر عنفًا أو فظاظة. ولكن جمال عبد الناصر رد عليه بالمبادرة إلى تأميم قناة السويس، وبزيادة التعاون مع الاتحاد السوفياتي، الذي وافق على إكمال بناء سد أسوان، الذي تخلت الولايات المتحدة الأمريكية عنه. وسواء كانت السياسات التي طبقها الرئيس جمال عبد الناصر مبنية على الحكمة أم لا، فإنه كان يمتلك صفة مكنته من أن تصبح لديه من القوة ليس ما يستطيع به إثارة الجماهير حسب، وإنما كانت له خاصيته في إذاعة خطبه من الإذاعة. ولهذا الغرض أنشأ محطة إذاعة قوية سماها (صوت العرب)، وكان صوته يرن عبر الأسواق في عمان، في خطب سياسية حماسية.

كانت للشرق الأوسط مشاكله الحادة، وعلى الأخص مشكلة إسرائيل. غير أن حلول هذه المشاكل غدت أكثر صعوبة،نتيجة احتدام المنافسة بين الكتلتين الغربية والشيوعية، أو بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.

وفي الوقت الذي كانت فيه مصر، تتعاون أكثر فأكثر، مع الاتحاد السوفياتي، تم التوقيع على اتفاق جديد في سنة 1955، يقاوم نشر النفوذ السوفياتي، وقد عرف هذا الاتفاق باسم (حلف بغداد) الذي وقعت عليه كل من تركيا والعراق، وإيران، وباكستان، وبريطانيا. (مهدت الدول الغربية لقيام حلف بغداد هذا، بميثاق (سعد آباد) الذي عقدته وزارة حكمت سليمان

الانقلابية في سنة 1937، والذي كان يضم كلاً من العراق وإيران، وتركيا، وأفغانستان، كما أن الوزارة ذاتها قد وافقت على اتفاق شط العرب في ذات السنة، والذي أجبرت فيه العراق على التخلي عن جزء من الساحل الشرقي لشط العرب، إلى إيران أمام عبادان ليكون مرسى لناقلات النفط التي كانت تنقل نفط الأحواز إلى العالم، والذي كان حكرًا لبريطانيا وحدها).

كان حلف بغداد هذا، قد تمت (هندسته) على نطاق واسع، من لدن الولايات المتحدة الأمريكية، لمقاومة التوسع السوفياتي، وإن كانت أمريكا نفسها لم تنضم إليه علانية (تظاهرات الولايات المتحدة الأمريكية بعدم الانضمام إلى حلف بغداد بكامل العضوية، نتيجة انفضاحها المكشوف منذ أول أيام قيام إسرائيل، باحتضان هذا الكيان العدواني الممعن في العدوان والتنكر لكل القرارات والمواثيق الدولية، وتحويل إسرائيل - التي تتحكم عن طريق يهود الولايات المتحدة، بمصائر أمريكا ذاتها، ومصائر العالم الغربي قاطبة. كما أن أمريكا كانت تدرك جيدا أن حلف بغداد كان في الأصل مشروعًا إنكليزيًا خالصًا، حاولت به بريطانيا أن تحافظ على نفوذها المتداعي في الشرق الأوسط، وفي البلاد العربية بصفة خاصة، خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها). وكان العراق ومصر يتنافسان، في الغالب، في بسط نفوذهما في الشرق الأوسط. ولقد استنكر جمال عبد الناصر، حلف بغداد هذا فور الإعلان عن عقده، وذلك في خطبه النارية. فلقد كان جمال عبد الناصر يزعم، وإن كان المنطق يعوزه على مدى واع، بأن حلف بغداد كان مؤامرة لمساعدة إسرائيل، بانيًا اتهامه ذاك على حقيقة أن تركيا إحدى الدول الموقعة على حلف بغداد، كانت قد اعترفت بقيام دولة إسرائيل. (لقد برهنت الوقائع على صحة الاتهام الذي وجهه جمال عبد الناصر إلى حلف بغداد، بأن هذا الحلف كان مؤامرة لمساعدة إسرائيل. وأكثر

من هذا فإن حلف بغداد قد بارك العدوان الثلاثي الغاشم في تشرين الأول على مصر، بعد أن أممت قناة السويس).

وجدت الأردن نفسها في وسط العاصفة!. لقد كانت حليفتها بريطانيا، عضوًا في الحلف المذكور، غير أن اتهام جمال عبد الناصر بأن الحلف مؤامرة لإسناد إسرائيل، لابد أن يثير الشكوك والهواجس. وهكذا انطلقت التظاهرات المضادة لحلف بغداد في شوارع عمان، يشجعها صوت جمال عبد الناصر الحماسي من الإذاعة.

ما أن عاد الملك حسين من دراسته في كل من (هارو) و(ساندهرست) حتى وجد نفسه، وفي سن التاسعة عشر، قد قذف به في خضم هذا المرحل. لقد دعاه الرئيس جمال عبد الناصر لزيارة مصر، كما كان ابن عمه ملكًا على العراق. وبالإضافة إلى التنافس في الدعاية بين مصر والعراق، كان الملك حسين يخضع إلى الإغراء العاطفي للقومية العربية، بصفة عامة، واستذكار هذه القومية للاستعمار الذي تمارسه بريطانيا والدول الغربية.

لقد كرست نفسي لخدمة العائلة الشريفة، التي كان الحسين بن طلال، يمثل الجيل الرابع منها، الذي كنت أعرفه معرفة شخصية. ولكنني كنت في الوقت ذاته، أرى أن العرب في الداخل إلى جانب الحكومة، التي يرأسها حاكم شخصي. وهذا يعود من ناحية إلى تقليد قديم مجرد من الوعي، ومن ناحية أخرى إلى تأثير الدين الإسلامي. ذلك لأن أي بلد إسلامي، لا يتم حكمه بنجاح عن طريق البرلمانات المنتخبة، والجمعيات، واللجان. فالمبدأ المتبع دومًا هو تعيين رجل واحد لكل واجب مسؤول.

كانت بريطانيا أو أمريكا، مقتنعتين، أن نظامهما الذي يقوم على أساس الهيئات المنتخبة، يعتبر صيغة نموذجية للحكومة الإنسانية. وعلى هذه الشاكلة

فرض الفرنسيون المؤسسات الجمهورية على سوريا ولبنان. وفي الوقت الذي بقيت فيه شرقي الأردن مستقرة تمامًا خلال الحرب العالمية الثانية، والسنوات العشر التي تلتها، كانت سوريا ضحية انقلابات عسكرية متتابعة.

في حدود ذلك الوقت زارني أحد الفرنسيين الذي أمضى معظم حياته في سوريا. ولقد سألته عن السبب الذي أوجد الكثير من الثورات في سوريا، منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن، في حين بقي شرقي الأردن مستقرًا. وقد رد على ذلك بقوله، أن السوريين جد أذكياء، ثم أضاف إلى ذلك يقول (من الضروري وجود مقدار معين من (الغباء) لتحقيق الاستقرار السياسي. فالبريطانيون مثلاً مشهورون باستقرارهم!!) قد يكون هناك شيء من الأساس لهذا القول، بالنسبة إلى تفكير ذلك الفرنسي، لأن سوريا، وأكثر من ذلك لبنان وعرب فلسطين، كانوا من الناحية التاريخية، قد تزاوجوا في الأصل، مع الإغريق، وهم أمة اشتهرت بحدة الذكاء، وانعدام الاستقرار السياسي.

فحتى قيام الحرب العالمية الأولى، كانت الشعوب التي تتحدث باللغة العربية وتقطن الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، تعرف بصفة عامة ، بأنها من شعوب المشرق. ولا يوجد شيء من الانتقاص في هذه التسمية التي تعني الشرق، أي شرقي نهاية البحر المتوسط، غير أن انتشار القومية العربية أدى إلى ظهور انطباع بأن كل الشعوب التي تتحدث العربية، إنما تنتمي من الناحية (العرقية) إلى (عرق واحد)، وذلك اعتقاد خاطئ.

فالواقع أن كلمة (عرب) بالأحرى تشبه كلمة (أوروبي)، أن مجموعة من عناصر عديدة يشبهه أحدها الآخر، في ميادين ثقافية محددة، لكنها تختلف اختلافًا واسعًا أحدها عن الأخر، ومع كل ذلك كانت هناك دعاية واسعة بأن

الكثير من الشعوب التي تتحدث العربية، يعتقدون بأن العرب كانوا من عرق واحد، وهذا الوهم هو الذي شجع جمال عبد الناصر على أن يجعل من نفسه زعيمًا للعالم العربي كله!.

وفي ذات الوقت اصبح الإسرائيليون أكثر عدوانًا. فقد انسحبوا من لجنة المعونة المختلطة التي أنشأتها منظمة الأمم المتحدة، ولذلك فلم تكن هناك أرض محايدة نستطيع أن نلتقي معهم فيها تحت إشراف منظمة الأمم المتحدة. ففي ليلة الأول - الثاني من شهر أيلول سنة 1954، هاجمت قوة إسرائيلية مؤلفة من فوج، قرية (بيت لقيا) التي تقع على بعد أربعة أميال من جانب خط التقسيم معنا. كانت هذه العملية، كالعادة، قد خططت بعناية تامة. ذلك أن سريتين هاجمتا القرية، في حين أقدمت السريتان الأخريان من الفوج، على زرع الألغام في واحد أو اثنين من الطرق التي قد تأتي منها التعزيزات للفيلق العربي.

تم الدفاع عن القرية من قبل الحرس الوطني، أي شباب القرية الذين تلقوا القليل من التدريب، وكان يقود أولئك الشباب نائب ضابط من الفيلق العربَي النظامي، وقد نجحوا في صد الهجوم. ولقد سارت تعزيزات الفيلق العربي في الطرق التي زرعت بالألغام، فقتل اثنان وجرح آخر، ولكن البقية هاجمت الإسرائيليين ودفعت بهم، حيث تراجعوا بلا نظام إلى الأرض المزروعة بالألغام.

هنالك مظهر مشجع آخر بدا من قبل الحرس الوطني في قرية (بيت نواب) المجاورة. فما أن سمع أفراد هذا الحرس بإطلاق النار على قرية (بيت لقيا)، حتى بادروا تحت إمرة النائب ضابط الذي كان يرأسهم، إلى اقتحام الريف تحت جنح الظلام، ومهاجمة مؤخرة الإسرائيليين الذين كانوا يهاجمون قرية (بيت لقيا). ولقد تخلى الإسرائيليون المتراجعون عن كميات من الذخيرة،

والقنابل اليدوية، والمتفجرات، التي ظهرت بكل جلاء بأن الإسرائيليين كانوا قد أعدوا العدة للقيام بغارة مدمرة كبرى على غرار ما فعلوه بقرية (قبية) سابقًا.

وفي نقاش جرى في البرلمان الإسرائيلي فيما بعد، اعترفت حكومة إسرائيل، بسياستها القائمة على أساس أخذ الثأر بعشرة أمثاله، وأنها كانت قد بقيت على الدوام تطبق هذه السياسة لمدة أربع سنوات. وكان (الإسرائيليون يزعمون بأن القوة هي النقاش الوحيد الذي يفهمه العرب). ولقد سبق لي أن أمضيت أربعًا وثلاثين سنة بين العرب، فبرهنت الوقائع المرة تلو المرة، بأنه يمكن كسب العرب بالمحبة، وبالثقة، حين لا تكون القوة موجودة.

انقضت الآن خمس سنوات على عقد الهدنة التي أنهت العمليات العسكرية النشطة في سنة 1949. كان الثلث من الشعب الأردني معوزًا لا يملك أي شيء، بعد أن طرده الإسرائيليون من دياره في فلسطين. وفي الوقت ذاته، واصل الإسرائيليون هجماتهم على القرى العربية الفلسطينية التي تقع عند الحدود. ولقد اتخذ شرقي الأردن أعظم الإجراءات قوة، للحيلولة دون تسلل اللاجئين عبر خط التقسيم، ولكن كل الطلبات التي قدمها الأردن إلى الإسرائيليين لمساعدته في هذا الإجراء،قد تم رفضها.

وفي ذات الوقت تعاظم حجم الفيلق العربي من ستة آلاف نفر في سنة 1948، إلى ثلاثة وعشرين ألف نفر في سنة 1955، في الوقت نفسه الذي كان فيه عدد مماثل لهذا العدد، من سكان القرى الواقعة على ضفتي نهر الأردن، يتلقون التدريب الأولي في الحرس الوطني.

بدأت الحكومة الثورية في مصر تحت زعامة جمال عبد الناصر، تشجع التسلل إلى داخل الأراضي الإسرائيلية، بالإضافة إلى الغارات التي كان يقوم بها

الأنصار. ولقد ساعدت هذه الأعمال، جمال عبد النار على أن يظهر بمظهر الوطني الحقيقي الذي يقاوم الغزاة الإسرائيليين بشجاعة، في الوقت الذي اتهمنا فيه نحن الذين كنا نحافظ على السلام، بأننا خونة نتصرف حسب أوامر سرية كانت تصدر إلينا من لندن.

ما أن تم تتويج الملك حسين رسميا حتى عيَّن على الفور، فوزي باشا الملقي رئيسًا للوزراء. كان فوزي باشا درس في إحدى الجامعات البريطانية، وتشرب بالأفكار البريطانية، عن الديمقراطية وحرية الكلام. ولذلك فإنه ما أن تولى منصبه حتى سن تشريعًا ينص على حرية الكلام والصحافة.

من النادر أن يعطى النصح بإدخال الأفكار والمؤسسات السياسية، لبلد ما في بدل آخر. ولكن فوزي الملقي كان على الدوام يؤمن بأن الحريات لن تسمح بوضع صمام أمن بالنسبة إلى الجماهير لكي تعبر عن المشاعر المكبوتة، وإنما تهيئ الفرصة أمام المتطرفين المحترفين للتجمع في الأردن. ولعل أول مرة تم فيها سماع كلمة (شيوعي)، كما أن (حزب التحرير) ذا الأسلوب الذاتي، الذي أسسه معلم فلسطيني متدين، كان من الأحزاب المتطرفة في كراهية الأجانب.

كان التردي الملموس الذي أصاب الاستقرار في البلاد، يعود إلى السياسة التي طبقها فوزي الملقي، التي أدت في النهاية إلى سقوطه. عاد توفيق أبو الهدى إلى الحكم مرة أخرى، وعاد إلى إجراء انتخابات. وإذ قرر توفيق أن يضمن الأكثرية له في تلك الانتخابات، فقد طلب إلي أن أهيئ الجنود للمشاركة في التصويت للمرشحين الذين اختارهم هو. لقد احتجّيت أول الأمر ضد ذلك الإجراء، لكنني وافقت في النهاية على أن أنصاره هم من مرشحي الحكومة الذين أدرجت أسماؤهم في قوائم الأشخاص الذين يحق لهم الاشتراك في الانتخابات.

وفي الوقت ذاته عقدت الانتخابات،وفقًا لقوانين كانت توفر حرية الكلام بالكيفية التي صادقت عليها حكومة فوزي الملقي. كان يتزعم الشيوعيين الذين ظهورا فيما بعد في الأردن، طبيب يدعى (عبدالرحمن شقير) كان قد جاء إلى الأردن من دمشق، فكان كل خطاب يلقيه يعتبر تحريضًا على التدمير والعصيان.

وفي صباح يوم الانتخابات،وهو اليوم السادس من شهر تشرين الأول، غدت الهتافات تسمع في مدينة عمان. تحرك رجال الشرطة، لكي يتحروا الأمر، فإذا بهم يتفاجئون على الفور، بسيل منهمر من الحجارة التي ألقيت عليهم من سطوح الشقق في بعض العمارات. اضطررنا إلى استدعاء كتيبتين من الجيش، استطعنا إعادة الأمن إلى نصابه، حين وصلنا إلى هناك، في بضع دقائق.

نجحت الشرطة في حراسة حجرات الاقتراع، ولم يتم ختم صناديق الاقتراع. وتم العثور على كميات كبيرة من الحجارة المركومة على سقوف شقق عديدة في عدة عمارات. لقد تم تنظيم أعمال الشغب تلك الدقة وعناية، وفي ذات الوقت كان عبد الرحمن شقير، قد فرَّ عائدًا إلى دمشق.

كان أعضاء الحكومة والساسة، يجهلون القضايا العسكرية جهلاً تامًا، ولا يأبهون بها أبدًا. ولم أستطع إقناعهم بأن يصغوا إلى شيء من هذه الأمور، غير أنهم لم يتدخلوا في الأمر، وقد سمحوا ليّ بأن أطلق يدي حرة في كل شيء.

ومع ذلك أصبح الوضع ينذر بالخطر بصفة متزايدة، إلى درجة أنني أحسست بأنه ينبغي لهم أن يطلعوا على ذلك ويلموا به. وأخيرا دعا الملك حسين إلى عقد اجتماع سري رفيع المستوى في القصر، يحضره جلالته، ورئيس الوزراء، ووزير الدفاع والمالية.

ومع ذلك فحين وصلنا إلى القصر، جاء الملك ومعه مرافقه، وعدد من الطفيليين في القصر، وقد أمضيت ساعة في الحديث أوضحت خلالها وضعنا

العسكري مقابل إسرائيل، وأشرت بأنه إذا ما وقعت الحرب، فإن علينا أن ننسحب من مواقعنا في السهل الساحلي المنبسط، وأن نحتفظ ببعض المواقع الدفاعية في التلال.

وما أن أكملت إيضاحاتي حتى انتصب الملك واقفًا، فأخرج ورقة من جيبه وقرأ فيها يقول (إنني لا أوافق على أيٍّ من الخطط التي سمعناها الآن! إنني لن اسلِّم شبرًا من بلادي. إننا سوف ندافع عن خط التقسيم ومن ثم سوف نهاجم). وإذ ذاك صفق خدم القصر عاليًا، وحينئذ طوينا خرائطنا وانسحبنا!

بعد ذلك بأيام قلائل رأيت الملك مرة أخرى في القصر. كان يبدو عليه الابتسام والظرف، ولذلك دعوته إلى أن يمضي ثلاثة أيام معي في منطقة الحدود لكي نفتش مواقع قواتنا، ولقد وافق على هذا الرأي في الحال، وأمضينا ثلاثة أيام سوية، وحينئذ اعترف مبتسمًا بأنه قد اقتنع بما سبق أن قلته في الاجتماع السابق.

في شهر نيسان سنة 1955 عقد مؤتمر الأمم الشرقية والأفريقية في (باندونغ) (هو المؤتمر الذي انبثقت عنه حركة (عدم الانحياز) التي كانت تقضي بأن تلتزم مختلف البلدان المنضمة إلى الحركة التزام الحياد وعدم الانحياز إلى الكتلة الغربية أو الكتلة الشرقية. غير أن هذه الحركة بعد أن فقدت القادة الذين أسسوها أول الأمر وفي مقدمتهم جمال عبد الناصر، وجواهر لال نهرو، والمارشال جوزيف بروز تيتو، بدأ الضعف ينشب فيها وذلك نتيجة تأثر كثير من الأقطار المنضمة إليها بالتأثيرات الاستعمارية)، وحضره جمال عبد الناصر، الذي صاغ فيه أفكاره علانية بالانضمام إلى الكتلة الشيوعية. وكانت نتيجة ذلك، أن وقع جمال عبد الناصر في شهر أيلول من تلك السنة ذاتها، على عقد لشراء السلاح من شيكوسلوفاكيا، ووفقًا لذلك العقد، وافقت الدول الشيوعية على

أن تزود مصر بالسلاح. وفي هذه السنة بالذات وقع العراق على (حلف بغداد) الذي كان يدعم الغرب، في الوقت الذي عقدت فيه مصر صفقة الأسلحة التي جعلتها حليفة للكتلة السوفياتية، وبهذا ظهر جمال عبد الناصر بمظهر البطل الذي سوف يدحر إسرائيل بمساعدة الاتحاد السوفياتي!.

ولكي يسعى جمال عبد الناصر إلى توسيع هذا التظاهر البطولي، أخذ يشجع غارات الأنصار على المنطقة التي احتلتها إسرائيل في قطاع (غزة)، كما أنه حاول، عن طريق السفارة المصرية في عمان، أن يشجع المتسللين، على اجتياز خط التقسيم من داخل الأردن إلى الأراضي الإسرائيلية. وفي إحدى الحالات كان حتى أحد ضباط الفيلق العربي قد دعي إلى السفارة المصرية، وأعطيت له بعض النقود لكي ينظم المتسللين إلى داخل إسرائيل.

كانت الثورة التي قادها جمال عبد الناصر في مصر، التي أطاحت بعرش الملك فاروق، قد تم إنجازها من قبل جماعة كانت تطلق على نفسها اسم (الضباط الأحرار). وفي الوقت ذاته بدأت الكراريس تظهر في سنة 1955 في عمان،وهي تحمل عنوان (الضباط الأحرار)، ويتم إرسالها إلى عناوين مختلفة.

في صباح أحد الأيام من شهر شباط سنة 1956، تلقينا في مقر الفيلق العربي، رسائل من وحدات مختلفة من الفيلق تحتوي على كراريس بعنوان (الضباط الأحرار) وهي تحمل طابع إحدى الوحدات العسكرية عليها.

كان الانطباع الذي تمَّ التوصل إليه، بأن الضباط الأحرار كانوا يتراسلون مع أحدهم الآخر. ولذلك طلبنا إلى كل دوائر البريد الخاصة بالوحدات العسكرية، بأن تبعث بما لديها من طوابع، وما أن قارّنا هذه الطوابع بتلك الطوابع الملصقة على الرسائل المرسلة، حتى وجدناها مختلفة. لقد كانت تلك الطوابع الملصقة على الرسائل المرسلة، قد صنعت في مصر.

وفي الوقت ذاته نشرت إحدى الصحف المصرية، مقالة افتتاحية عن انعدام الولاء في الجيش الأردني، بالإضافة إلى نشر واحدة من كراريس الضباط الأحرار. بعثنا بأحد رجالنا إلى مصر، لكي يتحرَّى الأمر. فبعث إلينا يقول بأن تلك المقالة التي نشرت في الجريدة، كانت قد أرسلت إليها من قبل وزير التوجيه والإعلام المصري، مع أوامر بضرورة نشرها.

وسرعان ما انكشفت المؤامرة برمتها. لقد كانت كراريس الضباط الأحرار، والطوابع التي كانت تلصق عليها، كلها من صنع الحكومة المصرية، وكان يجري إبراقها إلى وحدات الفيلق العربي، من قبل الملحق العسكري المصري في عمان. لقد كان في الفيلق العربي حوالي ألف وخمسمائة ضابط، كان ستة منهم مشتركين في المؤامرة، وقد أخذت أسماء أولئك الضباط الستة، وسلمتها إلى الملك حسين الذي كان يعرفهم من قبل لأنهم كانوا على اتصال دائم به.

كان الفيلق العربي يحتفظ بحوالي ثلاثمائة وخمسين ميلا من خط التقسيم مع إسرائيل العدو المألوف. وتلك المسافة مساوية تقريبًا لذات المسافة بين مدينتي (سوثامبتون) و(أدنبرة). ومن هنا تصبح مكشوفة، تلك الأبعاد التي كانت الحكومة المصرية، تحاول أن تمضي فيها لتدمير الفيلق العربي. ولكن قد يكون هذا غير صحيح،لأن المؤامرة مضت إلى أوسع من ذلك كما سنرى. فمنذ أن أصبح تيار الذم يتحول نحوي، استطعت في عدة مناسبات أن أقول للملك حسين بأنني على استعداد لأن أستقيل في أي وقت يرغب فيه، لكنه كان على الدوام يرد على ذلك وبمنتهى الود، بأن هذا الأمر خارج نطاق البحث! ولقد كنت أعتقد بأنه حين كان يقول ذلك، كان يعنيه حقًا.

وأخيرًا تم إعلامي، بأن مقالة كانت قد نشرت في ذلك الوقت، في إحدى المجلات الدورية البريطانية، التي اختفت عن الصدور منذ ذاك الوقت، كانت تصنفي بأنني الرجل القوي في الأردن،وأن الملك والحكومة لا سلطان لهما. وقد سارع الضباط الستة إلى إطلاع الملك حسين على تلك المقالة وكانت عاملاً أساسيًا في إقناعه.

لقد كان ما ذكرته تلك المجلة مناقضًا للواقع تمامًا. ذلك لأن أي نفوذ كنت أتمتع به في الأردن، إنما كان يعود، بصفة منفردة، إلى سياسة المحبة والثقة التي كنت أطبقها. فلقد كنت دومًا مطيعًا إلى أبعد الحدود، للملك وللوزارة.

وفي اليوم الأول من شهر آذار سنة 1956، حضر الملك حسين اجتماعًا عقدته الوزارة بكامل أعضائها، وقد أنبأ الأعضاء بوجوب طردي من الخدمة على الفور. وحين غادر الملك الاجتماع، اتصل بي رئيس الوزراء (سليمان النابلسي) هاتفيًا طالبًا حضوري إلى مكتبه، حيث أعلمني بأوامر الملك، وطلب إلي أن أغادر الأردن في حدود ست ساعات، فقلت له بأنني لا أستطيع ذلك، لأن لي زوجة وطفلين في عمان، التي عشت فيها طيلة ست وعشرين سنة، وإذ ذاك اتفقنا على أن أغادر في صباح اليوم التالي.

كانت هذه السرعة تعود إلى أن الملك والضباط الستة، كانوا يخشون أن أصدر الأوامر إلى الجيش بالتوجه إلى عمان وقلب الحكومة. لقد حزنت لذلك أشد الحزن، وإنني بعد أن كرست نفسي للمحبة المكلفة، والخدمة التي أديتها للأردن، كان يتوقع مني أن أقذف البلد في خضم حرب أهلية (تحدث الملك حسين في مذكراته المعنونة (مهنتي كملك) عن أسباب طرد الجنرال غلوب من الأردن، فقال (كنت من أنصار الرد الفوري (على إسرائيل) وعبثًا أبنت

وشرحت كل ذلك لـ (كلوب) فقد كان الجنرال يواصل النصح بمراعاة جانب الحكمة والحذر. كان يحبذ تراجع قواتنا إلى الضفة الشرقية، في حالة قيام هجوم إسرائيلي... ومع ذلك فإن وجود الجنرال في بلادنا، مذمومًا ومطعونًا في شخصه من قبل الكثير من الناس، قد أصبح عاملاً باعثًا على القلق الأكيد، ولقد حاولت أن أجهز الأردن بقوة جوية خاصة به، فلا يعقل أن نكون تابعين لبلد أجنبي من أجل تأمين الدفاع الجوي لسمائنا. . وكان تحقيق ذلك مستحيلاً ما دام (كلوب) بيننا، فكان عليَّ أن أنفصل عنه.. لم يكن هناك خيارا آخر إن كلوب يجب أن يرحل).

في اليوم الذي أعقب مغادرتي، قام السفير البريطاني بمقابلة الملك حسين. وقد سبق للسفير نفسه أن أعلمني، بأن الملك حسين والضباط الذين نصحوه، كانوا يعتقدون بأنني سوف أقود القوات البدوية المجندة، وأتحرك نحو العاصمة، إن الضباط الشبان الذين كانوا يعتقدون بشيء من هذا القبيل لم يفعلوا شيئًا سوى الكشف عن نقص الفطنة لديهم. ذلك أننا نعزو إلى الآخرين، النوايا التي نخفيها نحن أنفسنا. ذلك لأن نفس الضباط الشبان الذين نصحوا الملك بأن يطردوني، قد تعهدوا هم أنفسهم للرئيس جمال عبد الناصر بأن يخونوا الملك ذاته!.

لقد أقسمت يمين الولاء للملك حسين. ولقد وعدت جده (عبدالله) بان أخدم الأردن، كما لو كان موطني، إلا إذا أصبح الأردن عدوًا لبريطانيا. ففي تلك الحالة أكون حرًا في التقاعد من منصبي في الأردن، وأبقى محايدا. لقد كان الملك حسين يمسك بالسلطة الفردية، التي كنت في ظلها أمارس سلطاتي في الأردن. لذلك لم يكن يخطر بالبال أن أقاوم سلطات الملك وسلطة الحكومة الأردنية، التي خدمتها بصدق طيلة ست وعشرين سنة.

والحقيقة أنني حتى هذا اليوم وبعد مرور أربع وعشرين سنة على تلك الحوادث، ما أزال أحس نفسي بأنني ملزم بأن أخلص للملك الأردن ولشعبه.

بعد أن قابلت رئيس الوزراء، غادرت الدائرة، وقدت سيارتي إلى البيت. وكان سكرتيري الخاص (مولي وايت) قد سارع إلى وضع الأضابير السرية في كيس، ثم خرج بعد ذلك لبضع دقائق.

وصلت البيت في منتصف النهار، فأنبأت (روزميري) بأنني قد فصلت من عملي قالت (كانت هنالك قلاقل قبلاً، أليست هذه ضربة أيضًا؟ فأجبتها قائلاً: يبدو أن هذه الضربة هي النهائية!).

أمضينا بقية النهار، نقرر ما سوف نأخذه معنا، لأننا مقيدين بما نستطيع أن نحمله، وأن لدينا طفلين، ودارًا سكنتها طيلة عشرين سنة. وإذ ذاك قالت (روزميري)، (إذا كان البيت سوف يحترق فما هي الممتلكات التي سوف أغامر لإنقاذها؟) وفي الأخير أخذت حقيبة وضعت فيها الملابس، وسلة خاصة بلعب الأطفال، وهياكل دببة مصنوعة من التبن!

في صباح اليوم التالي قدم خادمنا السوداني (جمعة) لنا القهوة، والدموع تنهمر فوق خديه!. لقد أمضى معي أكثر من عشرين سنة، وقبل أن أتزوج. وبعد أن غادرنا، أعلنت الحكومة الأردنية عن بيع أثاثنا بالمزاد العلني، الذي نجمت عنه نتائج غير متوقعة. مثال ذلك أن المائدة التي كنا نتناول عليها طعامنا قد بيعت بجنيهين، في حين بيعت السلة المصنوعة من القصب، التي كنا نستعملها بمثابة مهد، بثمانية جنيهات!! ولقد أخبروني أصدقاؤنا من العرب، الذين بعثوا إلي برسائلهم من عمان، عن الدهشة العامة، لأن بيتنا لم يكن يحتوي على شيء ذي قيمة. فما دمت قد شغلت منصبًا رفيعًا طيلة تلك المدة، فقد كان العامة يتصورون بأنني لابد وإن كنت قد أتخمت جيوبي بالمال!

أما أدواتنا التي يمكن حملها، فقد تم جمعها وشحنها إلى إنكلترا، بما في ذلك، الصندوق الذي كان يحتوي على مشدات الأوراق التي كنا نستعملها في أعياد الميلاد! وعلى هذه الشاكلة انتهت خدمتي الطويلة والسعيدة، وفي الأردن، ذلك البلد الذي أغرمت به،وما أزال محبًا له.

جاءنا السفير البريطاني (السير (فيما بعد) تشارلز ديوك، وزوجته) إلى المطار للالتقاء بنا حين المغادرة، وقد وعدني بأن يعتني بغزالي المروض! وآنذاك إستقلينا إحدى طائرات الفيلق العربي إلى (قبرص).

بعد مرور سنة على عودتنا من الأردن، وإذ كنت أعيد قراءة اليوميات التي كنت أحتفظ بها منذ الحرب العالمية الأولى، وجدت فيها مدخلاً يقول (إن ضابطًا جديدًا قد عين لنا الآن. إنه في السابعة والعشرين من عمره لست أستطيع أن أتصور لماذا يبعثون إلينا بمثل هؤلاء الشيوخ(!!) للخدمة في خط الجبهة!). لقد كنت في سن الحادية والعشرين حين كتبت هذه الكلمات، أي في سن الملك حسين حين أمر بفصلي! كنت آنذاك في السنة التاسعة والخمسين من عمري، وكان شعر رأسي أبيض، ولابد أنني كنت أبدو بالنسبة إليه، كبير السن حقًا!.

لقد كرست ستًا وعشرين سنة من حياتي للخدمة في الأردن، من دون أدنى تردد، وبعد تفكير. وقد بدا بأن فصلي كان يمثل نهاية مسلكي النافع.

لا يوجد إنسان يستطيع أن يعرف نتائج عمل حياته. قد تكون النتائج المادية جلية ظاهرة. فقد يجمع مليون باوند، وقد يؤسس شركة تجارية كبرى، أو أن يكون آمرًا لأحد الجيوش. ولكن غالبًا ما تؤلف أمثال هذه النجاحات أقل جزء من عمل حياته. إن التأثير المهم لحياتنا، وإن كان يصعب كثير تقويمه، قد يتمثل في التأثير الذي نتركه في الناس الآخرين. فلربما ننطق ببعض الكلمات

العرضية، وقد يتذكرها البعض مصادفة بعد أن نموت، قد تضيء لمحة سوف تشع في العالم.

كم من الناس الذين تم تبجيلهم الآن بأنهم كانوا من العباقرة، قد ماتوا مجهولين، ولم يأبه أحد بمجهودهم؟ ولذلك فإنه يعد مضيعة للوقت بالنسبة إلينا، أن نبتئس مما إذا كنا في الواقع، قد أدينا أية خدمات إطلاقًا! إن ذلك سر لا يعرفه سوى الله وحده!

ومع ذلك فإن هذا يعد تمجيدًا لضعفنا البشري، لأن نعرف بأن جهودنا قد تمَّ تقويمها، حتى لو جاء من لدن الفقراء والمعدمين!

في شهر كانون الثاني سنة 1981، تلقيت قصيدة موقعة باسم (حسن بن مطلق) من عرب (الحويطات) يقول مطلعها:

آه يا كلوب! والله ما نسيناك يا كلوب!
لقد كان مسلكك على الدوام في طريق الخير والشرف.

لا يوجد في اللغة العربية حرف يشبه الحرف (G) في اللغة الإنكليزية ولذلك أصبح اسمي (كلوب).

- 16 -

الجنرال وحرفة الكتابة

كان فصلي من عملي في الفيلق العربي، يمثل الخطوة الأولى في المؤامرة التي كانت مصر تبيّتها. أما الخطوة الثانية فكانت تهدف إلى تخلص مصر من الملك حسين نفسه. ولذلك فإنني ما أن غادرت الأردن حتى تولت الحكم فيه على الفور حكومة شبه شيوعية. كما أن (علي أبو نوار) الذي أقنع الملك حسين بفصلي من عمل، سرعان ما تم ترفيعه إلى منصب رئيس أركان الجيش الأردني. ولقد اتفقت حكومة (النابلسي) مع (علي أبو نوار) كلاهما، على القيام بمؤامرة لخلع الملك حسين عن عرشه، وأعدت كل التفاصيل لإعلان الجمهورية الأردنية، إلى درجة أنه حتى العلم الجمهوري الأردني، والعناوين التي تضم الشارات الجديدة التي توضع على القبعات ، كانت قد صنعت كلها مقدمًا في مصر.

وفي اليوم الرابع عشر من شهر آذار سنة 1957، فسخت الأردن المعاهدة الإنكليزية الأردنية، وبذلك ألغي التزام بريطانيا، بأن تهبَّ إلى مساندة الأردن إذا ما هوجمت. لقد كان أمرًا غير مألوف أن وجدنا حتى الأقطار الصغيرة، مصابة في الغالب بمركب النقص الذي كان يدفع بها بصفة عنيفة إلى التحالف مع أمة أكثر قوة.

ويبدو أن الأمم متوسطة الحجم، لا تعاني من مثل هذه العقبة السيكولوجية وأنها تكون مسرورة عادة للحصول على ضمانة تحالف قوي معها.

وحين كنت مسؤولاً عن الدفاع عن الأردن من سنة 1948حتى سنة 1956، كنت أدرك تمام الإدراك، بأننا لسنا أقوياء إلى درجة نستطيع معها أن نقاوم هجومًا تشنه إسرائيل ضدنا، إن إسرائيل التي كانت قد جُهزت، على أوسع مدى، بأحدث الأسلحة من الولايات المتحدة الأمريكية. وإن هذا الدعم الأمريكي لإسرائيل لا يعود إلى اعتبارات أخلاقية تمس العدالة، أو إلى أية مصالح حقيقية للولايات المتحدة الأمريكية، وإنما كان الباعث لهذا الدعم، هو السياسة الأمريكية الداخلية. ذلك لأن الاعتقاد السائد في أمريكا بصفة عامة، هو أن الدعم اليهودي كان ضروريًا لكسب انتخابات الرئاسة الأمريكية.

وفي ضوء هذه الحالة بدا لي بأن الأمل الوحيد لبقاء الأردن في الوجود، هو أن تحافظ الأردن على تحالفها مع بريطانيا لمواجهة الدعم الأمريكي لإسرائيل ولم يكن هذا التحالف مع بريطانيا يكلف الأردن شيئًا ما، لأن الحكومة البريطانية لا تتدخل في شؤون الأردن، بل على النقيض من ذلك أن بريطانيا كانت تدفع اثني عشر مليون باوند في كل سنة، في صفة منحة إلى الأردن باعتباره حليفًا لها، ولكي تعينه بذلك على إبقاء جيشه حديثًا. ولقد كان وجود سرب من القوة الجوية البريطانية في عمان، يعتبر ضمانة إضافية للدعم البريطاني ضد الهجوم الإسرائيلي. ذلك أن (اليهودية) و(السامرة) التي يسكنها العرب وحدهم، قد تم الاعتراف بها دوليًا جزءاً من الأردن. فإذا ما حافظ الأردن على تحالفه مع بريطانيا، فإن هذه المناطق العربية من فلسطين، سوف تظل جزءًا من الأردن، وأن تظل حتى اليوم مأهولة بشعب عربي، كما كانوا عليه طيلة آلاف السنين.

غير أن مركب النقص لسوء الحظ لدى الأردن، قد دفعه إلى فسخ تحالفه مع بريطانيا، وساعد إسرائيل طيلة إحدى عشرة سنة في الأخير، على احتلال

كل المناطق التي كان أهلها يتحدثون بالعربية في فلسطين، فالمسألة الأساس المعرضة للخطر هنا، ليست توسيع رقعة الأردن أو تقليصها، وإنما هي حرية الناطقين بالعربية من الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في بلدهم الخاص منذ آلاف السنين، وهم الذين اصبحوا، بعد أن احتلت إسرائيل فلسطين كلها في سنة 1967، يعيشون في ظل الحكم الإسرائيلي العسكري، والذين تمَّ طردهم من ديارهم، وجردوا من أراضيهم، أو نفوا من بلد أجدادهم.

فلو كان الملك حسين يكرهني، فقد كان حرًا في فصلي من عملي، ولن تحتج بريطانيا على ذلك، بل إنها لن تحتج إن هو عين ضابطًا عربيًا لكي يخلفني في منصبي. ففي مثل هذه الحالة سوف يستمر التحالف البريطاني العسكري مع الأردن، في حمايته من الهجوم الإسرائيلي، ولسوف يسمح للفلسطينيين الناطقين بالعربي، أن يستمروا في العيش في ديارهم في ظل حكام من العرب.

وفضلاً عن ذلك فإن الأردن بفسخه معاهدته مع بريطانيا، كان قد خسر منحة المساعدة البريطانية له، والبالغة اثني عشر مليون باوند كل سنة، التي وافقت كل من مصر وسوريا، والسعودية على أن تدفعها إلى الأردن بدلاً من بريطانيا. ولكن ما أن فسخ الأردن معاهدته مع بريطانيا، فإن أيًا من هذه الأقطار العربية الثلاثة، لم يدفع للأردن أي شيء من المعونة. لقد كان من العسير اكتشاف المزيد من مسلسلات الخيانة، والوعود الكاذبة.

في شهر نيسان سنة 1957 كان الأردن في فوضى. وقد بدت الحالة، بالنسبة إلى المتآمرين، بأنها أصبحت ناضجة لطرد الملك حسين من العرش، ولهذا السبب نشطت الحركة في ماكنة الدولة. ففي (الزرقاء) التي تعتبر بمثابة مقاطعة (الدرشوت) الإنكليزية، بالنسبة إلى الأردن، أمر ضباط المدفعية رجالهم، بأن يفتحوا النار على قوات المشاة، ولذلك قرر الملك حسين، الذي لم يكن

يشعر بالخوف، أن يذهب إلى هناك بنفسه، ولقد حقق وجوده الشخصي، النصر له، ذلك لأن كل الوحدات قد استقبلته بحماسة منقطعة النظير.

كانت كل من مصر وسوريا وراء إبعاد الملك حسين عن عرشه. ففي هذا اليوم من الأزمة، احتل الجيش السوري إقليم الشمالي من الأردن، غير أن جرأة الملك حسين هي التي ربحت المعركة في ذلك اليوم. ففي شهر نيسان سنة 1957 استطاع الملك حسين أن يخرج من سنة تعمّها الفوضى، وكان خلالها معرضًا في أية لحظة، لأن يخسر عرشه وحياته.

وبعد سنة من الفوضى التي أعقبت مغادرتي، استطاع الأردن أن يستعيد استقرار، لقد استبدلت الحكومة شبه الشيوعية، بوزارة يرأسها (إبراهيم هاشم) أقدم رجل دولة في عمان. ولقد كتبت إليه مهنئًا، وفي بداية شهر تموز سنة 1957 تلقيت جوابه وهذا هو نصه:

مكتب رئيس الوزراء
عمان في 29-6-1957
عزيزي غلوب باشا

تسلمت بسرور عظيم رسالتك المؤرخة في يوم 24-6-1957. إنني أقدر كل التقدير حبك للأردن. وبهذه المناسبة أود أن أنبئك بأن الحوادث الأخيرة، التي حدثت من لدن أولئك الذين كانوا يتطلعون إلى تدمير بلدنا العزيز، قد انتهت. لقد عادت الحالة مستقرة مرة أخرى، واستأنفت الحياة مجراها الاعتيادي. وإننا نأمل أن تظل السلامة العامة ثابتة إن شاء الله.

لقد فرحت لأن أتلقى الأنباء عنك، وأن أعلم بأنك الآن تستمع بحياة هادئة في دارك الجديدة في الريف. إن هذه؛ في نظري، هي أفضل مكافأة لرجل يستطيع أن ينالها بالعمل أثناء حياته.

إنني أتطلع دومًا إلى نشر كتابك الذي يسوف يكون على وجه التحقيق، ذا قيمة عظيمة، لأننا نعلم أن كل ما تكتبه، سوف يلمُّ حقًا، بالحوادث التي عشتها وجربتها، على الرغم من أي شيء قد يقوله الأعداء وأمثالهم.

وفي الختام أود أن أذكر لك كيف أني كنت غالبًا أفكر في الأيام السعيدة التي أمضيناها سوية، وآمل أن أكون محظوظًا للالتقاء بك مرة أخرى.

مع خالص تحياتي، لك، ولأسرتك، وليحفظك الله

المخلص: إبراهيم هاشم

قد يكون محقًا أن نزعم بأن الملك حسين كان قادرًا على أن يبقى على قيد الحياة، بصفة جزئية في الأقل، لأن البلاد ، وجيشها، قد تم بناؤهما في مدة خمس وثلاثين سنة من قبل حكومة وطيدة ومخلصة، فعلى الرغم من أقسى المؤامرات، والتخريب العنيف الموجه من خارج البلاد، من قبل الشيوعيين، والعناصر المتطرفة، على الرغم من ذلك كله، بقي قلب الأردن مخلصًا بصفة ثابتة.

لقد وجهت كل المؤامرات التي استهدفت خلع الملك حسين عن العرش، من قبل مصر التي كانت تحلم بأن تصبح الحاكم الوحيد للعالم العربي برمته. أما الملك حسين الذي كان في أول الأمر يبدي إعجابه بحكام مصر، فقد أصبح الآن يسيء الظن فيهم. ذلك لأن الضباط الأحرار الستة الذين نصحوا الملك حسين بطردي، كانوا من المأجورين للحكم المصري، وكانوا قد أعدوا العدة لإزاحة الحسين، بعد أن استخدموه نفسه لطردي أنا. ولقد استطاع الملك حسين أن يدحر كل أعدائه، لما تحلى به من جرأة شخصية نادرة.

على هذه الشاكلة انتهت خدمتي الطويلة والسعيدة في الأردن. ولكن قد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى المرحلة التي حلت فيها العقدة في سنة 1967.

فلقد كان الرئيس جمال عبد الناصر آنذاك يسير من نصر إلى نصر. وما أن نال الدعم من وروسيا والكتلة الشرقية، حتى اقدم على زيادة عدد أفراد جيشه، وأكمل بناء سد أسوان العالي. وكانت خطبه التي يلقيها من إذاعته، التي سماها (صوت العرب) قد أثارت الأحاسيس المهتاجة في العالم الذي يتحدث بالعربية. وقد زاد ذلك من انجرافه نحو الإسهاب والإطناب.

وفي سنة 1967 أقام الرئيس جمال عبد الناصر حامية من جيشه في (شرم الشيخ) على الرأس الجنوبي من صحراء سيناء، وشرع يتحرش بالسفن المتوجهة إلى ميناء (إيلات) الإسرائيلي.

والحقيقة أنه لم تكن لإسرائيل أية تجارة في ساحل خليج العقبة، وإن وجدت فإنها كانت في نطاق ضيق. ومع ذلك فإن تلك التحرشات قد زودت إسرائيل بذريعة من الذرائع.

لم يقوَ جمال عبد الناصر على مهاجمة إسرائيل، كما كان يزعم ذلك غالبًا. ولكن إسرائيل هي التي هاجمت مصر، مبررة عملها ذاك بالتهديدات التي كان جمال عبد الناصر يطلقها ضدها. لم يكن الملك حسين على ود مع جمال عبد الناصر، غير أن، عواطفه الكريمة قد أجبرته في هذه الأزمة، على أن يطير إلى القاهرة، وأن يتعهد لجمال عبد الناصر بأن يقف إلى جانبه.

وحين وجهت إسرائيل هجومها على مصر، اتصل جمال عبد الناصر هاتفيًا بالملك حسين، وطلب إليه أن يهاجم من (الخليل) جناح القوات الإسرائيلية المتوجهة إلى سيناء. وبجرأة لا يمكن احتساب مداها، قاد الملك حسين قواته المدرعة بنفسه، عبر جبال (الخليل) ولكن هذه القوات الأردنية قد هوجمت جوًا، وتم تدميرها في الطرق الجبلية الضيقة، لأنها كانت من دون غطاء جوي،

أو مدفعية مضادة للطائرات. في الوقت ذاته كانت بقية الجيش الأردني مبعثرة في جيوب صغيرة على امتداد خط التقسيم.

لم تضع أركان الجيش الأردني أية دراسات للموقف، ولا أخذت أية خطط للمعركة بعين الاعتبار. ونتيجة لذلك، فحين تم تدمير الرتل الأردني المدرع عبر جبال الخليل، اندفعت القوات الإسرائيلية من أي مكان إلى خط التقسيم، ضد الوحدات الأردنية التي لم تكن لديها أية أوامر. توقفت بعض الوحدات الأردنية عن المقاومة اليائسة المنعزلة، ولكن القوات الإسرائيلية اندفعت بسرعة إلى داخل الأراضي الأردنية.

فلو كان الملك حسين قد حافظ على معاهدته مع بريطانية، واحتفظ بمجموعة الضباط البريطانيين الذين خططوا العمليات مسبقًا، لأمكن إنقاذ بعض الشيء. ولكن الملك حسين اندحر بفعل فضائله التي كان يتحلى بها، وهي: العاطفة الكريمة، والجرأة التي لا تخشى شيئًا ما.

بعد تلك الكارثة جاء الملك حسين إلى لندن، فقمت بزيارة مجاملة له في فندق (دور تشستر). ولقد تلقاني بأن فتح ذراعيه، وضمني إليه، واعترف إلي بصفة مفرطة، بأنني كنت مصيبًا فتحذيري إياه، بأن إسرائيل، بقوتها الأمريكية الكاملة من الطائرات والأسلحة، كانت قوية جدًا، بحيث لا يمكن التصدي لها.

أستطيع الآن أن أكتب بصراحة عن أخطاء الشباب لدى الملك حسين، لأنه أصبح، منذ ذلك الوقت، من أذكى رجال الدولة في الشرق الوسط. لقد كانت الضحايا الحقيقية لسوء الحسابات هذه، تتمثل في الفلسطينيين. لقد طرد هؤلاء من ديارهم معوزين، موجة بعد موجة، وكان الكل منهم يعيش في المناطق التي خصصتها لهم منظمة الأمم المتحدة حسب مشروع التقسيم.

أما أولئك الذين كانوا ما يزالون يسكنون الضفة الغربية من نهر الأردن، فقد اصبحوا الآن في ظل الأحكام العرفية الإسرائيلية، ومن دون أن يتمتعوا بأية حقوق مدنية. وقد طرد الكثيرون منهم من أراضيهم التي استولى عليها الإسرائيليون. وما تزال الضفة الغربية، حسب القانون الدولي، تعتبر أرضًا معادية محتلة، وتكون فيها أمثال هذه الأوضاع غير قانونية.

لنعد الآن، بعد هذا الاستطراد، إلى طردي من الأردن في شهر آذار 1956. ما أن هبطت بنا إحدى طائرات الفيلق العربي في جزيرة قبرص، حتى ذهبنا ، أنا وعائلتي، إلى فندق (دوم) في (يرينا) لتمضية يوم أو يومين فيه، حيث سبق لنا في مرتين أن مكثنا فيه سابقًا في بعض الإجازات المحلية. ومن ثم حصلنا على مقاعد لنا في (شركة الخطوط البريطانية) وطرنا إلى لندن.وما أن هبطنا في مطار (هيثرو) بلندن، حتى انهال علينا فورًا، حشد كبير من الصحفيين الذين أحاطوا بنا، وراحوا يمطرونني بالأسئلة. كان اللواء (روبرت اليوت) الذي كان آمر مدفعية الفيلق العربي، في وقت ما، الذي كان يسكن في (كمبرلي) بمقاطعة (سيري) قد قدم لملاقاتنا ومساعدتنا. وبالتعاون مع الشرطة، استطاع في النهاية، أن يهربنا من المطار بسيارته الخاصة، وأن نخرج من هناك، غير أن الصحافة لا يمكن الإفلات منها بمثل هذا اليسر. كان الظلام قد أسدل أستاره. وحيثما كنا نلتفت إلى وراء، كنا نشاهد صفًا طويلاً من أضواء السيارات التي كانت تتعقبنا.

وإذ لم أستطع التخلص منهم، فقد قررنا أن نتوقف في نزل على جانب الطريق، وأن نواجه الجلبة، وللمرة الأخرى أحاط بنا حشد من الصحفيين ووقفوا يستمعون إلى الرد على الأسئلة، إلى أن كلّوا من ذلك. وأخيرا، وفي النهاية وبعد يوم طويل من الإنهاك البدني والعاطفي ألقينا بأنفسنا، مع طفلينا،

في منزل السيد الكريم (اليوت) في (كمبرلي). ذلك أن الصحفيين، في وقت الإرهاق البدني، يكونون أحيانًا مجردين من الرحمة والشفقة!

لا شيء هناك يمكن أن يتجاوز الود الذي أبدته أسرة (برورت اليوت)، الذي قلبوا بيتهم رأسًا على عقب، لكي يوفروا السكن لنا ولطفلينا. وطالما حيينا فإننا لن نستطيع أن نسدد الدين الذي نحن مدينون به لهم.

اتصل بي رئيس الوزراء السير انطوني إيدن، وأعلمني بأن الملكة قد أبدت سرورها لأن تمنحني وسامًا من درجة (فارس باث)، ولذلك توجهت إلى قصر (بكنغهام) حيث منحت ذلك الوسام، واستقبلت استقبالاً كريما من لدن جلالتها.

عثرنا على مسكن لنا في (سوث غودشستون) في (سيري)، وتم استجوابي من قبل لجنة من مجلس اللوردات، دون المزيد من النجاح في ذلك، لست أستطيع أن أقول شيئًا ما غير صحيح، ولم أفكر مقدمًا فيما أريد أن أتحدث عنه. وفي النهاية انتهى التوتر، وتركنا لكي نواجه المستقبل.

كانت المشكلة الملحة كثيرًا هي أننا لا نملك سوى القليل من المال، ذلك لأنني لم أستطع أن أوفر شيئًا، ولم يكن مرتبي في الأردن سخيًا. وأكثر من ذلك أنه كان لنا طفلان، كنا ندفع عنهما أجور المدارس في مدارس خارجية بإنكلترا. ولذلك كتبت إلى (سلوين لويد) وزير الخارجية، أسأله عما إذا أستطيع أن أحصل على مساعدة مالية، فرد علي يقول أن الحكومة البريطانية ليست مسؤولة عني، وأنه لا توجد جداول في الميزانية يمكن عن طريقها أن أحصل على المساعدة، ومع ذلك فإن السفير البريطاني في عمان، قد تم إعلامه بأن يطلب إلى الحكومة الأردنية مساعدتي، ومهما يكن فقد ردت الحكومة الأردنية على ذلك بأنها غير ملزمة في تقديم هذه المساعدة.

كان هذا هو الواقع حقا. فمع أنني كنت قد خدمت الحكومة الأردنية بكل روحي وقوتي، طيلة ست وعشرين سنة، فإنني لم أضايقها في التوصل إلى وضع عقد لعملي لديها، أو تحديد شروط الخدمة. ومع كل ذلك فإننا قد تخلصنا من هذا العوز نتيجة حظ لم يكن متوقعًا. ذلك أن صحيفة (الديلي ميل) (الديلي ميل daily mail ومعناها (البريد اليومي) من أكبر الصحف في لندن وأكثرها رواجًا. فقد كانت تطبع ملايين النسخ كل يوم بأكثر من أربع وعشرين صفحة من القطع الكبير. أما عدد يوم الأحد فكان يصدر في شكل كتاب يضم ما لا يقل عن مائة صفحة من قطع نصف الجريدة الاعتيادية. وما تزال الديلي ميل حتى الآن تحظى بذات الرواج الذي كانت تحظى به، وذلك شيوع المقالات أو الأنباء المثيرة التي كانت تنشرها وفي مقدمتها الفضائح المالية والخلقية وغيرها). قد عرضت أن تدفع لي مبلغ ستة آلاف باوند، لكي أكتب لها سلسلة من المقالات، ولم يكن أحد قد عرض مثل هذا المبلغ، طيلة حياتي.

كان افتقاري إلى المال يعود أولاً وأخيرًا إلى غلطتي أنا. ذلك لأنني لم أكن أفكر في المال. وليس هناك أحد يفكر في أن يقدم على خدمة الأردن (أو أية حكومة أخرى) من دون أن يحصل أولاً على عقد بشروط الخدمة، وعلى حكم للحصول على مرتب تقاعدي عند تقاعدي، أو منحة في أقل تقدير

كان (جون اتنبرو) مدير شركة (هولدر وستاوتون) للنشر قد خدم، خلال الحرب العالمية الثانية في مقر القيادة العامة للشرق الأوسط. وفي ذلك الوقت كان قد اقترح عليّ بأن أضع أحد الكتب. وكانت نتيجة ذلك أنني وضعت كتاب (قصة الفيلق العربي THE STORY OF ARAB LEGION) وهو أول كتاب يصدره غالوب عن معركة فلسطين ولكن سبق له قبل ذلك أن نشر

كراسًا عن (البدوي) في لحظات الفراغ التي كنت التقطها في عمان. وقد نشر ذلك الكتاب في إنكلترا في سنة 1948.

أما الآن فإنني قد اتصلت مرة أخرى بالناشرين (هولدر وستاوتون) لكي أضع كتابًا عرضا علي عنه مبلغًا نقديًا لطيفًا مقدمًا، وهكذا فإننا بالسخاء الذي أضفته جريدة (الديلي ميل) علنيًا، قد تم إنقاذنا من الإفلاس. ولقد نشر ذلك الكتاب وعنوانه (جندي بين العرب) في السنة التالية أي في سنة 1958.

كان الخطوة التالية هي أن نعثر على دار نسكن فيها. كانت زوجتي (روزميري) في (تنبرج ويلز) وكان أبي وأمي يسكنان على مقربة منها في (بيمبوري) ولذلك كنا نستطيع بصفة طبيعية إيجاد مسكن لنا في ذلك الاتجاه. رأينا دارًا صغيرة في (مي فيلد).

لقد كان سقف الدار متغضنًا غير أن أحد الوكلاء المحليين أخذنا إلى دار كبيرة (وست وود سانت دنستان) كانت خالية من السكان طيلة ثلاث سنوات وكان السعر المطلوب لها أقل من سعر (كوخ) في القرية.

وحيث أنني لم أعتد الحياة في إنكلترا، لم اكن أفهم لماذا كانت تلك الدار رخيصة إلى هذه الدرجة، ولذلك أقدمنا على شرائها، ولكننا لم نكتشف إلا في الأخير مبلغ الإيجار والتدفئة في دار واسعة، وتحققنا من السبب الذي أدى إلى أن تباع تلك الدار بسعر واطئ. وفي السنوات القلائل التالية كدنا أن نتعرض للإفلاس مرة أخرى تقريبا.

حين توفي أبي في سنة 1938 أخذت أمي معي وعدت إلى الأردن، وفي ذات الوقت سجلت عقد قراني على (روزميري) في دائرة تسجيل عقد الزواج في بلد (تنبرج ويلز). وحين انضمت إلي روزميري أخيرًا في عمان، بعد أن

تزوجنا في إحدى الكنائس ببيروت، انتقلت أمي إلى القدس حيث سكنت في مأوى مستوطنة أمريكية.

في سنة 1948 دخل الفيلق العربي مدينة القدس، وقد حدث أن وجدت تلك المستوطنة الأمريكية أمام خط التقسيم الذي كان الفيلق العربي يحتله في المدينة. وبعد أيام قلائل، وحين كانت أمي نائمة ليلاً،أصابت صلية من رشاشة، الجذر القائم فوق سريرها مباشرة، ثم تجاوزتها بحوالي بوصتين، أو ثلاث بوصات. ومع ذلك فقد رفضت أمي أن تغير مأواها ذاك، ولكنها نقلت سريرها داخل الغرفة ذاتها، إلى الأسفل من عتبة النافذة، وقد أوضحت تقول (إن الرصاصات لا يمكن أن تصيبني هنا، لأنها سوف تمر من أعلى، وتصيب الدار على الجانب الآخر من الغرفة!). كانت أمي آنذاك في الثالثة والثمانين من عمرها!

وحين عدنا إلى إنكلترا كانت أختي (غوندا) قد طارت إلى الأردن، ووضعت أمي في طائرة متوجهة إلى إنكلترا، وبهذه الصورة قدمت إلينا في (مي فيلد). لقد تضايقت بعض الشيء، لأنها أخرجت من بيت المقدس، وأعيدت إلى إنكلترا، من دون أن تنذر بذلك مسبقًا.

ومن دون أن تقيّم سبب إعادته إلى إنكلترا، فإنها كانت تحس بأنه كان من اللازم إعلامها بأنني، أنا نفسي قد انتقلت إلى هناك. من الأوقات المفضلة لديها، أنها حين كان أحدهم يحاول أن يلفت نظرها إلى شيء ما، كانت تقول (لا تستعجل أن تصيب ما لا يملكه رجل آخر، فلربما تمتلك بعض المال في يوم من الأيام!).

سكنت أمي معنا في (مي فيلد) بضع سنين، لكنها ما لبثت أن انتقلت مؤخرًا إلى مأوى يديره مبشرون متقاعدون، يدعى (قاعة تروتستريم) في (ركمانسورث) بمقاطعة (هرتفورد شاير)، حيث وجدت الجو الديني ملائمًا لها.

كان اجتياز طرقات لندن بوسائط النقل، يؤلف (سياقة متعبة)، ولذلك فإننا لم نكن نذهب إلى أمي لرؤيتها غالبًا، مثلما كنا نرغب في ذلك. (إننا غالبًا ما ناسف، بعد وفاة آبائنا، لأننا لم نكن قد عملنا المزيد في سبيلهم!)...

حين انهارت أمي أخيرًا في سنة 1962، وصلتُ إلى المأوى الذي كانت تقيم فيه. كانت ما تزال على قيد الحياة، وقد بلغت آنذاك السابعة والتسعين من عمرها. لقد كانت حقًا امرأة عظيمة، ذات خلق عظيم، كرست نفسها للموت، وإنني لمدين إليها أكثر من أي إنسان آخر. وحين زرتها في آخر مرة قالت لي عدة مرات (أليس الله مدهشًا؟ أليس الله عجيبًا). لقد استطاعت أن تعلّم نفسها بنفسها، كيف تتحدث بالفرنسية، والإيطالية، والألمانية. وحين كانت شابة اعتادت العزف على البيانو والرسم وبالزيت. وما يزال بيتنا يعج بالرسوم التي رسمتها هي، وكذلك الرسوم التي رسمتها أمها أيضًا!، التي كانت قد درست الرسم في روما. غير أن أمي كانت، قبل كل شيء، تتحلى بالخلق، تلك الصفة غير المحددة، التي تميز الشخصية العظيمة.

وكما هو محتمٌ لكل فرد يعيش في سن السابعة والتسعين، فقد كانت أمي بعيدة عن الاتصال بالعالم الحديث، وعن حياته الاجتماعية، وموسيقاه ورسومه. فهي طريقتها الخاصة، قد تكنس كل ذلك باعتباره (نفاية عصرية قذرة)!!.

كانت الطريقة التالية التي ينبغي لي أن أدبرها، هي أن أعيل زوجة، وأربعة أطفال صغار، حين عرض عليّ إلقاء بعض المحاضرات. لقد تعاقدت معي (وكالة فويل للمحاضرات) بأن أقوم بإلقاء المحاضرات في كل إنحاء بريطانيا. وكانت الفائدة المالية ضئيلة لكنها أعانتنا، أنا وروزميري، على أن نجوب قسمًا كبيرًا من بريطانيا بالسيارة.

حين كنت قد أمضيت سنة واحدة كاملة ليس إلا في بريطانيا، فإنني لم أكن منذ أن غادرت المدرسة، لا أعرف في النادر أي شيء عن وطني، ولذلك استطعنا أن نجوب منطقة واسعة من بريطانيا، فقد جبنا أقصى الشمال حتى (أدمنبرة) و(غلاسغو)، ولو أننا لم نبلغ الأراضي المرتفعة. ولقد اجتذبتنا كنائس (شرقي إنجيليا) بصفة خاصة، التي يقال عنها بأنها كانت قد بنيت تحت تأثير الموجات (الفلمنكية) (الفلمنك FLEMISH هو شعب الفلاندر الذي سكن أصقاع بلجيكا وبعضًا من هولندا وكانت لهم لغتهم الخاصة الممتزجة بالجرمانية وعرفت باسم اللغة الفلمنكية، ولهم أدبهم الخاص بهم والذي نبغ فيه عدد كبير من الشعراء والأدباء والكتاب). وذلك بما حوته من صور الملائكة التي نحتت بفخامة تحت السقوف.

أعدنا زيارة كل من (سالزبوري) و(يورك) التي عشت فيها فتى، و(ويلز) التي لم أرها من قبل، و(برستون) التي ولدت فيها، و(ليفربول) التي كان كل شيء فيها أسوداً مسخمًا، ولكن أهلها كانوا رقيقين وودودين،أما مدن (شروزبري) و(هرفورد) و(ونجستر) فإنها قد امتلكت قلوبنا تمامًا. وكنت مسرورًا لأن أزور (ملتون ماوبراي) التي كنت في أيامي الأولى أتحمس للصيد فيها، وأتخيلها فردوسًا أرضيا!

إن هذا القول ليس دليلاً يقودك إلى مباهج بريطانيا التي اكتشفتها لأول مرة بعد أن تجاوزت الستين من عمري. فيكفي أن أقول بأننا قد وجدنا تلك الجمالات تغرد، على الرغم من الحقيقة القائمة، وهي أننا لم نكن نستطيع أن نحصل على قدح من الشاي، إلا ما بعد الساعة السابعة والنصف صباحًا!. أما في الأردن فإننا كنا نتناول شاي الصباح في الساعة الخامسة صباحًا.

كانت بنتانا قد تمَّ إدخالهما في مدرسة داخلية أسبوعية للبنات في (إيستبورن) تقع على مبعدة حوالي عشرين ميلاً عن (مي فيلد). فبعد ظهر كل يوم سبت، حين نكون في البيت، نقود سيارتنا لنأخذهما. وفي طريق العودة، وعند منتصف الطريق بين (غيستبورن) و(مي فيلد) يوجد حانوت للشاي يدعى (غرين شترز) يقوم إلى جانب الطريق. وكان الأسلوب الرتيب أسبوعيًا، هو أن نتوقف عند هذا الحانوت لتناول الشاي. كنت أنا و(روزميري) نطلب الشاي والكعك المدور. أما الفتاتان فإنهما - كرد فعل لطعام المدرسة - كانتا تطلبان الجبنة (الولزية) الملصقة على خبز محمص، أو الخبز المصنوع من الفاصوليا المحمصة مع بيضة مسلوقة، وفي باكر صباح يوم الاثنين أقوم بإعادة الفتاتين بسيارتي إلى (إيستبرون) كيما تصلا في الوقت المحدد للدرس الأول.

إن من غير المريح لك دومًا أن تصبح من الشخصيات العامة. ذلك لأن واحدًا من العوائق التي تحول دون شهرتك، في نظر الجمهور، هو أن الواقع يقوض صفة المرء، لأنه يدفع المرء إلى التفكير في شخصه، وأقصد بذلك، ذاك الانهماك الهدام لروحية الخدمة. فالنفس هي الجذر، والشجرة، والأغصان، لكل الشرور التي تفيض بها حياتنا المتداعية. فقد كتب (وليم لو) يقول (إننا محرومون من الله لأننا نحيا لأنفسنا! فالنفس هي السبب في انعدام الراحة، وفي إثارة الاضطراب، وانعدام القناعة التي نشعر بها دائمًا. فإذا ما انشغلنا بأنفسنا، فإننا لا نستطيع أن نحيا كل حياتنا راضين، أو في سلام، ولذلك يستحيل علينا، في الواقع، أن نحول دون اتجاه أفكارنا نحو أنفسنا. غير أننا ما أن نتحقق بأن تلك النفس هي العدو الرئيس، إذ ذاك نستطيع في الأقل، أن نخفف من اهتمامنا الذاتي).

وقد يكون مثل هذا الأمر أكثر مشقة بالنسبة إلى الشخصيات العامة، وعلى الأخص بالنسبة إلى الساسة الذين يعملون في ظل نظامنا الحكومي، ذلك

لأن مكوثهم في الوظيفة لا يعتمد على المزيد من الأمانة أو الكفاءة، وعما إذا كان الناس سوف يحبونهم ويصوتون لهم في الانتخابات. فالشيء المحتم في الغالب هو أن يشتهر انشغالهم الرئيس، وأن تنتقص أخلاقهم أو نواياهم، ويكون الأمر هو هدف خصومهم.

فالديمقراطية، تلك الكلمة السحرية، تتطلع إلى نظام حكومة نموذجية، يتمثل في القول القائل (إن الناس أحرار في اختيار حكامهم!) ولكن ماذا تخفيه هذه الديمقراطية من الدسائس المكثفة الكريهة، ومن الطعن، وسوء التمثيل؟

يقاد الساسة، بصفة حتمية في الغالب، إلى إعطاء أهمية رئيسة لكسب الشهرة، بكل صفة من صفات الكيد أو الخداع، غير أن من العسير علينا أن نتوقع أي شيء، حيث يبدو أن نجاح أولئك الساسة وكأنه يعتمد كثيرًا على النزوة الجماهيرية!

حين غادرت الأردن من دون اهتمام بيّ، بدا في نظري أن حرفتي النافعة في أداء الخدمة قد انتهت. ولذلك كان هدفي الأول محدودًا في الحصول على مال يكفي لدعم عائلتي، ولتربية أبنائنا لأربعة، إلى أن يستطيعوا أن يحصلوا على عيشهم بأنفسهم، ولكن ما أن مضى الوقت حتى أصبحت أدرك بالتدريج احتمال وجود حرفة جديدة ومغايرة تمامًا، تكون مفتوحة أمامي.

لقد نسيت منذ أمد طويل تأملي في هدف حياتي، الذي التزمت بأن أحققه منذ سنة 1920، في (السراي القديم) في بغداد، الذي وازنت به بدائل حياة العمل، وحياة التأليف، إن الست والثلاثين سنة من العمل الدائم التي مضت، قد محت من مخيلتي كل فكرة عن الحرفة الأدبية.

غير أن العناية الإلهية كانت تذكرني بتلك الأفكار التي نسيتها منذ زمن طويل. ولقد دهشت حين كنت أتحدث عن تهذيب الناس في إنكلترا، أن

أجدهم كيف لا يعرفون سوى الشيء الضئيل عن تاريخ البلدان الأخرى ، وغير بلدهم الخاص بهم.

لقد ذكرت امرأة ذكية ومتعلمة، بمنتهى الأدب تقول (إن لدينا في الأقل العهد القديم) المشترك مع اليهود، ولكن ليس لدينا أي شيء مشترك إطلاقًا مع العرب القساة الذي يجوبون الصحراء على ظهور الإبل!

لقد ظلت الجزيرة العربية، طيلة مائتين وخمسين سنة، تؤلف أعظم إمبراطورية في العالم، ليس في ميدان القوة العسكرية حسب، بل وفي ميدان الثقافة، والعلم، والغنى، والفن، والمعرفة أيضًا.

ولقد استشرت (جون اكنبرو) مدير مؤسسة (ولدر وستاوتون للنشر) حول هذا الموضوع فأجاب: أنا (والزي) قد نفهم ما تقصده حين تقول بأن التاريخ يجب أن يكون تاريخ العنصر البشري، غير أن عامة القراء لا يعرفون ذلك [أن الزي هي (المس الزي هيرون) التي أصبحت فيما بعد هي القارئة الرئيسة للكتابات التي تقدم إلى مؤسسة هولدر للنشر].

وافق (المستر جون اكنبرو) على نشر أية كتب تتحدث عن التاريخ العربي، التي أكتبها. لكنه قال (ولكنك لن تحصل على المزيد من النقود بتلك الوسيلة، فإذا كنت تريد الحصول على المزيد من المال، فعليك أن تؤلف الكتب عن الورود في الحدائق التي توجد في الضواحي، أو أن تعمد إلى تربية القطط السيامية!!).

كتب العلامة (وليم باركلي) وليم باركلي WILLIAM BARCLAY من جامعة (غلاسغو) في وقت ما يقول (إن الأمور التي تحدث لنا، تبدو أشبه ما تكون بالكارثة، علينا أن نتذكر بأنه لا يوجد شيء يدعى الكارثة، إلا إذا نحن

أنفسنا قد صنعنا تلك الكارثة، وأن كل شيء يؤلف فرصة لنا إذا ما آمنا بالله الذي يصنع كل الأمور سوية بالخير).

بدأ يتضح لي بالتدريج أن مقدرتي على أداء الخدمة، لم تنته بطردي من الأردن. فالواقع أن تلك الكارثة الظاهرة، قد فتحت أمامي حرفة ثانية، تختلف اختلافًا كليًا، وفرصًا جديدة لأداء الخدمة.

اقترحت عليّ (وكالة فويل للمحاضرات) أن أقوم بجولة في الولايات المتحدة الأمريكية ألقي خلالها المحاضرات، غير أنني كنت مترددًا في أن أترك (روزميري) والأطفال مدة طويلة. ومهما يكن الأمر فقد تم التغلب في النهاية على اعتراضاتي، وهيأت مؤسسة فويل الاتصال بإحدى وكالات المحاضرات في الولايات المتحدة الأمريكية.

كان إلقاء المحاضرات في الولايات المتحدة الأمريكية، الذي قمت به بصفة مترددة، قد فتح أمامي عالمًا جديدًا، ومنحني البعض من أعز أصدقائي، ووفر لي المال الذي استطعت به أن أتغلب على السنوات المعسرة، إلى أن استطاع الأبناء أن يكملوا تعليمهم.

ما أعظم منجزات العناية الإلهية، أن لا نستطيع معرفة المستقبل!. فلو أنني، حين كنت شابًا، كنت أعرف كل الأزمات والأخطار التي كانت مخبأة ليّ، لما استطعت أن أواجه حياتي، ولما كانت كل كارثة تبرز وتمضي. لأن كل كارثة كانت تمهِّد السبيل إلى فرصة أخرى من الخدمة، إلى أن استطعت، في النهاية، أن أثق بأن الحال تكون على هذه الشاكلة دومًا. وحتى حينما كانت المعاناة تشتمل على ذلك، فإنني كنت أتحلى بثقة التحمل، كلما برزت حاجة لذلك.

-17-

العالم الجديد

اتصلتُ بوكالة نيويورك للمحاضرات، فأعطوني اسم وكالة مختصة هي وكالة فويل للمحاضرات في لندن. وبكفاءة ملموسة حجزت ليَّ هذه الوكالة، جولة لإلقاء محاضرات لمدة شهرين في الولايات المتحدة الأمريكية، بما في ذلك برنامج يومي (لعدة ساعات غالبًا) وكلّ بطاقات الطائرات والقطارات، واحتياطات الفنادق، وتعليمات تخص كيفية التقائي مع ممثلي الجمعيات التي سوف أخطب فيها، ولسوف تسلم إلي كل أمتعني حين وصلي إلى نيويورك، وبذلك لا يمكن أن أقع في الخطأ.

ومع هذا فإن إحدى الرسائل الشفوية قد أثارت دهشتي نوعًا ما. ذلك أن وكيل المحاضرات، وهو من أصل بريطاني، كان قد سألني عما إذا كنت أهدف إلى عقد مؤتمر صحفي عند وصولي إلى مطار نيويورك. وكان علي أن أتلو في هذا المؤتمر بيانًا أعد مسبقًا وأرفق برسالة. ويذكر البيان بأنني أود أن أعرب عن إعجابي بشعب إسرائيل البطولي، الذي أعاد افتتاح موطنه القديم، ودافع عنه ضد تلك الويلات الشديدة!

لقد قال لي الوكيل لو أنني وافقت على أن أقرأ هذا البيان في المؤتمر الصحفي فإنه يستطيع أن يحجز لي الوقت الذي أستطيع أن أتحدث فيه أمام أغنى النوادي في أمريكا، بأجور عالية جدًا!! ومع ذلك فإنني إذا لم أكن رغبًا في

قراءة ذلك البيان، فإن التوقعات المالية لجولتي قد تكون في حدود النصف من الأجور غالبا. ولقد أوضح لي ذلك الوكيل، بأن كل النوادي تقريبًا، والتي تضم عضوًا يهوديًا في لجانها المختارة، سوف تصوت ضدي، إلا إذا قرأت ذلك البيان عند وصولي!.

ولقد رددت على ذلك بقولي، إنني لا أحمل أحاسيس، مهما كان نوعه، ضد اليهود، ولكنني أفضل أن أصرح باعتقاداتي وأفكاري الخاصة، بدلاً من أن اقرأ بيانًا أعدَّ ليّ من قبل أناس آخرين. فرد علي متأسفًا بأنه في مثل هذه الحالة سوف تكون النتائج الحالية لجولتي مخفضة بصفة واسعة.

وبالنظر إلى هذه المحاورات قررت أن لا أتحدث إلا عن تاريخ العرب، وعن القرون التي كانت الإمبراطورية العربية خلالها، تمثل القوة العظمى الرئيسة في العالم. ففي الولايات المتحدة، أكثر مما هو موجود حتى في بريطانيا، يعتقد الرأي العام هناك بأن العرب ليسوا سوى أناس متوحشين يجوبون الصحارى التي لم تكن متحضرة بأي معنى لكلمة الحضارة.

تكرس النوادي الأمريكية كل نشاطها لتناول طعام الغداء أو العشاء، ومن ثم يعقب ذلك حديث يلقيه أحد المتحدثين، وعلى الأخص إذا كان ذلك المتحدث يحمل اسمًا كانوا قد قرأوه في الصحف. ولقد كان منهاج وكالة المحاضرات يتضمن في الغالب تمامًا، مثل هذه المظاهر الثابتة، ولذلك عرضت خلاصة المواضيع كانت الرئيسة منها تتناول الأمور التالية:

1- البدو: دراسة تاريخية وسيكولوجية.

2- العرب في التاريخ: حديث تاريخي من السنة 600 ميلادية وما بعدها، ولكن استبعدت عنه السياسات العصرية.

3- الشرق الأوسط: مفتاح للقوة العالمية.

4- العرب هم معلمونا: ما يدين به العالم المتمدن الآن، للمدينة العربية السالفة.

لقد اختيرت هذه المواضيع لأنها كانت إيجابية، وتنطوي على معلومات يمكن الإفصاح عنها. فلا يوجد أي ذكر لإسرائيل، ولا للسياسات الحديثة، ولا أي نقد سلبي لأي إنسان.

كانت بعض اللمحات الساخرة قد أشارت إلى أن الناس كانوا في الأيام الخوالي غير مطلعين بصفة عامة. أما الآن وبفضل تقدم العلم الحديث، فإن من المستطاع الإطلاع على كل العالم بيسر كانت هذه الفكرة البارعة، الصائبة بعمق، قد أثرت في اهتمامي أكثر فأكثر. والحقيقة أنني أستطيع أن أمضي إلى أبعد من ذلك، فأقول أن دعاية الكراهية هي الخطر الرئيس الذي يهدد الحياة البشرية على وجه الأرض، في الوقت الحاضر.

لقد كنت بالطبع، منذ عهد الطفولة، أدرك بأن المسيح يأمرنا بأن نحب أعداءنا. لقد اشتركت في حروب كثيرة. ولكنني لم أكن أحس بأي عداء شخصي ضد الجانب الآخر. غير أنني في ذلك الوقت لم أكن قد تحققت، مثلما أعلل الآن ذلك، من أعماق هذا النظام وأهميته.

فاليوم وقد بلغت الرابعة والثمانين من عمري فإنني أعتقد بأن هذا النظام يمثل الحل لمعظم مشاكلنا العصرية. فلو أننا ألهمنا روح التحمل،وحسن الفكر الأوسع إزاء كل أبناء الجنس البشري. لزالت كل صراعاتنا، وكراهيتنا، ومخاوفنا، ذلك لأننا نتفاعل أحدنا مع الآخر. فالكراهية تثير الكراهية، والشك يولد الشك، وانعدام الصداقة ينتج انعدام الصداقة أيضًا.

لست ذلك المثالي صاحب النظر اللامع كالنجوم. فأنا لا أقترح بأنه ينبغي لنا أن نلغي قواتنا المسلحة، على أمل أن أعداءنا المتوقعين سوف يقومون بالمثل.

غير أن الشيء الذي أقترحه هو، أنه ينبغي لنا جميعًا، بما في ذلك حكوماتنا، بأن تعامل أحدها الأخرى دائمًا، بروح الصداقة المكشوفة، الصريحة والبسيطة.

ولنعد إلى موضوع جولتي لإلقاء المحاضرات في أمريكا فأقول: كان في إحدى المناسبات مقررًا، أن أتحدث أثناء غداء يتناوله أصحاب العمل في أحد النوادي. وما أن وصلت إلى النادي حتى حذرني رئيسه، بأنه تلقى احتجاجًا شديدًا ضد السماح لي بإلقاء محاضرتي، من قبل كبير حاخامي اليهود في المدينة. قد كتب ذلك الحاخام يقول عني (إن هذا الرجل قد تم الإعلان عنه من قبل جمعية حماية حقوق الإنسان بأنه عدو الجنس البشري!!).

لم أكن أعرف إن كانت جمعية حماية حقوق الإنسان هذه، موجودة حقًا، وإن كنت في الواقع لا أشعر بأي عداء للجنس البشري. ولقد أنبأني رئيس النادي بأن جميع حاخامي اليهود في المدينة، سوف يحضرون المحاضرة، وأن من الأفضل أن أكون متهيئًا لذلك.

ألقيت خطابي الذي أعددته عن التاريخ العربي، ولم أجد هناك من الذين يضايقون الخطباء بالأسئلة. وفي الختام تلقى رئيس النادي رسالة اعتذار من الحاخام الأكبر، يذكر فيها بأنه، كان يتصورني طرازًا مغايرًا من الرجال. كان الحاخام، بكل وضوح، إنسانًا أمينًا أقنعته الدعاية بأنني كنت من القساة المتوحشين، ومن قتلة اليهود. وكان هذا الحادث أولى الحوادث التي جعلتني أعرف مدى قوة دعاية الكراهية السائدة في العالم.

لم يخالجني أي انطباع بأنني ساكون ممقوتًا بمثل هذه الطريقة من قبل الإسرائيليين، الذين حاولت أن أتعامل معهم لمدة ثماني سنوات، منذ أن غادرت الأردن. لقد تلقيت بصفة عرضية، رسائل من إسرائيليين، أو قصاصات

من صحفهم، لم تدمغني بروحية الكراهية. ولكن في الولايات المتحدة الأمريكية كانت هذه الروحية أكثر خبثًا وقسوة، وإن لم أكن قد جابهت أية مشقة في أن أصبح ودودًا مع أي من اليهود الذين قد التقي بهم شخصيًا.

ومع أنني كنت أصلاً مترددًا في الذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإلقاء محاضرات فيها، إلا أنني ممتن الآن امتنانًا عميقًا، لأنني استطعت أن أفعل ذلك. إن من المستحيل تكوين فكرة عامة عن الشعب الأمريكي، الذي يضم جماعات وطوائف متباينة وكثيرة.وإذ كنت في جولاتي الأولى، قد تحدثت بصفة أساسية، في أوقات تناول طعام الغداء أو العشاء في النوادي، فإنني كنت بصفة طبيعية، ألتقي بالطائفة المتوسطة التي تتحدث بالإنكليزية، ولكن مع ذلك استطعت أن أجعل من بينهم من أوثق الأصدقاء الذين عرفتهم طوال حياتي.

فقد كنت في كل مكان في أمريكا أقابل بالمودة وبالسخاء الودي، ولذلك أسفت لأنني لم أحتفظ بيوميات عن جولاتي لإلقاء المحاضرات، بالشكل الذي احتفظت فيه بمثل هذه اليوميات عن بعض الفترات الأخرى من حياتي. وكانت نتيجة ذلك، أنني مضطر إلى أن أكتب الآن معظم ما أكتبه عن الذاكرة.

كانت جولات المحاضرات، التي خططت من قبل اللجنة، شاقة. ذلك أنها اشتملت على إلقاء خطاب واحد كل يوم، وفي بعض الأحيان إلقاء خطابين في يوم واحد.

كان الأسلوب اليومي الرتيب هو أن أبدأ نهاري مبكرًا بالمطار المحلي، ومن ثم أطير إلى مدينة جديدة، وأن ألقي خطابًا، وقت تناول طعام الغداء، على أكثر احتمال، في أحد النوادي. ولكن كان من المحتمل أن يحدث إلقاء الخطاب وقت المساء أو في وقت ما معًا. وفي صباح اليوم التالي يكون هناك طيران إلى مدينة أخرى.

نتيجة لذلك فإنني لم أشاهد سوى القليل من الريف، ونادرًا ما كنت أنجح في رحلة بالقطار، وهي رحلة مفعمة بالذكريات، من ساحل إلى ساحل عبر القارة. وكانت تبرز أحيانًا بعض الحالات العصيبة، حين يكون الجو غير ملائم للطيران، وأن يتم احتجازي لكي أتحدث ساعات قلائل فيما بعد، في إحدى المدن البعيدة.

ففي إحدى المناسبات كان عليّ أن أتحدث في (واشنطن) (وكان ذلك في فندق مي لور على ما أظن) عند المساء. وفي ذات الصبح هبطت كي أتناول الفطور في مدينة نائية، حيث قيل لي بأن الجو غير ملائم للطيران. ومع ذلك فقد لاحظ أحدهم أن هناك قطارًا قادمًا، في غضون عشرين دقيقة، ولذلك خرجت من الفندق مسرعا، من دون أن أدفع الأجرة، فأدركت القطار، ووصلت إلى واشنطن في اللحظة المناسبة.

أما بالنسبة إلى ما تبقى، فإن علي أن أحضر نفسي في الذكريات التي ما تزال ترد على الذهن. ولعل طيرانًا أشد مرحًا وصخبًا، وهو الذي حدث ما بين (روتشستر، ونيويورك)، حين كان المقعد المتوفر يقع في الدرجة الأولى ليس إلا، وكانت تقدم لنا كؤوس (الشمبانيا) طيلة الطريق.

ومن التجارب الملحوظة التي استمتعت بها هي زيارة عاصمة المورمون (هم طائفة كنسية أسسها جوزيف سمث الأصغر في نيويورك ومانجستر في سنة 1830 وكانت تبيح تعدد الزوجات وقد تركز أعضاء هذه الطائفة منذ سنة 1848 حول (سالت ليك ستي) ودخلوا في معارك حامية ضد معارضيهم، فقتل عدد كبير منهم في سنة 1838 وسجن سمث ولكنه استطاع أن يفر من السجن وأن يعيد تنظيم جماعته تنظيمًا عسكريًا فاشتركوا في انتخابات الرئاسة الأمريكية

في سنة 1840 وكان سمث قد ولد في شارون، وندسور في أيلول 1805 وهاجرت أسرته إلى أمريكا ثم عادت إلى إنكلترا)، أي مدينة (اسلت ليك ستي). لقد كان لدي انطباع مبهم بأن (المورمون) يمتلكون زوجات كثيرة، لكنني وجدت بأنهم قد تخلوا عن تلك العادة. ومع ذلك فإنهم قد برهنوا على أنهم كانوا طائفة مستبشرة، ولم يكن تاريخهم يخلو من الرومانسية، حين قادهم (برغهام يونغ) في سنة 1846، إلى الغرب الموحش، لكي يؤسسوا مدينة (سالت ليك ستي) في (أوتاه).

ولقد أحسست بالحب نحو (أريزونا) و(نيومكسيكو)، وذلك نتيجة شبهها الوثيق بمناظر الشرق الأوسط. ففي (مونتانا) زرت موقع (الصمود الأخير)، الذي صمد فيه (الجنرال كوستر) وهو حادث ربما أضفيت عليه الشهرة الرومانسية أكثر مما يستحق!

وحين كنت ضابطًا فنيا، درست حياة (ستونوول جاكسون) وموقعته الشهيرة في وادي (شناندوه) فأصبحت أعتبره واحدًا من أبطالي الشخصيين!. إنها ذكريات انتعشت جراء زيارة قمت بها إلى مدينة (رتشموند) في (فرجينيا). ومع ذلك فقد دهشت حين تحدثت عن هذه التجربة، التي حدثتني عنها سيدة ثرية ومعقدة في نيويورك، حيث قالت أن (ستونوول جاكسون) كان من أسوأ رؤساء الجمهورية الذين عرفتهم الولايات المتحدة الأمريكية!. لقد كانت تخلط بينه وبين (أندرو جاكسون).

وهناك زيارة أخرى حافلة إلى (ألامو) في تكساس. ففي سنة 1833، كانت تكساس ما تزال تمثل إقليمًا طليعيًا يخضع لنفوذ المكسيك، لكنه كان مأهولاً على نطاق واسع، بالأمريكيين والبريطانيين. وفي تلك السنة قام الجنرال

(دي سانتا أنّا) بانقلاب عسكري، ونصب نفسه دكتاتورًا على المكسيك، ومن ثم قام بإعداد جيش، كان يعتزم من ورائه بتدريب الطلائع الأمريكية البريطانية في تكساس. ولقد قام الجنرال (دي سانتا أنّا) في شهر شباط سنة 1836 بمهاجمة حصن (ألامو) الذي كان يدافع عنه مائة وسبعة وثمانون من الأمريكيين والبريطانيين، وكان هدفهم من وراء ذلك الدفاع، إعاقة تقدم المكسيكيين، إلى أن يستطيع (سام هو ستون) تنظيم جيش تكساس.

وفي اليوم السادس عشر من شهر آذار سنة 1836، تعرض حصن (ألامو) لهجوم، قتل فيه جميع المدافعين عنه، بما في ذلك رجال الحدود المشهورين، من أمثال (جم بوبي) و(ديفي كروكيت)، غير أن حصن (ألامو) كان قد حقق الغرض منه. ذلك أن (سام هوستون) استطاع في اليوم الحادي والعشرين من شهر نيسان 1836 أن يهزم الجنرال (دي سانتا أنا)، وبذلك أصبحت جمهورية تكساس مستقلة. وفي (ألامو) في الوقت الحاضر يعلق علم (النجوم والشرائط) الذي يمثل جهورية تكساس القديمة، جنبًا إلى جنب مع شعار اتحاد الجمهوريات الأمريكية المتحدة.

بلغت زياراتي للولايات المتحدة الأمريكية، اثنتي عشرة زيارة،وكانت كل زيارة تمتد شهرين أو أكثر، وبذلك أكون قد أقمت هناك في كل زياراتي مدة تزيد على السنتين. وفي خلال هذا الوقت كنت قد قمت بزيارة كل ولاية في القارة الأمريكية ما خلا (ألاسكا) و(وايومنغ) كما أظن.

وإذ تحسنت معرفتي بالبلاد، وحصلت على المزيد من الأصدقاء، فقد تخليت عن وكالة المحاضرات، وشرعت أضع بنفسي خططي الخاصة واتصالاتي، وقد تطلّب ذلك قدرًا كبيرًا من الوقت في إنكلترا خلال الصيف، ذلك لأنني كنت أذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية في كل فصل خريف.

وبما أن الزمن يمضي حتى أخذت جولاتي تتغير. قد كنت قد وضعت عدة كتب فيما بعد، عن التاريخ العربي، كان الكثير منها قد نشر في نيويورك، ونتيجة لذلك حصلت على المزيد من الارتباطات بالكليات والجامعات، حيث كنت أتحدث في الغالب إلى الحاضرين من الطلبة، وأخذت ارتباطاتي بالنوادي تقل شيئًا فشيئًا، ولو أنني بقيت أتحدث أحيانًا في نوادي (الروتاري) أو في فروع اتحاد الناطقين باللغة الإنكليزية.

وإذ أخذت أجتاز سني الستينات من عمري، واقترب من سني السبعينيات، أصبحت أقل تطلعًا إلى استعمال الطيران اليومي من مدينة إلى أخرى، وفي النهاية بدأت أتقبل الدعوات للإقامة فترات أطول في الجامعات لإلقاء سلسلة من المحاضرات.

ولقد قدمت موضوعين جديدين من المحاضرات أيضًا. فقد عرضت إلقاء محاضرة بعنوان (نظرة جديدة إلى المجابهة العربية الإسرائيلية) والتي خصصت بصفة رئيسة لأن تكون ذريعة ذكية بيد الولايات المتحدة الأمريكية لاستعمال نفوذها في توطيد السلام، غير أنني قد أخفقت في هذه المحاولة، لأن النفوذ اليهودي قوي جدًا في السياسة الداخلية في الولايات المتحدة الأمريكية، ذلك لأن الساسة ورؤساء الجمهوريات الذين يتطلعون إلى الانتخابات، يدعمون مرشحيهم دائمًا، عن طريق الوعد بمساندة إسرائيل، بغض النظر عن العدل والسلام، بل في الواقع، عندما حصلت الولايات المتحدة الأمريكية، أو شهرتها في الحفاظ على الأخلاق والعدل.

تردد الديمقراطية مثل هذه العبارة اللطيفة (إن أمريكا بلد متحرر!) وتلقى هذه العبارة بمباهاة على الأجانب الذين يزورون الولايات المتحدة الأمريكية،

ولكن العالم أصبح الآن عالمًا صغيرًا جدًا، لأن الساسة الذين يحاولون كسب الأصوات في الانتخابات الأمريكية، إنما يزرعون،من دون وعي، الحروب، والاضطرابات في القارات الأخرى، وهذا ما يحدث بصفة خاصة، في انتخابات الرئاسة في أمريكا.

أتذكر بصفة خاصة، إنني كنت أتحدث في إحدى الكليات عن المجابهة العربية الإسرائيلية. وبعد أن أنهيت حديثي قال لي عميد الكلية بأن هذه هي المرة الوحيدة التي يسمع فيها وجهة نظر مفردة، أو مناقشة لصالح الفلسطينيين، وأن كل عرض كان قد سمعه قبلاً، كان يؤكد بأن إسرائيل كانت مصيبة، مائة في المائة، في كل ما كانت تصنعه!

بعد سنة 1965 عرضت إلقاء محاضرة إضافية بعنوان (صعود الأمم وسقوطها). ذلك أن دراساتي التاريخية المتوالي في إنكلترا، قد طبعتني بانتظام تواريخ الحياة للأمم التي تمت لها السيطرة في الماضي.

وفي مناسبات أخرى كنت أنفق أيامًا عديدة في إلقاء محاضرات في كل من جامعتي (هارفارد) و(ييل). وفي إحدى المناسبات دعيت في جامعة (هارفارد) إلى حفل استقبال مؤلف كله من اليهود، حيث كان كل واحد منهم مسرورًا وفرحًا.

ومن الزيارات المفعمة بالذكريات، تلك الزيارة التي قمت بها إلى الأكاديمية الحربية في (فرجينيا) في (كسنغتون)، وإلى أكاديميتي (لي) و(واشنطن). ولقد تأثرت كثيرًا بروحية الطلبة في الأكاديمية الحربية. كما أن للطلبة في أكاديميتي (لي) و(واشنطن) تقليدًا بهيجًا ، هو أن يؤدوا تحية الصباح إلى أي غريب يلتقون به في حرم كليتهم.

وما يزال طلاب الكلية العسكرية في فرجينيا، يتباهون بمعركة (نيوماركيت) في الحرب الأهلية الأمريكية. في حين كان جيش الاتحاد يتحرك

نحو الجنوب، كان طلاب الكليات العسكرية قد استداروا، وتألفوا لشن المعركة، وقد استطاع الطلاب ببدلات كاملة، واندفاع مضبوط أن يواجهوا جيش الاتحاد وأن يصدوه.

حين تجاوزت السبعين من عمري سررت لتقبل دعوات لتدريس تاريخ الشرق الأوسط لفترة من الوقت في أحد الأمكنة. ففي سنة 1970 أمضيت الفترة الدراسية أثناء الخريف في كلية (لويس كلارك) ببورتلاند في أوريغون أعطيت لي غرفة صغيرة للسكن فيها في حرم الكلية،وكنت أثناء النهار ألقي محاضرات عن تاريخ الشرق الأوسط، في حين كنت في الأماسي أعطي دورة من الأحاديث في غرفة جلوسي الخاصة عن المشكلة العربية الإسرائيلية.

كان العقيد (جم ديفس) يتولى منصب الملحق العسكري الأمريكي في عمان حين كنت أقود الفيلق العربي. وكان هو وزوجته يعيشان الآن في ولاية واشنطن المجاورة. وحين كنت في (لويس كلارك) كانا يخرجان بي في نهاية كل أسبوع، ويرياني شيئًا ما من الجمال الباهر الذي تتميز به الزاوية الشمالية الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية. ولقد غدوت قادرًا حتى على أن أعبر إلى كولومبيا البريطانية، وأن أزور (فكتوريا) في جزيرة (فانكوفر) وهي مدينة أكثر إنكليزية من إنكلترا ذاتها، والتي كانت تذكرني ببريطانيا التي عرفتها صبيًا!

ألقيت في إحدى المناسبات محاضرة في جامعة (توري ستيت) في (ألاباما). وفي سنة 1971 تلقيت دعوة لكي أمضي جزءًا من موسم الدراسة الخريفية هناك، وأن ألقي سلسلة من الأحاديث عن تاريخ الشرق الأوسط. وحين كنت هناك طُلب إليّ أن ألقي محاضرة في جامعة (اوبورن) في الاباما أيضًا. وما أن انتهيت من إلقاء محاضرتين، حتى سقطت على حين غرة، من دون وعي. قام

أحد الأطباء بفحصي، وإذ لم يجد شيئًا غير مصيب، نصحني بتناول قدح قوي من الويسكي!

وحين عدت إلى (توري ستيت) أصبحت أصاب بنوبات دوار متواصلة. وفي نهاية مكوثي في (توري ستيت) حجزت لي سلسلة من المحاضرات في عدد من المدن كلها في الولايات المتحدة الأمريكية، وإذ غادرت مدينة (توري) ألقيت حديثًا في (مونتغمري) بولاية (ألاباما)، وفي اليوم التالي طرت إلى (برمنغهام) في ذات الولاية.

وإذ يحل المساء يأخذني المضيفون العطوفون في سيارة إلى داخل المدينة، حيث كان ينبغي لي أن أتحدث في وليمة عشاء في مركز اتحاد الناطقين بالإنكليزية. ولقد توقفوا عند محطة لوقود السيارات حيث ملأوا سياراتهم بالوقود، وخرجنا كلنا حين أحسست فجأة بأنني فاقد الوعي في الشارع. سرعان ما نقلوني إلى مستشفى (سان فنسنت) القريب والذي سمي باسم القديس (فنست دي بيول)، ذلك القديس الذي كان يعمل بين الفقراء في باريس، في القرن السابع عشر، وهو الذي أسس (شريعة أخوات الإحسان) اللواتي كان البعض منهن يقمن بإدارة تلك المستشفى ولقد دهشت الممرضات إذ عرفن بأنني كنت ملمًا بحياة القديس (فنسنت دي بول) في فرنسا.

وفي الوقت الذي كنت فيه ملقى على سريري في المستشفى كانت هناك قائمة طويلة من المشاركات في المحاضرات تنتظرني. ولقد هرعت عميدة الطالبات في جامعة (توري)، (المس ديان هانسون) إلى نجدتي بنداء هاتفي، فأعطيتها قائمة ارتباطاتي بالمحاضرات، حيث اتصلت بلطف وبكل مثابرة لجميع الذين كانوا يتوقعون حضوري، فألغت عن طريق الهاتف، مواعيدي، وأوضحت

لهم ما حدث. أما بالنسبة إليها فإن كل أولئك الناس، كانوا قد خُذلوا نتيجة عدم تنفيذ التزاماتي ولقد بقينا مع (ديان) أصدقاء حميمين، إلى درجة أنها قدمت إلى إنكلترا ومكثت معنا.

قرر طبيب القلب في برمنغهام أن من الأفضل لي أن أعود إلى وطني، وأنه حتى إذا ما أصبت بدوار أثناء الطريق، فإن ذلك لن يكون مميتًا. ولقد أركبني أحد الطائرات، حيث استقبلتني (روزميري) في مطار (هيثرو) وعدنا إلى البيت سالمين. وإذ كنت مستلقيًا في سريري في (سي فيلد) أصبحت التوقفات في قلبي أكثر استمرارًا. وفي الأخير حصلت على سرير لي في (مستشفى القلب) في لندن. لم يخف أحد بالحضور إلي في الحال. وفي اليوم الذي قبلت فيه في المستشفى توقف قلبي مرتين، فأنزلت أثناء الليل إلى غرفة العمليات لإجراء عملية طارئة، وما أن رفعوني على طاولة العملية، حتى توقف قلبي للمرة الثالثة في ذلك اليوم.

أسرع الجراح بإمرار سلك داخل أحد الشرايين من كتفي الأيسر إلى قلبي، وربطه ببطارية خارجية، فحال هذا الإجراء دون توقف قلبي مرة أخرى. وبعد أيام قلائل أدخلت البطارية في القسم الأيمن من صدري، حيث مد منها سلك داخل شريان آخر، إلى قلبي فبدأ ينبض. ولابد أن يكون الجهاز المعروف باسم (محدد الخطو) على وجه التأكيد واحدًا من أعظم المخترعات المدهشة لعلم الطب الحديث.

كانت نوبات القلب التي أصابتني قد وضعت نهاية لجولات محاضراتي الشتوية في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي استطعت بها أن أغدو قادرًا على دفع أجور تعليم أبنائنا. كما أن تلك الجولات قد قدمتني إلى عالم جديد ما كان بوسعي أن أراه، لو لم أكن قد طردت بمشيئة الله من الأردن.

ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية، كانت في الواقع هي العالم الجديد، إلا أنني وجدتها قديمة إلى درجة أنها كانت مليئة بسحر البطولة البشرية. ولا أريد أن أتطرق هنا إلى جمالها الأخاذ. وتنوع مناظرها الطبيعية. لقد تأثرت بكرم الشعب الأمريكي وسخائه، ولكنني مع كل ذلك وفي الوقت ذاته، كنت أحس بشيء من القسوة في مظاهر الحياة الأمريكية. وقد يكون مرد هذا العامل إلى مراحل النضال الأولى التي خاضها الرواد ضد الطبيعة، وضد الهنود الحمر، أو إلى الفجاجة الخشنة للوحشية القديمة التي اتسم بها الغرب.

وعلى الرغم من كل ذلك فإنني، على وجه الإجمال، وجدت الولايات المتحدة الأمريكية بلد السخاء الودي، والصداقات الدافئة، مهما كانت المظاهر الأخرى التي تخفيها أمة على مثل هذا المدى من السعة والانبساط.

خلال السنوات الخمس أو الست السابقة من زياراتي السنوية، كانت المحاضرات في أمريكا تلقى بصفة رئيسة في الجامعات. ومع ذلك فلم يطلب إلي في بريطانيا أن أتحدث في إحدى الجامعات. ذلك لأن ساعة واحدة قد تبدو مستحقة للأشخاص الذي يحملون درجات أكاديمية.

وقد حدث في إحدى المناسبات، في إحدى الجامعات الأمريكية، أن أشرت إلى بصفة عرضية، إلى أن الألمان يبدو عليهم بأنهم أكثر شغفًا بالموسيقى من البريطانيين، ولذلك أنبئت (بأنك لا تستطيع أن تقول مثل هذا الشيء في أمريكا، لأننا نعتقد أن كل عناصر البشر متساوية!).

ويبدو لي أن هذه الملاحظة التي أدهشتني في ذات الوقت، كانت تتسم بقدرٍ جيد من التفكير الحديث. فهي تصور الارتباك المألوف في التفكير إلى حد أن كلمة (مساوي) تعني كلمة (مطابق). فكلٌ امرئ يجب أن يكون متساويًا أمام

القانون، ومع ذلك فإن الناس لا يمكن أن يكونوا متساوين إلا في صفة خاصة. ذلك لأنه لا يوجد شخصان متطابقان في كل شيء يكونان في خانة واحدة.

قد يكون هناك اثنان من الرجال الرسامين أو العدائين الجيدين، متساويين، ولكنهما يكونان، مع ذلك، مختلفين من الناحية الشخصية اختلافًا تامًا. ذلك لأنه لا يوجد شخصان متطابقان في العالم. ومع هذا فإن ارتباكات الفكر، تبرز نتيجة لفكرة المساواة العالمية. فقد قيل أن النساء مساويات للرجال، ولذلك فإنهن على استعداد لأن يصبحن من راكبات الخيل المتسابقة. وسائقات للسيارات أو الخيالات اللواتي يقطعن الطرق بسرعة.

إن النساء مساويات للرجال طبعًا. ولهذا فإن هناك، في الوقت ذاته، تكوينا مغايرًا. فالنساء وحدهن اللواتي يستطعن تدريب الأطفال الصغار، وبذلك يضمن أخلاق الجيل التالي وصحته. آمل أن لا تغضب قارئاتي من أي شيء قد ذكرته. ولأنني أعجب بالنساء أكثر من إعجابي بالرجال، فلست أستطيع أن أفهم لماذا ترغب النساء في الحطّ من قدرهن، وذلك بتقليدهن الرجال.

قد تكون كل المخلوقات البشرية متساوية، ولكنها، خلف هوة المساواة، تخفي تنوعًا لا ينتهي من المواهب، والقوى القابليات.

- 18 -

محاولة فهم الآخر

يواجه العالم كله اليوم ذات المشاكل. وتلك هي سرعة المواصلات، بحيث أن الجريمة التي تقترف في بلد ما، تذاع أنباؤها خلال ساعات قلائل، في كل أجراء العالم، ومن ثم يجري، خلال بضعة أيام، تقليدها باقتراف جرائم مماثلة في جانب آخر من المعمورة (ويندر أن تنقل وسائط النقل الفضائل في أي مكان آخر).

إن العالم برمته مهدد الآن بخطر احتمال وقوع حرب نووية، من شأنها - في أفضل حالة - أن تستأصل نتائج آلاف السنين من الحضارات، وفي أسوأ حالة، أن تنهي الحياة كلها من على وجه الأرض. ومع ذلك، وفي الوقت ذاته، يستطيع العلم الحديث، على وجه التحديد أن يخفف من آلام الإنسانية، إذا ما أمكن استخدام مكتشفات العلم الحديث لأغراض بناءة، بدلاً من استخدامها لإبادة الحياة.

ويكفي أن نقول أن سرعة المواصلات قد قلصت المسافات والعزلة، فأصبح العالم قرية صغيرة. فإذا ما أردنا أن نعالج مثل هذه الحالة بالحكمة والفلاح فإنه من الواضح، ينبغي لنا أن نأخذ بنظر الاعتبار مصالح العالم كله دون خوف أو تحيز. ولكن يشترط لذلك أن تتناول عقولنا، الحالة الدولية برمتها، لأن المثالية التامة لا تكفي لذلك. فكل تفصيل للحياة البشرية، يجب أن تتم رؤيته، بطريقة خاصة ودقيقة.

إن الحرب النووية هي الخطر الطارئ المسلح الذي يواجهنا . ولذلك فإننا ملزمون، قبل كل شيء، بأن نأخذ بنظر الاعتبار، العوامل التي تؤدي إلى وقوع الحرب بين الدول الكبرى. ولما كانت حرب من هذا القبيل، سوف تتحول إلى حرب نووية حتمًا، فإن المبدأ الأول الذي يجب أن نوجده، هو (أن الحرب يجب أن تلغى الآن، وإلى الأبد)، لأنه لا توجد أية وسائل أخرى يمكن استعمالها لتجنب نهاية العنصر البشري.

فما هي إذن، الوسائل التي ينبغي اختيارها لضمان إلغاء أسباب الحرب، وما هي الأسباب التي تؤدي إلى قيام الحرب؟

إن الخطوة الأولى للقضاء على الحرب، تبدو في نظري، في أن يعلن زعماء كل الدول صراحة، وبصفة متكررة، أن قيام حرب أخرى سوف تؤدي إلى وضع نهاية للعنصر البشري، وإن مثل تلك الحرب لم تعد فرضية ضعيفة ينبغي لنا أن نضعها خارج نطاق عقولنا.

إن السبب الأول المحتمل لقيام الحروب في نظري، يتمثل في العادة. بأن الطبقة الوسطى العامة، ورجال السياسة، يدرسون الحروب دائمًا، كما يدرسون الأخطار التي تتعرض لها، نتيجة النوايا الشريرة للدول الأخرى، وحالة دفاعاتنا الخاصة بنا.

وواضح أن الجواب على فشل هذا الوضع المشوب بالحذر، لا يعني أننا يجب أن نخفّض من أسلحتنا، ونأمل من الدول الأخرى أن تتعقب هذا النهج، ذلك لأن مثل هذا المجرى سوف يغري الآخرين كثيرًا بمهاجمتنا. إن المفاوضات بتقليص أنواع محددة من الأسلحة لا قيمة لها، ما دام الخوف والشك مستمرين. إن العلاج الوحيد يجب أن يكون أكثر قطعية، هو أن نستأصل الخوف والشك.

فإذا ما أمكن ذلك، فإن خفضًا أصيلاً للأسلحة يمكن تحقيقه، ذلك لأن كل البلدان المشتركة في خضم السباق، سوف تتحرك في ذات الاتجاه.

الحوار الجاد:

أستطيع أن أتذكر بصفة شخصية، تلك الأيام التي كانت الجماهير فيها، تطالب (بالدبلوماسية الصريحة). كانت مثل تلك المطالبة تقوم على أساس الافتراض بأن المكائد السرية للأباطرة والملوك، هي التي تؤدي إلى قيام الحروب. ولقد اكتشفنا، منذ ذلك الوقت، أن الحروب التي كانت تقع بين الشعوب التي كانت تتطلع إلى أن يفني أحدها الآخر، قد تكون أشد قسوة ووحشية من الحروب التي تقع بين الحاكمين.

على أن (الدبلوماسية الصريحة) غير قابلة للتطبيق. لأنه حتى إذا كانت هناك شركتان تجاريتان تتفاوضان حول إحدى الصفقات، فإنهما لا تعلنان للعالم كيف أن أيًا منهما مستعدة للدفع، وإن كانتا قد تدعان الشركاء فيهما، يجهلون موضوع الصفقة!!.

ويبرز المظهر الخطر للديمقراطية الغربية حين تقدم الحكومة القائمة في سدت الحكم، على أن تبحث علانية، تصرفات أمة أخرى.

فحين استنكر الرئيس الأمريكي (كارتر) في سنة 1979 غزو روسيا لأفغانستان، وأعلن عن نيته في مقاطعة الألعاب الأولمبية، فإن ذلك الاستنكار لم يحمل روسيا على الانسحاب من أفغانستان، ذلك لأن الدولة العظمى لن تلغي سياستها نتيجة تهديدات يطلقها زعيم بلد آخر!

فلو أن الولايات المتحدة الأمريكية، قامت من الناحية الثانية، بإجراء اتصالات دبلوماسية سرية جادة في موسكو، لأمكن التوصل إلى اتفاق يساعد

الاتحاد السوفياتي، بكل هدوء، على التخفيف من سياسته إزاء أفغانستان، من دون أن يخسر اعتباره.

ففي الغرب تكون السياسة الحزبية في الغالب، تمثل تهديدًا للعلاقات الخارجية. فإذا ما اختارت الحكومة خطة ما في ميدان السياسة الخارجية، فإن المعارضة سوف تناقض تلك الخطة في المناقشات التي تقع، ولذلك فإن من اللازم أن نتذكر مدى حساسية البلدان الأخرى، وأن نتجنب إيذاءها علانية.

لقد قيل لي أن المجاملة إزاء الأمم الأخرى تعد من الأمور المستحيلة. وذلك بالنسبة إلى حرية الكلام الموجودة في بريطانيا. غير أنني أتصور بأن الإغراءات التي تقدمها الحكومة إلى الطبقة الوسطى، لابد وأن تحدث بعض التأثير. لسوف يبقى بعد ذلك، السبيل الوحيد الباقي للدبلوماسية السرية التي تحمي البلد الذي أوذي، من اعتذار الحكومة.

إن من اليسير في الحياة أن نوبخ أناسًا آخرين، حين نعتقد بأنهم قد أخطأوا، ولكننا ننسى أن نشكرهم حين يتصرفون تصرفًا حسنًا. ففي أثناء الحرب العالمية الثانية قدمت (الأردن) خدمة مخلصة ومكرسة لقضية الحلفاء. وحين انتهت الحرب حاولت أن أقنع الحكومة البريطانية، بأن تبدي، ولو إشارة عامة، عن امتنانها من الأردن. إن جوابًا يعلن في وقت محدد في مجلس العموم البريطاني، سوف يكون كافيًا،وسيتم نشره في الصحافة المحلية. غير أنني لم أستطع أن أحقق أي شيء من ذلك. (لم تكن هذه السياسة التي طبقتها بريطانيا، وكل الدول الاستعمارية الأخرى في العالم، إزاء الموقف المخلص الذي وقفه الأردن، خلال الحرب العالمية الثانية، بالأمر الجديد. ذلك لأن بريطانيا التي نكثت بالعهود والوعود التي قطعتها للعرب خلال الحرب العالمية الأولى، والذين وقفوا

إلى جانبها ضد تركيا وحلفائها، لم تأخذ العبرة ما حدث وأصرت حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، على انتهاج سياسة التسلط والاستعمار ولم تقم أي وزن لما بذله العرب من مواقف مؤيدة لها أثناء الحرب العالمية الثانية).

وبعبارة موجزة، إن الخطوة الأولى باتجاه وضع نظام عالمي جديد يبدو عليها بأنها ينبغي أن تكون هي المجاملة، والدقة، واستخدام الدبلوماسية السرية، والجادة وعدم استخدام الانتقام، لدى الأمم الأخرى، في صفة سلاح من السياسة الحزبية!.

أسباب الصراعات الدولية:

وما دمنا قد بحثنا آثار الخوف، والشك، والعادة، فإن علينا أن ندقق الآن، بصفة أوثق، أسباب الصراعات الدولية،أن أحد هذه الأسباب يكمن، دون ريب، في التنافس على الموارد الطبيعية التي توجد في البلدان الأخرى ويتمثل الشيء الرئيس من هذه الموارد الطبيعية، (وقت تأليف هذا الكتاب)، في النفط. فلغرض أن نحمي البلدان التي نحصل منها على النفط، كما نحمي خطوط أنابيب النفط، والطرق البحرية النابعة منها، ينبغي لنا أن نحتفظ بالأساطيل، وبالقواعد في كل أنحاء العالم!.

لست أعرف السبب الذي يقنعنا بأن نظل في غمار مثل هذا الوضع المعرض للخطر. من الحكمة، أن نهيىء أنفسنا لإنتاج ما لدينا من مصادر الطاقة؟. لقد أنتجت سويسرا، حتى في الأيام التي كنت فيها على مقاعد الدراسة، كل طاقتها الكهربية الخاصة بها، وبقيت على الدوام بلدًا نظيفًا، وكفئًا، ومدعمًا ذاتيًا في ميدان الطاقة. لقد وهبها الله بالطبع جبالاً توفر الطاقة المائية. ولست أستطيع أن نفهم لماذا لا نكون نحن مكتفين ذاتيًا في ميدان الطاقة؟

ألسنا نستطيع أن نستخدم استخدامًا تامًا، مثل هذه الجبال والأنهار التي نحتفظ بها؟ ولماذا لا نستطيع أن نستثمر أمثال تلك الموارد الطبيعية الخالصة، كالرياح، وتيارات المياه، أو الشمس، لكي نحرر أنفسنا من الكلفة، ومن خطر الوقود المستورد؟ إننا إذا ما نجحنا في ذلك ، فإن الأمم الأخرى سوف تسارع إلى محاكاتنا، ولسوف يستغني العالم عن الخوف والتنافس الدائمين، وعن الأساطيل، والقواعد التي تطلبتها ضرورة استيراد الطاقة من الخارج. ومع ذلك فإن من المستطاع أن نؤكد جيدا، بأن عادة الخوف، والكراهية، والشك، تلك العادة التي تحث على استيراد النفط، إن مثل هذه العادة قد تكون سببًا من أسباب الحرب. فإذا ما تم استئصال الخوف والشك، فإن كل الأمم تستطيع أن تشتري النفط من أي مكان، وفي سوق علنية.

محاولة لفهم الآخر:

كان من عادة البريطانيين، وذريتهم من الأمريكيين، الإحساس بالمضايقة في محاولتهم تعليم الأمم الأخرى كيف تحب. وتلك خاصية ربما كانت قد ورثت من الطهريين، وقد لاحظنا قبلاً بأن الأمريكيين الذين كانوا يعيشون في عزلة، لم يدركوا وجود ثقافات أخرى، تقوم في الغالب على أسس من التقاليد غير الواعية، تبلغ في القدم آلاف السنين، وقد أصبحت تؤلف طبيعة ثانوية.

فالبريطانيون، باتصالهم الطويل مع آسيا وأفريقيا، لابد وأن يكونوا على معرفة أفضل، ولكن لا يبدو عليهم غالبًا، بأنهم يفعلون ذلك! وحين نقول اليوم بصفة انجذابية، بأن العالم واحد، فإننا ننسى أن مضي عشرة آلاف، أو عشرين ألف سنة من التطور داخل العزلة، قد أوجد فروقًا واسعة في الفروع المختلفة للعنصر البشري. ولذلك فإن محاولاتنا لإقناع هذه الفروع، أو إجبارها كلها، على أن تختار عاداتنا، أو مؤسساتنا، يكون مآلها إلى الفشل والإخفاق.

ففي مستطاعنا أن نفعل الأفضل من ذلك، بأن ندع هذه الفروع لوحدها، كيما تتطور بطريقتها الخاصة بها، وأن نتجنب إيذاءها حين ندمغها بالتأخر، ونعاملها باللطف المشوب بالتفوق.

هنالك أقطار كثيرة من أمثال أفريقيا الجنوبية، كانت قد واجهت مشاكل ليست لنا أية تجربة فيها. ومع ذلك فإننا نسارع ليس لكي نستنكرها ونذمها، بل لكي نسعى إلى أن نقنعها بأن تتلائم مع آرائنا الخاصة. فإذا ما أردنا أن نؤثر فيها، أفلا نستطيع أن نفعل ذلك، بصفة أوفر تأثيرًا، بأن نعتبرها من الأصدقاء أو الحلفاء، بدلاً من أن نحاول أن نقاطعها؟

إن واحدة من القواعد التي يقوم عليها المجتمع المتمدن، هو أن نفكر في أعمالنا الخاصة. فإذا ما أردنا أن ننبئ جيراننا بأننا لا نؤيد الطريقة التي يعامل بها (سمث) الساكن في ذات الشارع الذي نسكنه نحن،زوجته، أفلا ينبغي لنا أن نساعده لكي يحل مشاكله، أو أن نعمد إلى تقسيم مجتمعنا إلى طوائف؟

قارب (تورهايردال):

(عن سياسة الحكومة دع الحمقى يتجادلون! فكل ما تجري إدارته، بصفة حسنة، يكون هو الأفضل). بهذه الصفة كتب (الكسندر بوب) Alexander Pope (1688-1744) من زعماء الشعر الكلاسيكي في بريطانيا ظهر واشتهر في عصر الملكة (آن). كان هزيلاً ومشوهًا ومتمسكًا الكاثوليكية، ولذلك أصبح الناس ينفرون منه، لكنه كان ذكيًا تفتحت مواهبه في سن مبكرة. قضى سن مراهقته عاملاً على مقربة من غابة (وندسور) وقد ذاعت شهرته قبل أن يتعدى الخامس والعشرين من عمره. كان يتطلع إلى أن يحل في بريطانيا ذات المنزلة التي احتلها الشاعر الروماني (فرجيل) كانت مجموعة قصائده الأولى، المعروفة (بالريفيات).

هي التي لفتت الأنظار إليه.. وكان قبلها قد ظهرت قصيدته الهزلية (سلب خصلة الشعر) بدأ بوب في سنة 1715 يترجم أشعار هوميروس شعرًا إلى الإنكليزية. وقد أثرى من وراء تلك الترجمة التي درت عليه حوالي تسعة آلاف باوند في ذلك الوقت، فاستقر في منطقة (نوتنغهام) واتخذ له صالونًا في مغارة اصطناعية. كانت أكبر آثاره التي كتبها في كهولته ملحمته الهزلية (سوتسيا) التي يسخر فيها من الشعراء المخالفين لأفكاره. وهاجم الشعراء الصغار في قصيدته (رسالة إلى الدكتور أربثنت). في سنة 1733 وفي عصر أكثر حكمة من عصرنا الراهن. فنحن اليوم نتصرف بطريقة مناقضة لذلك. إننا نلحّ على كل أمة في العالم بأنه يجب عليها أن تختار ما ندعوه (بالديمقراطية الغربية). ففي كل مستعمرة جلت بريطانيا عنها، أنشأت فيها (نسخة) من مؤسساتها قبل أن تغادرها. ففي كل قضية غالبًا (ما عدا نهج الدومنيونات التي كانت مأهولة بالإنكلوسكسون والأوروبيين) كان النظام الذي أقيم على هذا الأساس، قد تداعى وانهار.

إننا لم نسمح، أو هل يمكن أن نسمح بوجود الفوارق الواسعة في الثقافات وفي التقاليد؟.. ففي كل قضية تُعلق الأهمية على صيغنا الخارجية ليس إلا. فالديمقراطية الغربية ليست ملائمة لكل العالم، ذلك لأن الصيغ التي نمت من تقاليدها الماضية، هي التي تكون أكثر نجاحًا. إننا نخطئ أيضًا إذا ما افترضنا بأن الشيوعية تستطيع أن تكتسح العالم. إن جزءًا من الواقع قد دَلّلَ على أن الاتحاد السوفياتي نفسه قد أصبح الآن أقل شيوعية.

حين أعلنت الصين عن نفسها بأنها شيوعية، تراجع العالم الغربي، غير أن الشيوعية في الصين قد برهنت على أنها تختلف اختلافًا تامًا عن (النوع) الروسي من الشيوعية، وسرعان ما أصبح البلدان، روسيا والصين، في خضم عداوة ساخنة.

وحين كان يظن بأن فيتنام سوف تصبح دولة شيوعية، أحست الولايات المتحدة الأمريكية بأنها ملزمة بأن تتدخل.. ولكن لو لم تفعل الولايات المتحدة الأمريكية ذلك، لاتخذت الشيوعية الفيتنامية لها صيغة محلية أخرى، تختلف عن النوعية الغربية الأوروبية. فالثقافات، والتقاليد المحلية، تكون على الدوام، أقوى من الأنظمة الأجنبية المستوردة!

لقد خلقت المخلوقات البشرية متساوية بالطبع. ولكن علينا أن نعترف بأنها تختلف اختلافًا واسعًا من واحد إلى آخر، وأن معظم اختلافاتها تلك تكون اختلافات ظاهرية. فلو كنا في البحر داخل قارب مكشوف يضم أربعة أو خمسة أناس من مختلف القوميات، فإننا سنبحث على الفور من الأصدقاء. ولقد برهن (تورهايردال) على ذلك حين أبحر عبر المحيط الأطلسي في قاربه المصنوع من القصب. فلقد اختار بصفة متعمدة، سبعة من الملاحين المختلفين، أحدهم نرويجي، والثاني إيطالي، والثالث مكسيكي، والرابع من الولايات المتحدة الأمريكية، والخامس من مصر، والسادس روسي، والسابع من تشاد في أفريقيا الوسطى.

ولكن الواقع هو أن معظمنا يعيش بالمظاهر. فنحن نكره الطريقة التي يأكل بها الآخرون، أو يتحدثون، أو يجلسون. ومن الضروري أن نؤكد هذه الحقيقة. فالأشخاص الأفراد، أو الأعضاء الصغار، قد يعيشون في بلد أجنبي فيهضمون ثقافته هضمًا تامًا. وغالبًا ما كنت أحس وأنا في وطني، بأنني أعيش مع العرب أكثر مما أعيش مع البريطانيين. فأمثال هؤلاء الأشخاص الذين يتأقلمون بمثل هذه الصفة، مع الثقافات الأجنبية، يكونون ذوي قيمة، لأنه يترجمون شعبًا ما إلى شعب آخر، ويقيمون تجارة دولية ناعمة، ومربحة عن طريق التبادل.

ولكن ما أن يتصل عنصران أو ثقافتان، بعنصر آخر، أو ثقافة أخرى، أكثر عددًا حتى ينمو التنافس فيما بينهم.. ما أكثر الكراهيات التي تزيد من عدم

استقرار العالم في الوقت الحاضر. والتي يعود سببها إلى التصادم بين الثقافات المتباينة، والطوائف الموجودة في قطر واحد؟

لقد كان المثاليون الذين رحبوا بالمهاجرين من قارات أخرى إلى بريطانيا، يلعبون بالنار. إن كل الأفراد متساوون طبعًا، ولكن الثقافات والعروق المتباينة، تتحول إلى منافسات وعداوات، إذا كانت من طوائف كبيرة في قطر واحد. فلكي نتباهى بأنه اصبح لدينا مجتمع متعدد العناصر في بريطانيا، فإن ذلك كان ينطوي على الخطر!.

إن عكس ذلك صحيح تمامًا. فالطوائف الكبرى من الأوربيين في آسيا، وفي أفريقيا، تكون هي الأخرى عرضة إلى إثارة الكراهية ضدها. دعونا نعجب، ونثني على الأشخاص الذين خططوا للمشاريع، والذين سهلوا التفاهم الدولي، عن طريق سكناهم في بلدان أخرى، وهضمهم لثقافاتها. ولكن دعونا، في ذات الوقت، أن نستعمل الحذر الشديد في تشجيع إقامة طوائف أجنبية كبيرة، في أي بلد.

إنه لمن المدهش أن نرى كيف أن أي ميل متطرف، في أي عمر كان، يخلق الضد له. لقد كانت أوقات العنف والكراهية في التاريخ في الغالب، تخلق أعظم القديسين!

وبطريقة مماثلة، فإن سرعة السفر، التي تميل إلى أن تلفَّ كل العروق سوية، يبدو عليها بأنها قد منحت عاملاً مثيرا وشديدًا، لأعمال التطرف المحلية، ولانقسامات أصغر فاصغر. فالإمبراطورية الرومانية التي قامت قبل ألفي سنة (حيث كان السفر مشيًا على الأقدام، أو على ظهر جواد، أو في عربة صغيرة يجرها أحد البغال) إن هذه الإمبراطورية قد توزعت الآن، إلى حوالي أربع وعشرين أمة مستقلة، لكل منها حكومتها الخاصة بها، وقوانينها، ولغتها، وعملتها، وقواتها المسلحة.

فأنت الآن لا تحتاج إلا لمسافات قلائل، لكي تطير من إحدى نهايات الإمبراطورية الرومانية السابقة إلى النهاية الأخرى. ومع ذلك فإن كثيرًا من الدول التي أعقبت الإمبراطورية السالفة، تعيش في الوقت الحاضر، في علاقات سيئة مع دول أخرى من ذات القبيل.

بانقسامات أخرى. فهذه كوستريكا ترغب في الانفصال عن فرنسا، وهذه (الباسك) تتطلع إلى أن تفصل نفسها عن أسبانيا. ويتنازع المتحدثون بالفرنسية والفلمنكية في بلجيكا، في الوقت الحاضر.

إسبرانتـو:

تؤلف اللغة واحدة من العوائق الكبرى أمام التفاهم بين البشر. ففي سنة 1905 نشر (تسا منهوف) وهو بولوني، مشروعه عن لغة الـ (إسبرانتو)، أي لغة الأمل، لاستعمالها في كل أنحاء العالم. أما الآن، فإن كل سنة، ترى جهودًا أكثر تصحيحًا لإحياء لغات ماتت منذ قرون، إن لم نقل منذ آلاف السنين، وتكون نتيجة ذلك وجود أناس منعزلين، أحدهم عن الآخر.

ويزعم البعض أن هذه الإحياءات ثقافية خالصة. ولكن مع كل ذلك غالبًا ما نراها تلقي الدعم بطريقة إحراق المباني والممتلكات عمدًا، وباستعمال المسدس، والقنبلة الموقوتة!

الجميع أبناء الله:

إنني سعيد لأن أكون مسيحيًا، لأن المسيحية هي دين المحبة وإنها إذا عاشت حية صحيحة، فإنها تركز المزيد من التأكيد على المحبة، أكثر من أي دين آخر! ولكن لا يبدو لي بأننا نستطيع أن نزعم بأن الله لا يحب سوى المسيحيين. فقد قيل لنا إن الله يحب العالم، وليس اليهود أو المسيحيين وحدهم.

ومهما يكن الأمر فإن (إبراهيم) الذي يزعم بنو إسرائيل، بأنه هو جدهم، كان قد عاش في حدود ألف وثمانمائة سنة قبل المسيح. ولقد أنبأنا الأثريون بأن هناك مدنًا وقرى كانت قائمة في فلسطين قبل سبعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح. ترى هل أن الله لم يحب البشر الذين خلقهم قبل أن يولد إبراهيم؟

لهذا السبب يبدو بأن معظم بقية الأرض كانت مأهولة بالسكان قبل إبراهيم بآلاف السنين، فهل أن الله مختلفًا بالنسبة إلى النوع البشري طيلة هذه العصور الطويلة؟ فحتى اليوم لا يزال يوجد مئات الملايين من البشر في العالم، الذين لم يسمعوا بالإنجيل، فهل يعني ذلك أن الإنجيل لا يحب أمثال هؤلاء الناس؟ .

يبدو في نظري أن الله هو الروح التي تملأ الكون،وهي قادرة على أن توحي إلى أرواح الناس وعقولهم. ألم يكن من المتوقع أن الله كان يفعل ذلك دومًا؟، وأن كل عمل حسن، وفكر نبيل، قد استلهم من الله منذ بداية العالم؟

وإذن دعونا أن نعمل بأفضل ما لدينا من قدرة، على أن تطوي عقولنا لكي ننظر إلى كل عناصر الجنس البشري، بالحب المتساوي، والاحترام، والمجاملة. ولكن دعونا في ذات الوقت أيضًا، أن نتذكر بأن الفروق بين العناصر إنما تعود القهقري، عبر آلاف من السنين التي قطعتها التجربة المتغيرة، التطور الثقافي.

دعونا نتذكر بأن المثالية، التي تزعم عدم وجود عناصر، بل عنصرًا بشريًا واحدًا، والتي تدافع عن الامتزاج الحسي بين كل الشعوب في كل مكان، إن هذه المثالية غالبًا ما تؤدي إلى الكراهية الحادة، والمنازعات الداخلية، والإرهاب الوحشي ليس إلا.

باللجوء إلى استعمال المسدسات والقنابل. ومع ذلك فإن مثل هذه الشعوب تمضي بعيدًا في إنتاج العنف الذي ينتهي بالعنف المادي.

وإذن دعونا أن نحب كل أمم العالم، ولكن في ذات الوقت أن نصنع تقييمًا صبورًا محتملاً لكل رغائب هذه الأمم. فحيثما تجعلنا، أسسها المتغيرة، غير مرغوب فيها لدى إحداها الأخرى، دعونا أن نسمح بوجود النقص لديها، وأن لا نلح عليها، بأن تتمازج، وبذلك نكون قد أثرنا الخصومات الداخلية بمثل هذا الإلحاح.

دعونا أن لا نتوقع، أو نأمل، بأن العالم كله سوف يكون مثلنا، أو أن ننتقد أولئك الذين جاؤوا من ثقافات وأسس متباينة.

- 19 -

الإمبراطورية التي غابت عنها الشمس

حين كنت طفلاً اعتدت أن أصلّي دائمًا (إلهي أتضرع إليك بأن تكون بريطانيا على الدوام، أعظم دولة في العالم، وأعظم دولة تعمل الخير في العالم!).

ولقد كانت بريطانيا، قبل سنة 1914، أعظم دولة في العالم فعلاً،وأعظم دولة تعمل في سبيل الخير، كما أعتقد. غير أن انحطاطها خلال السبعين سنة الأخيرة يعود إلى انحطاطها الخلقي، وليس إلى ظروف خارجية، ومن المحتمل أن يكون ذلك الضعف في خلق بريطانيا قد أدى إلى ظهور نظريات خاطئة، جعلتنا نعتقد بل نزعم بأن تخلينا عن خدمة الآخرين ومساعدتهم، إن هذا التخلي يعتبر من الفضائل.

لقد تأكد لدى الكثير من الناس في بريطانيا خلال القرن التاسع عشر، بأن الإمبراطورية إنما كانت تعني بأنها هي خادمة الآخرين. هناك مبدأ واحد من المبادئ الأساسية يقول (إن خيركم من يكون خادمًا للجميع).

كان أبي، الذي ولد في الهند، أثناء العصيان الذي حدث فيها، مقتنعًا كثيرًا أن الشعب البريطاني يخضع لالتزام أخلاقي بأن يخدم كل شعوب الإمبراطورية، وليساعدها. ولغرض أن يحقق ذلك تورط الشعب البريطاني في مشاق عديدة، اشتملت على فترات طويلة، من النفي إلى أقطار نائية، وافتراق الأزواج

والزوجات والأطفال، والتعرض للأخطار وللحرمان. ومع ذلك كانت أمثال هذه الأعمال مسرة حين تعتبر بمثابة خدمة.

العقل البشري آلة متعددة الجوانب، نستطيع أن نستخدمها لإقناع أنفسنا بصواب أي عمل تدفعنا إليه أحاسيسنا. فمن حدود سنة 1897، وما بعدها، وهي سنة يوبيل الملكة فكتوريا، أخذ الإحساس بالسيطرة والتسلط يضعف. ولقد بدا في أول الأمر وكأنه قد تحول إلى إحساس بالفخر، بأننا الذين نملك الإمبراطورية.

ولكن هذا الإحساس، ما لبث بعد الحرب العالمية الأولى، أن تحول إلى إحساس من عدم المبالاة، فلم نعد نتضايق من أن نذهب لكي نخدم الشعوب الأخرى. ولقد استطعنا بيسر أن نقنع أنفسنا بأن هذه فضيلة وحق نملكه لكي نترأس العناصر الأخرى؟ والحقيقة أن مثل تلك الآراء يمكن أن تأخذ شكلاً يبرهن على الدوام، بأننا قد فقدنا القاعدة الخلقية للإمبراطورية التي لم تؤسس بقصد السيطرة على الشعوب الأخرى، بل لخدمتها.

يؤكد التاريخ أمثال هذه النظريات فالإمبراطوريات السالفة، قد تخلت، بصفة اعتيادية، عن مسؤولياتها حين ضعف النسيج الأخلاقي لدى القادة، فالمستعمرات، والمحميات، كانت على الدوام تتوسل بالحكومة الإمبراطورية بأن تظل قائمة، ونادرًا ما كانت تثور وتتمرد وتتطلع إلى قطع علاقاتها وكانت هذه هي الحال بالنسبة إلى كثير من المستعمرات البريطانية التي اضطرت إلى أن تصبح مستقلة.

كان أساس الإمبراطورية يقوم على الخدمة، فالمثل القائل أن (خيركم يجب أن يكون خادم الجميع) يعني أن دور بريطانيا في الإمبراطورية، هو أن تخدم

الأعضاء الآخرين فيها، ومن اللازم أن يفترض هذا المبدأ بأن مصالح كل الأعضاء وتقاليدهم يجب أن تكون محترمة، وأن يتم تمتينها بصفة متساوية.

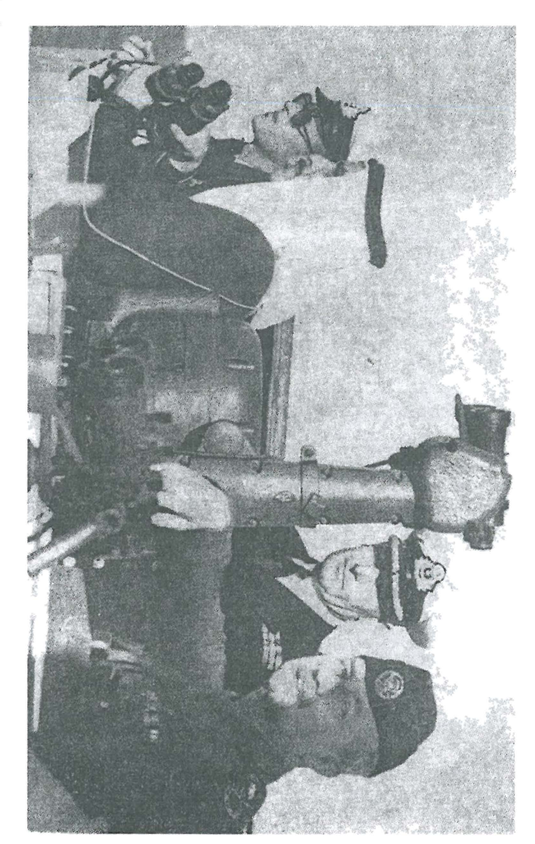
ولقد طبق هذا المبدأ تطبيقًا آليًا في الأيام الأولى. مثال ذلك ما حصل في الهند فقد كانت حكومة الهند هندية في الغالب مع قلة من الموظفين البريطانيين، الذين (تهندوا) في المراكز الرئيسة التي تحفظ الأمن بين المتنافسين المحليين، وتضمن تعاون الجميع.

ولكن بتحسن المواصلات أصبحت الحكومة المحلية في بريطانيا، قادرة على التدخل، وتأكيد وجودها. ولما كانت تجهل التقاليد الهندية، وخلفية تلك التقاليد، فقد اعتزمت الحكومة البريطانية أن تستخدم سلطتها في المؤسسات الهندية (المتنكلزة) وتلك غلطة مهلكة، لأن عمر الثقافة الهندية كان يمتد إلى آلاف السنين، وبعبارة موجزة أن صيانة الإمبراطورية كان تتطلب الاحترام المتبادل لتقاليد كل الدول الأعضاء في الإمبراطورية.

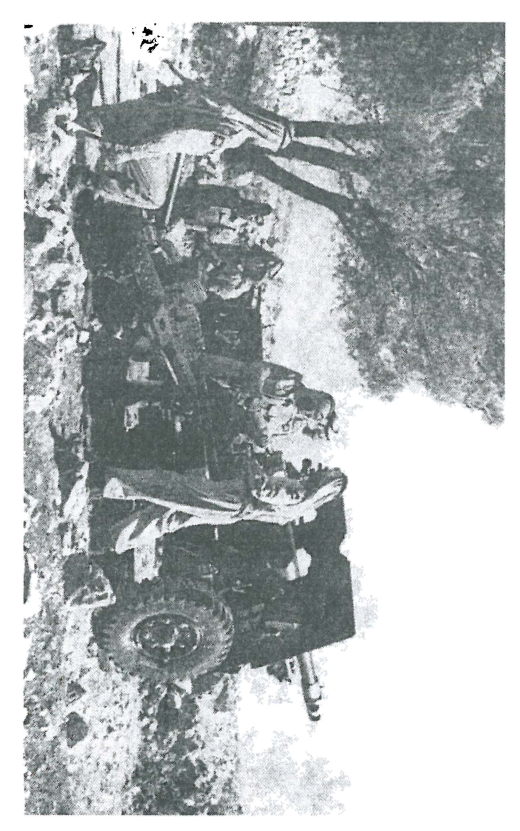
ما يزال (الكومنولث) البريطاني قائمًا وكل ما هو مطلوب لتوطيده وتحويله مرة أخرى إلى (أعظم قوة للخير في العالم) هو أنه ينبغي على شعب بريطانيا أن يطبق القاعدة الذهبية القائلة (إن من يكون أخيرَكم (بفتح الياء)، دعوه أن يكون خادمكم جميعًا!).



الملك عبدالله يمازح المؤلف



على متن المدمرة في العقبة. من اليسار: الأمير فيليب دوق أدنبره، الأمير طلال بن عبدالله، ربان المدمرة والمؤلف



أحد مدافع الجيش العربي من عيار 25 أثناء العمل. «كانت كفاءتنا التقنية قد بلغت المستوى الذي يتمتع به الجيش البريطاني»

M E M O I R

مذكرات غلوب باشا
حياتي في المشرق العربيّ





المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ٢٠٠٥م
◆ الغلاف: زهير أبو شايب.